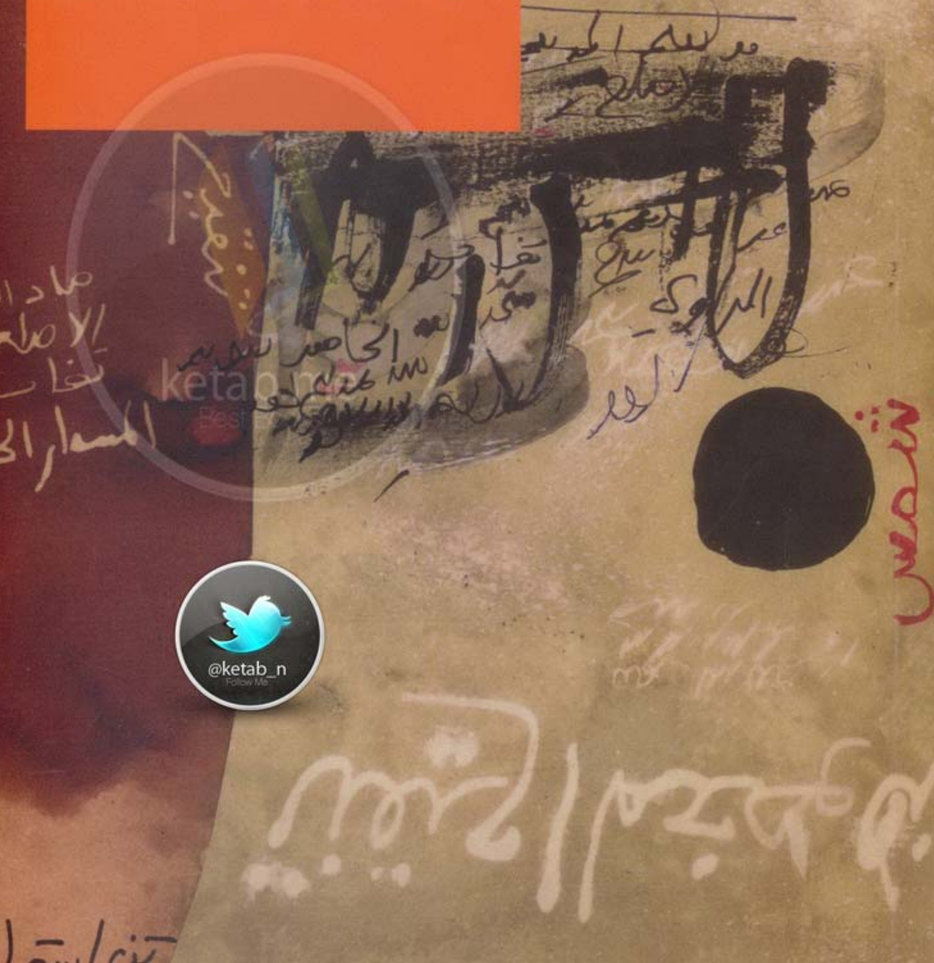
محمد الحارثي

تنقيح المخطوطة



منشورات الجمل

رواية

محمد الحارثي

تنقيح المخطوطة

رواية

منشورات الجمل

محمد الحارثي: **تنقيح المخطوطة**، رواية

ولد **محمد الحارثي** عام 1962 في المُضيرِب - عُمان. صدر له: **عيون طوال النهار**، شعر - الدار البيضاء 1992. **كُلُّ ليلة وضُحاها**، شعر - كولونيا 1994. **أبعد من زنجبار**، شعر - القاهرة 1997. **فُسيفِساء حَوّاء**، قصيدة - طبعة خاصة محدودة ومرقمة بـ150 نسخة، مسقط 2002. **لُعبة لا تُمَلّ**، شعر - كولونيا 2005. **عين وجناح**، رحلات في الجُزر العذراء، زنجبار، تايلاند، ڤيتنام، الأندلس والرُّبع الخالي - طبعة أولى، بيروت/أبوظبي 2004 - طبعة ثانية، كولونيا (ألمانيا) 2008 - طبعة ثالثة سبتمبر 2009، صدرت ضمن مشروع «*كتاب في جريدة*» الذي ترعاه منظمة **اليونسكو** UNESCO. **الآثار الشعرية لأبي مُسْلم البهلاني**، تحقيق ودراسة - بغداد/بيروت 2010. **ورشة الماضي**، أوراق في السَّرد، الشعر، السِّينما، وسير الترحُّل - بيروت 2013. **عودة للكتابة بقلم رصاص**، شعر - بيروت 2013. حاز **جائزة ابن بطوطة للأدب الجُغرافي** عام 2003 عن كتاب الترحُّل. ترجمت بعض أعماله الشعرية للإنكليزية، الألمانية والفرنسية.

محمد الحارثي: **تنقيح المخطوطة**، رواية، الطبعة الأولى
لوحة الغلاف: للفنان المغربي أحمد بن اسماعيل

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

المخطوطة

الفصل الأوَّل

كاد أن يقترب من مشارف النهاية حين تثاءب للمرة الثالثة، لكن الأحداث كانت أقوى من إشارات سلطان النوم وأكثر إلحاحًا لمتابعتها حتى آخر سطر. لذا علّم الصفحتين اللتين تثاءب في ثناياهما -قبل أن يضع الرِّواية على الطاولة- بعلامة قصّ آملاً أن توقف العلامة تسلسل أحداث الرِّواية المُتسارع حين مشى بتثاقل نحو نافذة المجلس واضعًا يديه على خاصرته، مستديرًا يمنة ويسرة لطرطقة أضلاعه علّه يستعيد حيوية كادت شمعتها أن تذوي تلك الليلة.

تأمَّل شاشة النافذة مليًّا، لكن اللقطة الليلية المألوفة وراء الزجاج لم تتغير: صمت الشارع الصغير وخلوه من المارة خلف سور بيته الخفيض. خطوط أسفلْتِهِ البيضاء المتقطعة. أشجاره الواقفة بانضباط طابور من الكشافة. مصابيحه الصفراء وظلال أعمدتها المتكسرة على الأفاريز. قططه الباحثة عن وليمة ليلية في صندوق القمامة. خربشات أولاد الحيِّ المشبطة لهمم فريق كرة القدم المنافس. البيت البديع في الصَّف المقابل بقرميده المائل على حديقة مانغو وموز وفافاي تزنر أسلوب معماره المستوحى من جُزر السّواحل. مئذنة المسجد المثقلة ببوقين كهربيّين مصنوعين في

الصّين. دكان العجوز الهندي بابو بأبوابه الخشب، ومكيف هوائه الذي نخرته دودة الصَّدأ وتشربت قطراته الراشحة شجرةُ المانغو المثقلة بثمار سيعضّ حموضتها تلاميذ الحيّ في طريق عودتهم غداً من المدرسة. سيارة جاره الرياضية بشاحنها التوربينيّ المزدوج ولونها البرتقالي المُميز. طابور السيارات النائمة على الرصيف، وسيارته التي لم يبخل عليها بنظرة خاطفة ذكرته فورًا بملاحم صُمودها العريق في مربضها الذي لا تفارقه إلاّ في مناسبات نادرة تقودها -تقود نفسها، بالأحرى- في نزهات ليلية لم يجد لها تفسيرًا في أكثر أحلامه تعقيدًا وأقلها قابلية للتأويل.

أسدل الستارة على تفاصيل اللقطة المألوفة وراء زجاج النافذة، قبل أن يستدير خلفًا ليلقي نظرة على ميناء ساعة الحائط وأخرى على شاشة التلفزيون المُطفأ وثالثة على لوحة الجَمل البارك تحت غافة ظليلة في صحراء زيتية الألوان، لم يلبث أن أتبعها بنظرة أخيرة على لوحة غلاف الرِّواية التي وضعها بزاوية مائلة على الطاولة، فيما كان يعبر الممرَّ المُفضي إلى المطبخ لاقتطاف كوب منعش من شجرة الشاي المرسومة في العلبة السّيلانية بإتقان رسام من القرن التاسع عشر؛ علَّ رشفات منه تعينه على تتمة الأحداث بيقظة وانتباه لمتابعة التسيار في حقل المفاجآت التي ستفصح عنها الفصولُ الأخيرة.

فتح الثلاجة بحثًا عن شوكولا أو فاكهة ناضجة، مُدندنًا بلحن أغنية قديم استعاد إيقاعه بتأثير من الأثير الغامض للمقطوعة الموسيقية التي عزفتها محبوبة المُغنِّي الجوَّال في حديقة الفصل الذي كاد سلطان النوم أن يسلبه متعة تتمَّته، لو لم يقم من الأريكة لاقتطاف كوب منعش من شجرة الشاي، دون أن يتوقف عن

التفكير في حُسنها الذي تركه مُشعًّا كآية الآيات بين السطور، في شعرها الفاحم كحبر الكلمات التي رسمت آية الحُسن بإتقان إله مُتفيِّق، في عينيها الوسيعتين كبحيرة زرقاء تفيض طيورها - بالأحرى، يمامتها الوحيدة- على الصفحات التي تنكسر على ضفافها نهاياتُ الأسطر، لتكمِلَ الكلماتُ رحلة انسيابها التي لا تنتهي بدُرّاقة فمها المزموم إلاّ لتبدأ بأنفها المرسوم كأنما بضربة متقنة من ريشة الإله الذي لن يكون بمستطاعه أن يخطئ نِسَبها الجمالية الدقيقة وهي تهبط رويدًا رويدًا من استدارة الوجه البيضاوي إلى اشرئباب زرافة العُنق بضربة لونية مباغتة؛ أعمته (خلال القراءة) عن تمييز الحائز قصب السَّبق: ريشة الإله أم الكلمات التي رسمت التفاتةً ساحرة لم يقو على مقاومة جاذبيتها وهو يُبلل ريقه لإطفاء لذعة فلفل افتتانه ببراعة مؤلف الرِّواية الذي كما استطاع أن يجعل حُسنها المشع بين السطور آية الآيات؛ استطاع أيضاً -وتلك ضربة المُعلِّم- إبراز نقيضها الغائب في غياهب البُعد المأساوي لشخصيتها المعذبة بأرق لا شفاء منه، ولا دواء لغرابة أطوارها الناتحة قطرة قطرة من جرّة كوابيسها التي باطَنَ تقنية المؤلف الروائيَّة وهي تخشوشن سطرًا إثر سطر، صفحة فردية الترقيم إثر صفحة زوجية، إلى ما لانهاية للحبكة التي بلغت إحدى ذراها مصادفة في صفحة فردية الترقيم؛ حين أسرَّتْ بطلةُ الرِّواية لماشطة شعرها وكاتمة أسرارها بنواياها التي لم تتوان في الإفصاح عنها بعد ثلاثة أيام أمام طابور الأحد عشر خادمًا الذين صعقوا بالأسلوب المبتكر الذي اعتمدته لإعلان تمردها وعصيانها لأوامر أبيها الإقطاعيّ ونواهيه:

إجبار خمسة من أولئك الخدم -بأقلّ كلمات الأمر استخدامًا،

وأكثرها حسمًا- على إخراج الپيانو النمساويّ الثمين من صالة القصر إلى هواء حديقته الطلق تحت ظل السنديانة العجوز، لتعزف مقطوعتها الأثيرة في صفحة زوجيَّة الترقيم؛ علّ النغمات المنبعثة من فراشات أناملها تصلُ محبوبها الذي لم تنفطر خوخة قلبها الصغير إلاّ لمُحيّاه، ولم تفكر في ليلة ماطرة أو ظهيرة قائظة في أحد سواه، تحديًا لقسوة أبيها التي أبت إلاّ أن تكون سدًّا منيعًا أمام محاولات اقتراب المحبوب الخجول من حرم القصر الذي شُدِّدت حراسته بعد أن تناهت إلى مسامع الأب، عبر جيش من صغار جواسيسه، قصة حبهما الجارف، حبهما الذي أجّجته نار لاهبة لا قِبلَ للأب باستكناه جمرتها الكامنة في شفق ولعهما المشترك بالموسيقا - علّها، علّ النغمات الوارفة بظلال السنديانة العجوز، خلال عزفها في الهواء الطلق، تصل المحبوب الذي لم تأسرها وسامته الفطرية فحسب، بل صوته المُطيَّب بقرنفل حزن فواح قد تخطئه الحواس الخمس كُلها، لكن حاستها الموسيقية السادسة لم تكن لتخطئ لوزة العسل المذاب في حنجرته عندما تُقطِّرها -بمعزل عن سائر طبقات الصَّوت- أذناها الصغيرتان، لحظة يبدأ محبوبها الغناء وحيدًا، ولا ينتهي تغريد عصافيره بمعيَّة فرقة شعبية كانت تجوب أحياء الرِّواية وفصولها.

* * *

بعد أن أشعل الموقد بعود ثقاب لغلي الماء في الإبريق، أغلق باب الثلاجة حين اكتشف خلوها من ألواح الشوكولا والفاكهة، عدا ثلاث حبات من الرُّطب تناولها واحدة بعد أخرى في انتظار غليان الماء ليضيف إليه حفنة من الشاي، مُستعيدًا أحداث الفصل الذي

ألهمته موسيقاه ترداد لحن أغنية قديمة ظل يدندن بها ليرتد صوته من حيطان المطبخ طوال فترة إعداده الشاي. ولأنه حريص على عدم جريان الأحداث في غيابه (رغم تيقُّنه من متانة سَدِّ علامة القصّ التي وضعها بين الصفحتين)، توقف عن متابعة الدَّندنة، بيد أن سطوة الإيقاع في ذاكرته كانت أقوى من محاولته الاحترازية تلك، حين وجد نفسه لحظة صَبّ الشاي في الكوب، يُدندن بلحن تلك الأغنية دون أن يتوقف، هذه المرة، اختبارًا لقدرته على تذكُّر رقم الصفحة التي توقف عندها، لو انهار سَدُّ علامة القصّ الهشّ ليتقدَّمَ بالأحداث عدة صفحات إلى الأمام؛ بعد أن تكون معزوفة البيانو في حديقة الرِّواية قد انتهت، ليفوِّتَ على نفسه متعة التقاط الخيوط الدقيقة لصنعة الكاتب الذي أخفى في الكواليس شخصياته الروائيَّة الأخرى إنضاجًا لشغفها المُتحرِّق لأداء أدوارها التي لم تحن بعد.

تأكد من إغلاق محبس موقد الغاز، وعاد إلى مجلسه بكوب الشاي المُحلى بالعسل ليضعه على الطاولة أمام الأريكة؛ ليتساءل بينه وبين نفسه، عما إذا كانت أحداث الرِّواية هي ما دفعه لإعداد كوب من الشاي المُحلى بالعسل، عوضًا عن شذى فنجان قهوته المُعتاد، بينما كان يزيح علامة القصِّ التي -لحسن الحظ- لم تتزحزح من مكانها الذي تركها فيه، بعد أن أنيخَ البيانو النمساويُّ الثمين تحت السنديانة لتستكمل العاشقة عزف مقطوعتها في حديقة الفصل الأخاذ.

كانت علامةُ القصِّ الورقيَّة سَدَّهُ المنيعَ حقًّا، مثلما كان الشاي يجري في جوفه، جرعة جرعة، بسلاسة وبتناغم موسيقيٍّ مع جريان الأحداث التي استعادت مجراها أمام ناظريه وهو يتكئ على أريكته

في وضعية مناسبة لاستكمال قراءة الرِّواية التي بوَّأتْ كاتبها مكانة مرموقة بين كُتاب النصف الثاني من القرن العشرين، وحاز بفضلها أرفع الجوائز الأدبية.

* * *

لم تكن ليلته تلك لتختلف عن كثير من لياليه الأخيرة إثر تقاعده بعد اثنتين وعشرين سنة قضاها متدرجًا في أرفع المناصب، عدا انغماس ثوانيها ودقائقها وساعاتها الطوال أكثر فأكثر في أحداث الرِّواية التي ما كاد ينتهي -إثر جرعة أخيرة في قعر كوب الشاي- من قراءة آخر صفحاتها حتى وجد صعوبة بالغة في محاولة التزلف إلى سلطان النوم الذي خاتل تاجه وصولجانه قبل ساعة ونصف بفكرة إعداد الشاي المُحلّى بالعسل كي يتمكن من الوفاء بوعد قطعه تلك الليلة على نفسه:

قراءة الرِّواية كاملة حتى غلافها الأخير.

لكن تزلفه لسلطان النوم لم يُجْدِهِ، كما لم تُجْدِهِ حيلة التثاؤب الإرادي نفعًا. فقد ظل يقظًا ووحيدًا بين أكثر من مجرى لانهمار مياه الأحداث التي لم تكن السُّدود الورقية ولا حتى الإسمنتية المُسلحة بقادرة على إيقاف امتزاجها في بوتقة المَصبّ. ولا فرق في ليلة مؤرقة، لا فرق إن كانت مياهها انهمرت من ينبوع ذاكرته أم كان سيلها الهادر مستعادًا من عنفوان الأحداث التي خاضتها بطلة الرِّواية التي أتمَّها قبل قليل، وأضحت هي الأخرى رافدًا إضافيًّا يتعاظم في منحدر ليلته الليلاء، ليلته التي قدَّرَ له أن يقضيها ثانية إثر أخرى في محاولة يائسة لإعادة كلّ قطرة إلى ينبوعها دونما بارقة نجاح تُذكر.

ليلته تلك، لم تكن لتختلف عن كثير من ليالي أرقه الأخيرة، رغم أن حياته كانت طبيعية وعادية قبل تقاعده من منصبه الرفيع في شركة النفط التي لم تبخل عليه براتب سخيّ بعد أن ثمَّنت مهاراته التي امتاز بها على زملائه، وكافأته منذ أزمنة التحاقه المُبكر بدورات مكثفة للتعمق في دراسة الطبقات الرسوبية بعد إظهاره لفراسة ثاقبة في قراءة الخرائط الجيولوجية جعلته يُميِّز، بعين الخبير، طبقات المكامن النفطية ذات الجدوى الاقتصادية من تلك التي يصعب استخراج النفط منها، فضلاً عن تقديراته الصائبة لمراحل سنواتها الإنتاجية حين يكون مستوى الضغط الطبيعي في جوف المَكمن كافيًا لدفع النفط عبر ثقوب الآبار، أو بعد انخفاضه حين يزداد معدل استخراج النفط ويكون الاعتماد على مضخة الذراع المتأرجحة ضروريًا للمساعدة في ضخه إلى السطح، وصولاً إلى المراحل التي تستوجب ضخ المياه في البئر للمساعدة على دفع النفط، قبل اللجوء -في مراحل نضوبها الأخير- إلى حقنها بالغاز لاستخراج خثارة الخام العالقة في مسام الصخور.

كان بارعًا في استقرائه لخرائط الطبقات الجيولوجية. وشركة النفط التي عمل بها طوال حياته لم تتوان في استثمار تلك البراعة ليشغر واحدًا من أفضل المناصب فيها. ولأنه منصب حساس وذو أهمية خاصة لم يعد وقته كافيًا للاهتمام بشيء آخر في الحياة سوى إنجاز المهام التي أخلص لها أيما إخلاص طوال السنوات التي أفناها بين مكتبه في المدينة قريبًا من ميناء تصدير النفط ورحلاته التي لا تنتهي إلى حقول إنتاجه في الصحراء التي سحرته منذ طفولته، كما سحرته مهابة جبال بلاده. وهما ملمحان جماليان متناقضان، لكن تناقضهما البليغ هو، على الأرجح، ما دعاه لحسم

قرار تخصصه في دراسة علوم الأرض، عوضًا عن الآداب التي شغف بها منذ يفاعته.

تخصُّصٌ أثبت له، فيما بعد، أهمية بلاده الجيولوجية الاستثنائية، برمالها وجبالها التي تمنح صخورها الصلعاء فرصًا نادرة يتهافت علماء جيولوجية الأرض على زيارتها ودراستها عن قرب. فهي لوح مكشوف لا يشوبه -كما في البلدان الأخرى- غطاء نباتي أو طبقات رسوبية أو جليدية.

غصَّة واحدة فقط لم يستطع التخلص منها طوال الأعوام التي قضاها في شركة النفط؛ عدم حفاظه على شغف الدُّودة النهمة لقراءة القصص والرِّوايات بسبب انشغاله الدائم في مهنته وبحوثه ورحلاته التي لا تنتهي بين المدينة وحقول النفط.

لكنه معذور لعدم الحفاظ على شغف دودة قراءاته الأدبية، فلضيق وقته لم يعد ذلك المكترث حتى بتقليب الصحف اليومية التي كانت تصل مكتبه. وبشهادة زملائه الجيولوجيين؛ فقد كان بالكاد يقرأ عناوين الأخبار المحلية. أما الأخبار السياسية وتقلبات العالم فلم تكن لتشغله كثيرًا. كما أن الصفحات الرياضية ذات الشعبية الواسعة بين أقرانه من الجيولوجيين ومهندسي الميدان لم تكن، هي الأخرى، ضمن دائرة اهتمامه، لأنه كان يفضل تكريس الشحيح من وقته الفائض لمتابعة الاكتشافات الجيولوجية الجديدة في علم الحياة القديمة وتقصِّي الدراسات التي تنشرها المجلات العلمية المتخصصة عن الأحافير والمستحاثات التي تحدد فتراتُ ازدهارها في العصور السحيقة زمنَ الطبقات الرسوبية الحاملة للخزين النفطي. لكنه، مع ذلك، كان يستمتع -إن أكرمه الوقت- بقراءة الأخبار الخفيفة حول مفارقات الحياة اليومية ونوادرها

المنشورة في الصفحات الأخيرة لا ليتسلى، بل ليقارن تلك النوادر عن غرابة سلوك الحيوانات والبشر بسلوك كائنات العالم المندثر، تلك التي تزدهر في عصر جيولوجي لتنقرض في آخر، كي تتيح الفرصة لظهور أجيال وسلالات أخرى تمنح عينه -التي لا تكلّ ولا تملّ من تفحص دورات حياتها- فرصة اقتناص المعرفة والخبرة في مجال عمله السّاعي إلى الصعود به من نجاح إلى نجاح.

وكما هي حياته تلك، كان روتينها يمضي يوماً بعد يوم كما هو الرُّوتين دومًا: يصحو من النوم، يعملُ ويأكلُ ويشرب وينام ويقضي حاجته البيولوجية، كما يصحو ويعمل ويأكل ويشرب وينام ويقضي الآخرون حاجاتهم البيولوجية. يفتح باب بيته بالمفتاح المناسب في سلسلة مفاتيحه، كما يفتح الآخرون أبواب بيوتهم بمفاتيحها المناسبة. يعتذر لو أخطأ في حق أحدهم بكياسة، كما يعتذر الآخرون عن الزلات التي قد تحدث عَرضاً بسبب وتيرة العمل وضغطه. يُدمن تناول الفلفل والبصل النيئ مع وجبات الطعام. لا يمانع في احتساء كأسين من النبيذ الأبيض عندما يجد الوقت لتناول عشاء من فواكه البحر في مطعم النادي الترفيهي الخاص بموظفي شركة النفط. يدعو أصدقاءه تواضعًا، لمناداته باسمه الأول تحاشيًا للازمة: «الدكتور» التي ألصقوها باسمه، ضد رغبته، منذ عودته من جامعة پرينستون بشهادة دكتوراه مع مرتبة الشرف في علم الحياة القديمة. يُرفِّه عن نفسه بممارسة السباحة أحيانًا في بركة النادي الترفيهي وبمشاهدة الأفلام السينمائية التي تُعرض مرتين في الأسبوع. يقرفه طعم الطماطم الطازجة، لكنه يخضع للحلول الوسطية، تلك التي يقترحها عليه طبيب شركة النفط الهولندي، بتناولها مشوية أو مطبوخة في مرق قليل الدسم. يفرح ويحزن كما

يفرح الآخرون ويحزنون. ومثلهم يحلم كما يحلمون أحلامًا لذيذة، وتراوده الكوابيس المؤرقة كما تراودهم في بعض الليالي. يتريّض - إن أسعفه الوقت- مثلهم، ثلاث مرات في الأسبوع. يُهاتف أصدقاءه مرة في الشهر. يلوم نفسه -وقته، بالأحرى- على عدم مهاتفتهم مرتين أو ثلاث مرات في الشهر. مثلهم، مثلهم يفعل ما يفعلونه في هذه الحياة، بالتزام يحسده إله الرُّوتين نفسه على التزامه الصارم به قبل أن يتقاعد ويُهيئ نفسه لحياة جديدة طالما تمناها.

حياة مُتحرِّرة من قيود العمل وما تفرضه دورة حياة الجيولوجي الناجح بكفاءة ونزاهة لم يحسده إله الرُّوتين وحده على التزامه بهما، بل ربما حسدته عليهما مستحاثات عصوره السحيقة وأحافيره؛ بأجهزتها العصبية البسيطة التي يعرف أكثر من غيره أنها لم تطوِّر أدمغة قادرة على التعبير عن مشاعر معقدة كالحُب والكُره أو الغيرة والحسد.

* * *

كان هذا حاله طوال الاثنين وعشرين عامًا التي قضاها في شركة النفط، سعيدًا بأيام تلك الأعوام ولياليها التي تُوِّجت بإنجاب طفلين رائعين، سعيدًا بشريكة حياته التي قاسمته رؤية ثمرتيهما تنضجان وتلهوان وتتعلمان، سعيدًا حتى وهو يقضم بياس فاكهة الأعوام التي تلت أعوام التتويج حين كثرت مشاحناتهما الزوجية واضطر -بعد إلحاحها على الطلاق- أن يُذعن لرغبتها فيه، لأنها لم تعد تحتمل إدمانه المُبالغ فيه على العمل والعمل والمزيد من العمل والعمل في المكتب والبيت والصحراء وقاعات المؤتمرات العلمية التي لا ينتهي من أحدها في نيوزيلندا إلاّ ليبدأ آخر في الفلبِّين، يتلوه مؤتمر هام

في تشيلي حول النشاط البركاني في أميركا اللاتينية، ولن يتمكن، بعد المشاركة فيه، حتى من العودة إلى الوطن ليفي بوعده القديم لاصطحاب العائلة في رحلة سفاري إلى كينيا وتنزانيا، لأن عليه تقديم دراسته الهامة عن أحفورة لأقدم نباتات برِّية مُزهرة على وجه الأرض تعود لنحو 475 مليون عام، كان له الفضل في اكتشافها ضمن تكوين صخري من جبال بلاده بمعية فريق من شركة النفط وجامعة شيفيلد بالمملكة المتحدة.

وهو اكتشاف استثنائي أعاد تاريخ وجود النباتات المنتجة للبذور على سطح الأرض نحو 50 مليون سنة للوراء، أي إلى العصر الأوردوفيشي قبل نصف مليار عام، كما سيبرِّر لزوجته في لحظات غضبها وطلبها الطلاق. فقبل اكتشافه لها كان التاريخ المُسجل سابقًا لأقدم النباتات المزهرة يعود لنحو 425 مليون سنة، وكان عليه التوقف في بريطانيا لحضور المؤتمر العلمي الذي سيمنحه بمعية الدكتور تشارلز ويلمان من جامعة شيفيلد وسام الريادة الجيولوجية تقديراً لأهمية اكتشافهما الذي لا يقدر بثمن، لا سيما بعد نشر مجلة **الطبيعة** *Nature* لبحثهما الذي اعتبرت الصحافة نشره في هذه المجلة العلمية تشريفًا نادرًا لا يحظى به إلا قلة من العلماء. وهو وسام حدا بحكومة بلاده أن تحذو حذو جامعة شيفيلد، ليكون هو دون سواه أول مواطن يُمنح وسام العلوم من الدرجة الأولى، الوسام الذي دُعي لتسلمه خلال الاحتفالات الباذخة بآخر أعياد بلاده الوطنية آنذاك.

هكذا كان طوال الأعوام التي قضاها في الشركة، سعيدًا -لولا جرح الطلاق ذاك- لا يكدر صفاء ذهنه مُكدِّر، مبتهجًا في بحبوحة أرجوحة النجاح الذي ختمه بتقاعده الطوعي، رافضاً إغراء العمل

بدرجة مستشار وراتب مضاعف لسبب لم يفهم مغزاه أقرانه المستعدون للبقاء في وظائفهم حتى الرَّمق الأخير، والذهاب إليها حتى على كُرسيٍّ مُدولَب. ففي دخيلة نفسه التي لم يسمح لمخلوق باستشفاف مكنون حلزونتها، لم يكن سوى ذلك الحالم بحياة أخرى متحررة من قيود المناصب والتزاماتها لتحقيق حلم الشق الثاني من حياته، لولا أن رياح الأحلام، لا تجري دائمًا وفق أهواء حالميها، فبمجرد مرور ستة أشهر كرس أيامها ولياليها -بموازاة ضمان مستقبل ولديه- لدراسة مشاريعه المؤجلة، كما كان يطيب له أن يداعب فراديسها المُتخيلة؛ وجد نفسه فجأة، ومن حيث لم يحتسب، رهينة لمعضلة ماكرة لم يعتقد يومًا أنه سيواجه مثلها في اللحظات التي اعتقد أنه تخلص فيها من كل مُكدّر ومنغص. معضلة تبيَّن أنها لم تكن هيِّنة كما اعتقد خلال تقييمه إيَّاها في البداية، لأنها أكبر من استخفافه بها واستصغاره لضرباتها المُوجعة، لاسيما بعد اكتشافه المتأخر لتأثير تلك الضربات في مسار حياته بعد أن أرغمته على تأجيل كُلِّ ما خطط له في ما كان يدعوه: فراديسي المتخيلة، ليصير شغله الشاغل مهمة التكيُّف السريع مع إيقاع مُعضلته، عوضًا عن تكييف روحه وجسده للانسجام مع بطء الإيقاع الذي هيأ نفسه له وتمنى أن يهبه كاملًا لشمعة حياته القادمة - على قصرها وضآلتها إن قيست بوحدات الزمن الجيولوجي الذي أفنى زهرة زمنه البيولوجي القصير في محاولة فهمه ودراسته.

وتلك هي معضلة المعاضل التي قصمت ظهر مشاريعه المؤجَّلة بحضورها الطاغي، في الزمان الخطأ، وفي اللحظة غير المناسبة أبدًا، حين تشرنقت حياته بظهور معضلة المعاضل تلك حُلمًا غريبًا، حُلمًا يتكرر ولا يُفارقه ليلةً بعد أخرى، طوال الأشهر الستة

التي قضاها مُخطِّطا لما تبقى له من حياة حُرَّة من قيود العمل انطلاقًا إلى خلاص فردي اعتبره مكافأة تستحقها السنوات المتبقية له في هذه الحياة. السنوات التي تمنى أن يعيشها في حوض من السعادة الخالصة حتى ينقرض هو نفسه ليعثر على بقايا رُفاته بحّاثة من كوكب آخر، ربما استفاد من عظامه النَّخرة لاستخدامها عيِّنة عشوائية لدراسة الحقبة الجيولوجية التي عاش فيها النوع البشري على الأرض، قبل انقراضه، بسبب ارتفاع حرارة المناخ أو التحول الوراثي أو حرب نووية مُحتملة الوقوع. فذاك مصير نوعه المحتوم، كما تؤكد الشواهد التي يُدركها، هُو كعالِم، أكثر من سواه.

لكن حلمه الغريب هذا، حلمه المُتكِّرر، هذا الذي لم يستطع التكيف مع اشتراطاته التي فرضها قسرًا، قضى على ما مضى من حياته وما كان يحلم به لما تبقى منها قبل انطفاء جذوتها في رفاته، مذ أضحى وأمسى يراوده في لياليه الأخيرة بصيغ شتى لم يعهدها فيما خبرَهُ وعهدَهُ من الأحلام المألوفة.

حلمه المخاتل هذا. حلمه المُتخفي في نقيضه من أحلام لم تلبث أن أضحت -على اختلاف مشاربها الحُلمية- تصبُّ في ذات المجرى الذي يقودها إلى بؤرة واحدة لا غير: شرنقة حلمه الغريب نفسه. حلمه المؤرق ذاته، حلمه الذي بعثر أحلامه المتوهمة عن حياة فردوسية بعد تقاعده لم تلبث أن تحولت إلى جحيم لا يطاق. حلمه الأغرب من الغرابة ذاتها. حلمه الذي لا يوصف بالكلمات. حلمه الذي ليس كسواه من الأحلام. حلمه الذي لم يبعثر أحلامه الأخرى فحسب، بل أقصاها من مناماته بخطط مبتكرة، لم يعهد لها مثيلاً في فراديس الأحلام ولا في كوابيسها التي جعلت لياليه متاهة تتفرع في نهاراته بخططه التي لا نهاية لبداياتها ولا بداية لنهايتها، كان

آخرها توليفة حلمه الغريب لتقنية القصِّ واللصق للمَشاهد والنصوص والصُّور الحلمية كما في برامج الحاسوب، كما في أفلام الرُّعب بلقطاتها المقربة التي لم يستسغها يومًا، رغم إعجاب غالبية زملائه بها وتأثيرها فيهم حين يشاهدونها في سينما نادي شركة النفط، لأنها في خلاصتها الزئبقية توليفة مرعبة وناعمة، لذيذة ومؤلمة، قادرة أن تحييه وتميته في المرة الواحدة آلاف المرات. تعبث به ليتماهى معها، بحيث لا يعرف أنه كان يتقمص، لاواعيًا، أدوار شخصيات تلك الأفلام المرعبة التي لم ترُقْ له يومًا؛ مما جعله، يومًا بعد آخر، يدخل في دوامة مُفزعة لا قرار لها.

لذلك لم يعد غريبًا تشكيكه الصارخ، بعد فترة، فيما هو راسخ ويقيني من مفاهيم لا جدال فيها حول الثنائية الواضحة بين الواقعيِّ والحُلمي. تشكيك سبَّبه، بلا شك، اعتماد حلمه الغريب على تقنية القصّ واللصق تلاعبًا بتفاصيل الأحلام الأخرى وينابيعها الغائرة في ذاكرة الليل والنهار، ذاكرة الحلم وذاكرة الواقع، ذاكرة الشمس وذاكرة القمر. فما حسبه حلمًا أو قمرًا خُيِّل إليه أنه الواقع اليومي الصرف، وما كان يحسبه واقعًا مشمسًا حد اللمس يخاله غير ملموس أو محسوس طوال لياليه التي لا نجمة تهديه في سمائها إلى التمييز بين تلك الثنائيات الواضحة في حديقة الحقيقة، حديقة العقل غير المضطرب.

لذلك كان استنتاج ما حدث بعد رحلته الطويلة مع حُلمه الغريب ليس من الصعوبة بمكان. فبعد فترة طويلة من التأمُّل فيما آلت إليه أحواله بلغ ذُرا الشك الحتمي ليس فيما حوله فقط، بل في نفسه. في سلامة كل من قواه العقلية والنفسية. وهو شك هداه في لحظات اليأس لمحاولة استقراء وتحليل الفرق بين الثنائيات

المتقاطعة في منامات لياليه، بتأثير حلمه الغريب، دونما بلوغ يقين سوى بئر حيرة لا قعر له. بئر ساقته هاوياتها، بعد أن استنفد كافة أسلحته، للاستنجاد بآخر شخص ظنَّ أن جيولوجيًا حاملاً لشهادة دكتوراه في علم الحياة القديمة سيستنجد بمثله: معالج نفسي بحث عنه سِرًّا واختاره بعناية فائقة تفاديًا للقاء عَرَضًا، في عيادته الخاصة، بواحد من معارفه، لا سمح الله. فاستشارة معالج نفسي -حتى لمن حاز قبيل تقاعده وسامَ الدولة للعلوم- مُعادلٌ لحكم المرء على نفسه بالجنون في بلاد لا يُفرق مجتمعها بين المُعالج النفسي والمصحة العقلية. وهي خطوة جسورة بالطبع، خطوة تحسب له بالتأكيد، لا يُقدم عليها إلاّ من اضطر للقيام بها.

لكنها خطوة -على جسارتها- كانت فاشلة في آخر المطاف. فخضوعه للعلاج النفسي لم يقلل، إثر عدة جلسات، من فداحة الالتباس الذي بدا ألاّ لبس فيه. لأن المعالج الذي وقع اختياره عليه -ضمانًا للسِّرية، وحدها-، أكَّدهُ بصيغ ضمنية مواربة لم يحتج إلى وقت طويل لفك مغازي تلميحاتها السلبية، صحيحة ودقيقة كانت تلك التلميحات أم لم تكن إثر تيقنه من غش المعالج، استقراءً وتحليلاً لأساليبه العجيبة والغريبة، في تأجيل البوح بالحقيقة التي لا مراء فيها: استقرار وضعه النفسي وسلامته من هواجسه التي لم تكن تستدعي إطالة عدد جلسات الأريكة التي طالما شكَّك في استلهام سيغموند فرويد لتصميمها، مُستراحًا لمرضاه، من أرائك القياصرة، قبل أن يصحو من أوهامه بعد فوات الأوان، مهمومًا مغمومًا ومتأخرًا أكثر مما ينبغي لجيولوجي حذق بعدما استفرغ المعالج الشاطر قسمًا وافرًا من نقود محفظته إثر قضائه عامًا كاملاً في استكناه وَهمٍ قيصريٍّ باهظ الثمن.

تجربة أرهقته ماديًا ولم تكن نتائجها المرجوة سوى مضاعفة إحباطه النفسي. لكنها على علاتها كانت تجربة طريفة أفادته، بطريقة غير مباشرة، في تجاوز عتبات لم تكن مرئيّة في دهليز حياته الذي أعتم في اللحظة التي كاد أن يشعل فيها شمعة حياة جديدة بالكامل. ولم يجد، بعد تحرره من تلك التجربة، مخرجًا آمنًا سوى التعايش مع الواقع الذي فرضه حلمه الغريب ليبارزه ندًّا لندّ كفارس حقيقي، بعد أن استرخى طويلاً على أريكة المعالج الغشاش، محاولاً فهم حلمه الغريب، ودراسته بطرائق علماء النفوس للتغلب، ما أمكنته الوسائل، على مكامن سطوته وسيطرته عليه.

* * *

صحيح أنه لم يعد ذلك القارئ النهم للأدب بسبب انشغاله وتكريس وقته لقراءاته البحثية، إلاّ أنه بعد تقاعده تفرغ من جديد لقراءة الرّوايات والقصص التي أهملها ليشبع شغفه الذي لم يتمكن من إشباعه بذات الوتيرة التي كان عليها قبل أن يحسم أمر تخصصه بين الجيولوجيا والآداب. لكنه ألزم نفسه، بعد التقاعد، ببرنامج قرائي صارم (كان في جوهره جزءًا من فراديس مشاريعه المؤجلة) مكّنهُ من استرجاع ما فاته من تطور في الفن الروائي وكُتابه الذين اكتفى بمتابعة أخبارهم في الصحف، دون أن تتاح له الفرصة لقراءة أعمالهم التي طالما تمنى قراءتها. ورغم محنته ومعضلة حلمه الغريب، إلا أنه استطاع الالتزام بذلك البرنامج الذي مكنه، تدريجًا، من استعادة ولع قديم كاد أن يضمحل وينقرض كما تضمحل المُستحاثات التي أفنى حياته في دراسة دورات حياتها.

فإلى جانب تحقيقه لمتعة قراءة الرِّوايات، وجد فائدة أخرى للغرق في أحداثها، إثر اكتشافه أن تلك القراءات كانت ضربًا من ضروب العلاج المؤقت يصرف به ذهنه عن متلازمة التفكير الهوسي في حلمه الغريب، لا سيما أنه كثف -إلى جانب الرِّوايات- قراءاته في علم النفس لدراسة حلمه وتحليله بأسلوب علمي، علّه يصل إلى بارقة أمل تخرجه من دورة الغثيان.

لكن ما لم يتوقعه، وما لم يضعه في حسبانه، طوال انكبابه على برنامجه القرائي المُكثف، هو أن بارقة الأمل التي تشبث بها، تشبث الغريق بلوح خشبي، لم تكن كامنة في فروع شجرة التحليل النفسي التي أهدر وقته الثمين باحثًا عن حُلول في نفائسها، بل كانت خبيئة في دودة شغفه الأول: الرِّوايات والقصص التي عاد لقراءتها من جديد.

وما الرِّواية التي أتمَّها أمس، مُستعينًا بعلامة قصّ لإيقاف جريان أحداثها، خلال إعداده للشاي، إلاّ محطة هامة من محطات برنامجه القرائي. فهي التي ألهمته مَخرَجًا مُوفقًا للتخلص من حُلمه الغريب، حلمه الذي لم يتوقف عن إزعاجه بشتى المنغصات التي ما فتئ يطور أساليبها ليلة إثر ليلة لسلبه إرادة البحث عن وسيلة ناجعة للتخلص منه. قد يبدو ذلك غريبًا لأول وهلة، قد يبدو غريبًا لمن لم يتعود الشغف بالرِّوايات منذ مراهقته. لكن ما بدا غريبًا، في حقيقته، بسيط بساطة سقوط التفاحة التي ألهمت إسحاق نيوتن قانون الجاذبية عام 1665. فكم من تفاحة سقطت قبل ذلك على رأس أحدهم ولم تلهمه التفكُّر في أسباب سقوطها للأسفل عوضًا عن طيرانها نحو السماء. لذلك فإن ما بدا غريبًا، بسيطٌ بساطة سقوط تفاحة نيوتن تلك. بسيط بساطة الفكرة الملهمة

والبسيطة كحبكة الرِّواية التي جعلت العاشقين ينتصران، في النهاية ضد طغيان الأب وقسوته، بقوة الموسيقا وحدها، قوتها التي لم تُوحِّد روحيهما في بوتقة واحدة فحسب، بل خلَّصت العاشقة الحسناء من كوابيسها المؤرقة التي لم يشفها منها أبرع الأطباء الذين جلبهم الأب من أصقاع الأرض، دون أن يدرك -إلاّ في تخوم الصفحات الأخيرة- أن تحييد ابنته العاشقة لثقل حضوره الطاغي بقوة الموسيقا، لم يكن انتصارًا ساحقًا على محاولاته لحرمانها قوة الحب فقط، بل علاجًا ناجعًا لكوابيسها المؤرقة، كوابيسها التي تلاشت بمجرد تنفيذها لخطة الفرار من قصره الباذخ، إثر النجاح الباهر لحركتها التمردية على حرمانها اللقاء بمحبوبها الموسيقيِّ الجوَّال، حين قررت (في صفحة فردية الترقيم) إخراج البيانو الثمين إلى هواء الحديقة الطلق، قبل شروعها في تنفيذ الشق الثاني من خطتها -بالتواطؤ، مرة أخرى، مع الخدم- لزحزحته، هذه المرة، من حديقة القصر إلى شاحنة استأجرتها لتهريب البيانو ليلاً كي يباع لتاجر آلات موسيقية حتى تتمكن من الفرار مع محبوبها بكرامة، ودون قرش من جيب أبيها سوى ما كسبته من صفقة بيعها لأعز ما تملك: البيانو النمساويّ الثمين.

كانت شُجاعة بما يكفي لعاشقة تشرئب سنواتها لبلوغ التسعة عشر ربيعًا، رغم أنها لم تنشأ التفريط بتحفتها النمساوية، شُجاعة كانت بما يكفي كي لا تندم على فعلها الشجاع. فما كسبته من بيع تحفتها الأثمن، في نظرها، من نظيرها النقدي، كان على ضآلته مالاً موسيقيًّا خالصًا. وما حدا بها للتصرُّف به كما تشاء هو موهبتها. ولن تستطيع حتى مضغة ضميرها اليقظ أن تلومها على ما

بدا ظاهريًا خيانة، لأنها تحفة لم تكن في يوم من الأيام مُلكًا لأبيها، بل كانت في الأصل ملكًا لوالدتها المتوفاة، والدتها التي -كما ورَّثتها البيانو النمساويّ والكلارينيت والناي العاجي- أرضعتها، قطرةً قطرةً، موهبة العزف على تلك الآلات الموسيقية.

لذلك لم تجد، وهي ابنة من هيَ ابنته، في فصول الرّواية، عائقًا يمنعها بعد إتمام الصفقة، من الانضمام إلى فرقة محبوبها الجوالة لتعزف حليب أمها الشاخب، لا كما عزفته مقطرًا من أناملها الرقيقة على البيانو النمساوي تحت السنديانة العجوز، بل منفوخًا بزفيرها الشادي مرّةً على الكلارينيت، وأخرى على الناي اللذين احتفظت بهما وصارا، مع موهبتها الموسيقية، جزءًا لا يتجزأ من حقيبة الترحال وعنصرًا حيويًا ساهم في نجاح الفرقة التي ذاع صيتها ونشرت أخبارها صحف البلاد التي كانت تدور فيها أحداث الرِّواية. الصحف التي تنافست، فيما بعد، في إجراء مقابلات لم تتردد في إحداها أن تكشف عن شفائها التام من كوابيسها المؤرقة بقوة عُنصرين اثنين: الحب والموسيقا.

ففي واحد من حواراتها الصحفية، كان بيتهوفن مثالاً لم تمنع نفسها من الإشارة إلى عبقريته ومأساته، تأكيدًا لما يُمكن لقوة الموسيقا أن تفعله حين اضطر، بسبب إعاقة السمع، لقطع أقدام البيانو كي يستمع لمقطوعاته التي يؤلفها عبر الذبذبات الأرضية التي كانت تصل أذنه خلال عزفه منبطحًا على بطنه، فيما يراقصُ، ذلك المؤلف الموسيقي الأصمّ، مفاتيح البيانو بسحر أصابعه.

وكما حدث في الرّواية التي أتمَّها الدكتور الجيولوجي بشغف المحروم أعظمَ مُتعِه، كما حدث طوال تبادل صفحاتها الفردية وصفحاتها الزوجية لسرد الأحداث؛ فإن الفكرة التي برقت في ذهنه

كانت هي الأخرى بسيطة، وتعتمد على شقين: أولهما، تحييد تأثير حلمه في حياته الخاصة (كما حيَّدت الفتاة العاشقة تأثير أبيها المُتسلط في الرِّواية). وشقها الثاني؛ كان محاولة تفهم حلمه الغريب عبر حوار إيجابي ربما أدى لنشوء علاقة أقرب إلى المودة المستعادة عوضًا عن تبادل كراهية مُضمرة، لتكون المحصلة شبيهة بما حدث في الصفحات الأخيرة من الرِّواية، عندما اضطر والدها، بعد أن تناهت إليه أخبار مقابلاتها الصحفية التي قدَّرها نقاد موسيقيون مرموقون، لمراجعة مواقفه المتعنتة، طالبًا من وحيدته الغفران، مناشدًا إياها -في إعلان، لم يتردد في نشره - العودة هي وحبيبها المُغني الجوال للعيش معه في قصره الباذخ، ليسهر الأحد عشر خادمًا أنفسهم على راحتهما طوال الأيام والشهور والسنوات التي استمرت بعد انتهاء الصفحة الأخيرة.

كانت آلية حسناء الرِّواية هي الهرب، وكان عليه البحث عن معادل موضوعي لتلك الآلية:

تهريب حلمه من كثافة وعيه إلى مُتكأ شفاف في لاوعيه، ليتمكن -بعد تحييده- من المحافظة عليه في حالة كُمون ربما أسهمت في التقارب المنشود بينهما، عوضًا عن تكرار محاولاته العقيمة للتخلص منه (كما فشلت محاولات الأب لمنع المحبوب من زيارة ابنته في قصره المنيع). وهي آلية مكّنت الدكتور من تنفيذ الشق الثاني والأصعب لخطته المستوحاة من أحداث تلك الرِّواية.

بيد أن المدهش والمثير وغير المتوقع -كما هي بارقة الأمل-؛ هو أن حلمه المنغص، حلمه الغريب، حلمه الذي أفسد عليه

مشاريعه المؤجلة، حلمه الذي جعله يشكك في قواه العقلية والنفسية، حلمه الذي جعله يستلقي على أريكة مُعالج نفسي، هو ذاته الحُلم الذي بادر -في واحدة من نزواته الأقل توقعًا- إلى إعفائه من مشقة الشق الثاني للخطة، حين رضخ واستسلم لشروط هُدنة لم يُجبر على توقيعها (تمامًا كما حدث في الرِّواية التي حدث بالأب المتغطرس إلى التراجع عن مواقفه المتعنتة حين ناشد ابنته وحبيبها، في الصفحات الأخيرة، أن يعودا معًا إلى قصره بعد إيمانه بآصرة الحب، وبصنوها الذي لم يشأ، من قبل، الاعتراف به: قوة الموسيقا). فعلى ذات المنوال، انقاد حلمه -الذي لم يعد لفرط تكراره غريبًا- طواعية لفكرة العيش كامناً في المُتكأ الذي هيأه له الدكتور في متاهة لاوعيه المكتنز بمئات، بل بآلاف الأسماء العلمية الطويلة لمستحاثاته المرصَّعة بتعقيد لغويٍّ لاتينيّ؛ حيث سيتسنى لحلمه العيش في تلك المتاهة اللامرئية، كما عاشت أسماء تلك المستحاثات في مجد عصورها السحيقة، لتنقرض كما انقرضت ماهيّات حيواتها القديمة، ماهيّاتها التي كان وجودها، هي دون سواها، برهان تلك الماهيّة الساطع - كما هي اليوم برهان الطاقة وخزَّانه النفيس لاستمرار رفاهية الجنس البشري منذ اللحظة التي تدفق فيها شلاّلُ حيواتها الغابرة ذهبًا أسود لا غنى عنه في أيامنا هذه.

* * *

بطبيعة الحال، كانت فرحته غامرة وتستحق احتفالاً استثنائيًا بانتهائه من قراءة الرِّواية التي أوحت له أحداثها المُتخيلة بحلول واقعية جعلته يقترب من مخرج مُشرِّف لمأزقه مع حلمه. لكن عليه

عدم الوقوع في فخ التلذذ بإنجازه؛ بل الإسراع قدر المستطاع لتنفيذ الشق الثاني من الخطة، للعبور السلس بحُلمه إلى بوابة لاوعيه، تحسُّبا لحدوث تراجع مفاجئ عن شروط الهدنة التي لم يُجبَر حلمه على توقيعها، ليمطره بسيل جارف من خططه وألاعيبه الماكرة. وهي بوابة، لحسن الحظ، لم تكن مفاتيحها بعيدة كما ظن الدكتور في البداية. فهي قريبة منه، ولا يتطلب الأمر سوى اعتياد تمرينٍ نفسيٍّ للعبور من وعيه إلى متاهة لاوعيه، مُصطحبًا حلمه في رحلة علمية ممتعة، بلوغًا به مُتَّكأهُ الموعود بين مستحاثاته المصنفة في **المقياس الزمني الجيولوجي**، وفقًا للحقبة والعصر اللذين عاشت فيهما تلك المستحاثات، ابتداء من **حقبة ما قبل الحياة** التي اختزلها العلماء تحت تسمية جامعة هي: **حقبة ما قبل الكمبري** [الممتدة ما بين 3800-540 مليون سنة]، وهي حقبة على بعدها السحيق عن أقدم مخلوقات الأرض إلاّ أنها بالنسبة لنا نحن الجيولوجيين كما ستكتشف، يا حُلمي، خلال هذه الرحلة ذات أهمية خاصة لأنها الوسادة الزمنية الوثيرة التي هيَّأت لنشوء الحقبة المؤسِّسة لتجليات الحياة الأولى؛ **حقبة الحياة القديمة**: الپاليوزي [542-260 مليون سنة]. وهي حقبة طويلة جدًّا وتنقسم إلى خمسة عصور هي من الأقدم إلى الأحدث، على التوالي: الكمبري، الأوردوفيشي، السّيلوري، الديڤوني، الكربوني والپيرمي؛ تلتها **حقبة الحياة الوسطى**: المِيزوسي [248-66 مليون سنة] المنقسمة، بدورها، إلى ثلاثة عصور: التِّرياسي، الجُوراسي والطباشيري.

ولأنها متوسِّطة كرونولوجيًّا -كما يدلُّ على ذلك اسمها- فقد أعقبتها آخر حقبة في المقياس الزمني الجيولوجي؛ **حقبة الحياة**

الحديثة: السِّينوزُوِّي التي استمرت منذ 66 مليون سنة حتى هذه اللحظة وما سيليها من لحظات، دقائق، ساعات، أيام، سنوات وقرون ستراكم ألفية إثر أخرى. وهي فترة -كما ستلحظ أيها الحُلم الأثير- أقصر بكثير من الحقبتين السابقتين. ولأننا في هذه اللحظة المُنتمية لآخر عصور حقبة الحياة الحديثة، فإن وعينا بما سبقها من لحظات هام وأساسي للإلمام بمتاهة رحلتنا العلمية الممتعة، رحلتنا التي ستمتد -رجوعًا إلى الماضي السحيق- في قلب الحقب الثلاث الرئيسة للسّجل المُستحاثي (في حال استثنينا حقبة ما قبل الكمبري؛ تلك الوسادة الزمنية الوثيرة التي يؤرخها بعض العلماء بـ4500 مليون سنة، آخذين في حسبانهم، بطبيعة الحال، بدايات تكوين النظام الشمسي، ونشوء الأرض حتى البدايات الأولى لنبض الحياة في وحيدات الخلية التي أعقبها ظهور الأشكال الأولى للبكتيريا المنتجة للأوكسيجين). لكنها حقبة غموض واختلاف بين العلماء أنفسهم، ولا أظنك ستكترث لأهميتها -على أهميتها- في رحلتنا التي سأحرص على جعلها مفيدة لك وممتعة لكلينا. الرحلة التي سيسعدني أن أقوم فيها بدور مرشدك السياحي في متحف لاوعيي الخاص، إرضاءً لمتطلبات سائح لم يعد غريبًا كما كان، بل أثيرًا منذ لحظة انطلاقنا!

ولتكن البداية، بداية رحلتنا الشائقة، يا حُلمي الأثير، من حيث يجب أن تكون بداية البدايات:

حقبة الحياة القديمة، ابتداء بعصرها الأقدم: **الكَمْبري** [540-505 ملايين سنة]، عصر التّرايلوبيتات ذوات الظهور المصفحة والبطون الرَّخوة. وهي كائنات لا تشبه البشر، كما لا تشبه أحلامهم المنغصة -إن كان لا بُد من دُعابة نفتتحُ، يا حُلمي، بها الصُّحبة-،

بل تشبه سوسة الخشب، وتتكوّر تلك الكائنات البدائية لحظة الخطر كما تتكور القنافذ. ولها أهمية كبرى لأنها سادت 100 مليون سنة، فضلًا عن أنها أهم أحافير مميزة لطبقات العصر الكمبري، الذي يعتبره العلماء عصر التنوع الرئيس في الأنواع الحية. فنصف أسلاف الحيوانات المعروفة ظهرت وتنوعت في هذا العصر الهام: اللافقاريات البحرية، المفصليات البدائية، الرخويات المبكرة، ديدان البحر والإسفنج. لكن المؤسف، يا حلمي الأثير، أن العصر الجليدي الذي تميزت به المراحل الأخيرة من هذا العصر أدَّى لانقراض 50% من مجموع الكائنات التي عاشت خلاله في بحبوحة رخاء وعيش رغيد.

كان الكمبري عصرًا عظيمًا بلا شك، وتلاه مباشرةً ظهور العصر الثاني من عصور حقبة الحياة القديمة؛ **الأوردوفيشي** [505-438 مليون سنة] الذي ظهرت فيه النباتات الأولية والشعاب المرجانية ونجوم البحر والأسماك البدائية والحشائش المائية والفطريات الأولية. (لاحظ أن السنوات تأتي معكوسة، مثلما نفعل حين نؤرخ للسنوات السابقة لظهور السيد المسيح، مع فرقٍ فارِق: الأرقام بملايين السنين!). والعصر الأوردوفيشي الفاتن هذا، ظهرت به كائنات بحرية ذات أصداف وأذناب تحمي بها نفسها. ولا تعتقد أنني مبالغ إن قلت لك إنَّ الدراسات أثبتت أن بعضها كان يطلق تيارًا كهربيًّا صاعقًا للدفاع عن النفس، فضلًا عن اكتشافي الهام (بمعية الدكتور تشارلز ويلمان)؛ أن النباتات المزهرة ظهرت في هذا العصر (أي قبل 475 مليون سنة مما اعتقده أسلافنا الجيولوجيون). وهو اكتشاف سيؤدي لتعديل هام على المقياس الزمني الجيولوجي المعهود، بيد أننا لن نمكث طويلًا في هذا

العصر، فطريقنا طويل، وما زال أمامنا الكثير لاكتشافه معًا، لا سيما في العصر الثالث من عصور حقبة الحياة القديمة؛ **السَّيلوري** [438-408 مليون سنة] الذي ظهرت فيه، لأول مرة، النباتات الوعائية على اليابسة. أما في بحار ومحيطات هذا العصر فقد ظهرت، لأول مرة، الأسماك ذوات الفكوك. وكما كانت التّرايلوبيتات أحافير الكمبري المميزة؛ فإن العقارب المائية أهم أحافير هذا العصر الذي انتهى بظهور العصر الذي تلاه مباشرة، **الديڤوني** [408-360 مليون سنة]، وهو عصر ميَّزتهُ البرمائيات ذوات الرئات والخياشيم، إلى جانب شقيقاتها الرأسقدميّات. وهو عصر اعتقد العلماء -قبل اكتشافي الهام- أن النباتات المزهرة حاملة البذور قد ظهرت فيه لأول مرة. فالديڤوني، إلى جانب ما سبق ذكره، عصر هام لظهور الحشرات عديمة الأجنحة، فضلاً عن كونه العصر الذي بدأت فيه الأسماك ذوات الفكوك والزعانف -بما فيها القروش- تحكُّمها وسيطرتها على بحاره ومحيطاته. أي أنه عصر معرفة الكائنات بالسُّلطة والهيمنة لممارستها على الأنواع الأضعف. وكي تطمئن، كي تطمئن حلمي الأثير، حلمي الذي لم يعد غريباً؛ فإنني أعدك بأننا لن نطيل المكوث فيه، فالمتعة والاكتشاف هما غاية رحلتنا هذه، لا تَسلُّط أحدنا على الآخر.

أليس كذلك؟...

ولتتأكد من حُسن طويَّتي لن تمر ثانية، إلاّ وتجد نفسك في قلب واحد من أهم عصور حقبة الحياة القديمة؛ **العصر الكربوني** [360-286 مليون سنة]، لا لكونه العصر الذي ازدادت فيه الأسماك بوفرة لم تعهد من قبل، ولا لكونه العصر الذي ظهر فيه ما لا يقل عن 200 نوع من أسماك القرش وحدها (تخيَّل!)، ولا لكونه العصر

الذي تميز بأعلى معدل للأوكسيجين، ولا لأنه عصر أشجار السَّرخس الهائلة، ولا لأن ضفادعه كانت عملاقة وبحجم العجول، وكانت مزودة بعين ثالثة فوق قمة الرأس مفتوحة على الدوام للحراسة، بل لسبب آخر يدل عليه اسمه: ففي العصر الكربوني هذا تكمن طبقات الفحم الحجري المحتوية على بقايا النباتات المزهرة. النباتات الغارقة في غابات المستنقعات الفحميَّة التي أدت، بعوامل الضغط، إلى تكوُّن أهم مصادر الطاقة: الكربون، ولاحقًا النفط والغاز، إلى جانب الماس السَّاحر بتلألئه الوضَّاء، لأنه لا أكثر من كربون أسود تكوَّن تحت ظروف عالية من الضغط والحرارة، بمعنى أنَّ الفحم الأسود عُنصره، وليس التلألؤ والبريق واللمعان.

وحتى لا تفاجئنا ظروف قاسية (لن يحتملها حلم أثير وجيولوجي متقاعد)، سنودع هذا العصر الهام للعبور بآخر عصور الحياة القديمة؛ البيرمي [286–245 مليون سنة]، ذاك الذي ارتفعت فيه الحرارة وترسبت فيه الأملاح وازدادت فيه أعداد الفقاريات والزواحف. لكنه عصر الانقراض الأكبر، فقد اختفى من الوجود 95% من أشكال الحياة التي ميزت العصور السابقة له، لتبدأ بعده مباشرة حقبة **الحياة الوسطى** بعصورها الثلاثة المميزة، آنفة الذكر. وهي الحقبة المعروفة، بالنسبة لنا نحن علماء الحياة القديمة، بحقبة الزواحف الكبرى التي نمت وترعرعت إبان العصر الترياسي، لتسود الأرض وتحكمها حُكمًا ديكتاتوريًا مطلقًا في العصر الجوراسي، عصر الديناصورات العملاقة، التي أنهت حقبة الحياة الوسطى، بانقراضها نهائيًا وإلى الأبد في العصر الأخير من هذه الحقبة: الكريتاسي (أو الطباشيري، كما يحلو لنا أن نمازحه على سبُّورات الدرس).

ولتكن البداية، مرة أخرى، من البداية.

أي من أول عصور حقبة الحياة الوسطى؛ **الترِّياسي** [245-208 ملايين سنة]، ذاك الذي شاعت فيه الأركوصورات والديناصورات على اليابسة، فضلاً عن الثدييات والقواقع والسلاحف والذباب، إلى جانب انتشار النباتات البرية المزهرة على نطاق واسع. لكن ظهور تلك الكائنات أدى إلى حدوث انقراض نسبي قضى على ما لا يقل عن 35% من كائنات العصور السابقة له؛ كالزواحف البحرية وبعض البرمائيات، مما جعل الفرصة مناسبة وملائمة لتسود فصائل الديناصورات الزاحفة على اليابسة، والطائرة في السماوات، والسَّابحة في لُجج البحار؛ وهذا بدوره أدى إلى ظهور العصر الوحيد الذي يلهج بذكره الناس دون سواه من العصور الجيولوجية: العصر **الجوراسي** [208-144 مليون سنة]، نظرًا للشهرة التي حظي بها، على نطاق واسع، بسبب سلسلة أفلام الحديقة الجوراسية التي انجذب الصغار والكبار إلى مشاهدها الخرافية عن عصر الديناصورات العملاقة. لكنه عصر هام، في حقيقته، لأسباب أخرى غير تسيُّد الأنواع المختلفة من الديناصورات له، منها على سبيل المثال، ظهور حيوانات الدم الحار، وظهور أقدم طائر على وجه البسيطة هو طائر الأركيوبتركس وظهور الدبلودوكس، أكبر زواحف المستنقعات، ليتلو هذا العصر العظيم ظهور آخر عصور حقبة الحياة المتوسطة؛ **الطباشيري** [144-66 مليون سنة]، العصر الذي انقرضت في نهايته الديناصورات التي حكمت الأرض فترة 100 مليون سنة. وهي فترة طويلة جدًا، وتستحق الاحترام والتقدير لو قيست بالعمر الميكروسكوبي القصير للجنس البشري وأحلامه. لكنه كان عصرًا مميزًا حقًّا (برغم كارثة انقراض الديناصورات)،

ولذلك عدة أسباب: منها ازدياد أعداد الثدييات الصغيرة وأنواعها، وانتشار النباتات المزهرة على رقعة أوسع (بسبب نقل الحشرات لحُبوبها!)، فضلاً عن ظهور الأشنات وأشجار البلوط والدَّردار، كما حلقت في سماواته النوارس ذوات الأسنان المتميزة بأزيزها وفحيحها الغريب، ناهيك عن ظهور الحيوانات الصغيرة ذات الأنوف الطويلة التي يعتبرها العلماءُ السَّلفَ المنسيَّ للخراتيت وأفراس البحر والفيلة. وهو عصر مفصليّ بالفعل، لأنه أنهى حقبة الحياة الوسطى بحدوث انقراض أودى بحياة الديناصورات نهائيًا، كما قضى على 50% من أنواع اللافقاريات البحرية. ووفقًا لأكثر النظريات قبولاً وجدلاً لدى بعض العلماء، فإنَّ نيزكًا سبَّب سحابة تُرابية منعت ظهور الشمس لمدة ستة أشهر أدى إلى توقف عمليات التمثيل الضوئي التي حرضت على التنافس والانقراض الذي لم تسلم منه أضخم كائنات الحقبة الوسيطة:

الديناصورات.

ورُبَّ ضارة، حلمي الأثير، رُبَّ ضارة نافعة! فلو لم يحدث ما حدث في العصر الطباشيري لكانت الديناصورات هي الكائن الدكتاتوري المُسيطر على الأرض قاطبة. فلو لم يحدث ما حدث، لما كانت الأجواء مهيأة وملائمة لانحسار حقبة الحياة الوسيطة، تلك التي تلتها مباشرة **حقبة الحياة الحديثة** [66 مليون سنة حتى الآن]. وهي الحقبة التي أقترح أن تكون مُتَّكأك الوارف، رأفة بك من بشاعة ترايلوبيتات العصر الكمبري أو مرارة الانسحاق في فيافي العصر الجوراسي تحت أقدام ديناصور عملاق، فذلك ما لن أرتضيه لك بالتأكيد.

ولتكن البداية، مرة أخرى كما في المرَّتين السَّابقتين، من

البداية - تسلسلاً في عصور حقبة الحياة الحديثة؛ الحقبة الأقصر قياسًا إلى سابقتيها لأنها استمرت 66 مليون سنة فقط، وذاك رقم مُتواضع جدًّا لو انتبهت لأرقام السنوات المليونية السابقة. لكنها حقبة، مع ذلك، لا تقل أهمية عنهما لكونها (وهذا سر أطلعك عليه لأول مرة) حقبة كالشوكة في حلوق المبتدئين في دراسة علم الحياة القديمة؛ بسبب تعقيدها التصنيفي وانقسامها إلى فترتين: **الزمن الثلاثي** (الضامّ لخمسة عصور)، **والزمن الرباعي** (الضامّ لعصرين). وعليه، وتراتبًا -في عبورنا السياحيِّ المتسلسل للحقب والعصور-، فإن عصور **الزمن الثلاثي** الخمسة هي على التوالي:

العصر الپاليُوسيني [66-58 مليون سنة] الذي ظهرت فيه الثدييات الكبيرة كيسيّة المشيمة كحيوان البرنتوثيريا ذي الشعر الغزير والصوت المرعب واللهب الناري الذي يُطلقه من فمه لإخافة أعدائه، لكنه -وهذه مفارقة مضحكة- كان عصر ظهور الفئران والقنافذ عديمة الأشواك والخيول صغيرة الحجم، كالثعالب، بحوافرها الثلاثية التي لم يظهر لها مثيل حتى في أفلام مُقلدي سبيلبرغ اللاحقين. وهو عصر هام لتنوع الثدييات فيه لسببين: انقراض الزواحف الكبرى، واعتدال مناخه الاستوائي، لكننا لن نمكث فيه طويلاً، رغم طقسه المعتدل كالجُزر الاستوائية، لأن علينا الإسراع لبلوغ العصر الذي تلاه مباشرة، **العصر الإيوسيني** [58-37 مليون سنة]، وهو عصر ازدهرت فيه أسلاف الحيوانات التي نعرفها اليوم. وهو، إلى جانب ذلك، عصر ظهور الحيتان البدائية وتكوُّن أول قبة ثلجية في القارة القطبية، تلاه بسرعة زمن جيولوجي خاطف، **العصر الأوليغوسيني** [37-24 مليون سنة] المؤسِّس للصُّخور القارية، عصر أسلاف الأفيال المصرية

المنقرضة، والثدييات التي لم توجد من قبل كالخنازير البرّية ذوات القوائم الطويلة (لمساعدتها على الغوص نهارًا في المياه والتسكع ليلاً في الأحراش البرية)، فضلاً عن ظهور القطط (عدو الفئران الأول)، مما يفسر القاعدة الشائعة بظهور الأعداء لاحقًا! ففي هذا العصر، أيضًا، ظهرت الأفيال المائية بنابيها المفلطحين، إلى جانب انتشار الطيور بأنواعها. لكنه عصر لم ينتهِ بدجاجات المزرعة، ولا بدجاج الكولونيل ساندرس المقليَّة في سلسلة مطاعم كنتاكي التي تسيَّدت الأرض بسبب نَهَمِنا، بل انتهى بخروجنا منه سالمين، بعد هربنا منه بشجاعة مماثلة لشجاعة دجاجات العالم الفارِّ من قبضة كولونيل «الفرايد تشيكن»، لنقطع ما تبقى من طريقنا سيرًا على الجوانح -وهذه مزحة في صيغة مَجاز مَقليّ-، كي نبلغ، في الوقت المُناسب، طلائع **العصر الميوسيني** [24-5 ملايين سنة] المعروف لدينا باسمه المُتخفف من صرامة اللغة اللاتينية: **عصر الفيلة المصرية**. وهو عصر أكثر جديَّة من مزحتي السَّابقة؛ لأنه العصر الذي ظهرت فيه ثدييات مُحترمة ذات حسب ونسب، شاعت وازدهرت واستمرت -لحسن حظها- حتى يومنا هذا؛ كالأحصنة والكلاب والدببة والقردة. لكنه عصر امتاز -وهنا تكمن أهميته- بطبقاته الرسوبية المشبعة بالبترول والغاز الهاربين من دياجير طبقات العصر الكربوني الموغل في تقادمه، لينتهي الزمن الثلاثي إلى غير رجعة بظهور آخر عصوره، **العصر البْليوسيني** [5-1,8 مليون سنة]، فهو عصر تكمن أهميته في ظهور نوعين كانا وما زالا مُسيطرين على البحر واليابسة: الحيتان المُعاصرة، والإنسان البدائي الأول. كما أنه -وفقًا للمُتفقهين من علماء الأرض- مؤشر على انتهاء أشكال وأنماط الحيوات القديمة قاطبة، وذلك عائد

لظهور آخر الأزمان؛ **الزمن الرباعي** المنقسم -نعم، المُنقسم هو الآخر- إلى عصرين: **العصر البليستوسيني** [1,8 مليون-11000 سنة] الذي طالما ارتعدت فرائصنا حين نستعيد تسميته الشائعة في الكتب المرجعية، كما في الأفلام: **العصر الجليدي**. ولمزيد من الدقة، لمزيد من الدقة، حلمي الأثير أتحدث عن آخر العصور الجليدية. فالجليد الذي ساد في هذا العصر (ليغطي معظم ما عرفناه من صحارى وغابات وجبال وبحار ومحيطات) أدى إلى انقراض الثدييات الفقارية، ولذلك الانقراض أهميته الحاسمة في التنوع الكمِّي والكيفي، بيد أنه كان عصر ظهور **الإنسان العاقل**، والقادر على صنع أدوات بسيطة لتسهيل سبل عيشه. وكي لا تعتقد أنني متعصب لأسلاف النوع الذي أنتمي إليه؛ ستؤكد لك الشواهد أنه، أيضًا، كان عصر الماموث والخرتيت والدينوثيرم والنمور ذات الأسنان الشبيهة بالسيوف التي تغمدها في أجربة خاصة حفاظًا على حدَّتها. كما ستؤكد لك الشواهد أنه عصر الأمطار الهائلة، بعد ذوبان كُتل ذلك الجليد الهائل، إذ لم يبق منه سوى آثاره في الصُّخور المنتمية إلى العصر الجليدي، لينتهي -ولك أن تتنفس، الآن، برميلين من أكسيجين الصُّعداء- **الزمنُ الرباعي** من حقبة **الحياة الحديثة** بعصره الثاني والأخير: **العصر الهولوسيني** [11000 سنة حتى الآن]. وهو العصر الذي بلغ فيه الإنسان أعلى مراحل تطوره التي عهدناها في أنفسنا وفيما حولنا من كائنات. فالهولوسيني عصر حافظ، منذ بزوغه قبل 11000 سنة، على كافة الكائنات التي ظلت تعيش فيه حتى اليوم بانسجام قل نظيره، عدا الأنواع التي تسبب اختراع البندقية، للأسف، في انقراضها برغم ندم الإنسان المتأخر منتصف القرن العشرين للتكفير عن ذنوبه

بإقامة المحميات الطبيعية في أفريقيا وأستراليا وبعض نواحي آسيا والأمريكتين.

* * *

نجحت خطة تهريب حُلمه الذي لم يعد غريبًا، كما كان من كثافة وعيه إلى مُتّكأ لاوعيه الشفاف، ليطمئن في نهاية الرحلة إلى آخر ضيوف لاوعيه اللامنتمين واللامُصنفين في سجله المستحاثي، مودِّعًا إياه بقبلة وداع كانت بمثابة الخاتمة الرمزية اللائقة بانسحابه السَّلس من دور المرشد السياحي، بعد رحلتهما في فيافي العصور وقفارها.

رحلتهما التي امتدت كثافة وقائعها بلمح البصر، حالمًا وحُلمًا، من غياهب العصور القديمة بلوغًا بعصا التسيار حتى أحدثها، ليتسنى للدكتور الارتياح أخيرًا من منغصات حُلمه الذي استرخى في لاوعيه بحالة كُمون بين سُلالات مستحاثاته الأثيرة، وفقًا لتقسيماتها وتفرعاتها وتصنيفاتها المُدرجة في **المقياس الزمني الجيولوجي**. المقياس الذي يجد كثير من علماء الأرض صعوبة بالغة في حفظه وتلاوته غيباً ككتاب علميٍّ مقدَّس. لأنه، هو نفسه، لم ولن يكون استثناء لقافلة أولئك الجيولوجيين، لولا أنه الوحيد الذي تمكن من تطوير تقنية إزاحة حُلم منغص من وعيه إلى لاوعيه، أرشفةً لمكنون كينونته بعيداً عن النسيان، عدوّ الجيولوجيين الألدّ.

حين صحا من النوم، كان نهار اليوم التالي قد انتصف.

لم يُصدق نجاح الشق الثاني من الخطة، إلاّ حين نظر في ميناء الساعة التي أكد له عقربا ظهيرتها المتلاصقان، بحميمية العشاق، أنه

بالفعل نام عشر ساعات متصلة، عشر ساعات كانت مكافأة سخيَّة لذهنه وجسده المنهكين بعد ليالي أرقه الطوال.

أطفأ مكيف الهواء واستحم في المغطس بمتعة من أزاح عن كاهله صخرة أثقل من تلك الأطنان المضغوطة في صخرة سيزيف. استرخى نحو عشرين دقيقة في رغوة المغطس، ثم نشف جسده بانتعاش. نظر في المرآة فاكتشف أن لحيته قد طالت بالفعل، وبدت له شبيهة بلحية سيزيف. شذبها بآلة الحلاقة وسكب على وجهه ورقبته مُعطرًا زكيَّ الرائحة أنساه حُلمه المُنغص، كما أنساه سيزيف وصخرته الكؤود.

في المجلس، أزاح ستارة النافذة وألقى نظرة على لَقطتِهِ المألوفة في الشارع الصغير بخطوط أسفلته البيضاء، أشجاره الواقفة بانضباط طابور من الكشافة، خربشات الأولاد المثبطة لهمم فريق كرة القدم المنافس، شجرة المانغو المثقلة بثمارها التي عضُّوا حموضتها في طريق عودتهم من المدرسة، سيارة جاره الرياضية بشاحنها التوربيني المزدوج ولونها البرتقالي المميز، دون أن يبخل على سيارته بنظرة أشعرته فورًا بضرورة اقتطاف كوب صباحي من شجرة الشاي. فرشفة منه ربما ألهمته حلولاً منطقية لفهم نزهاتها التي لم يجد لها تفسيرًا منطقيًا في أكثر أحلامه تعقيدًا وأقلِّها قابلية للتأويل.

في المطبخ، تأمل الدكتور خطوط الشجرة المرسومة بدقة رسام من القرن التاسع عشر، دون أن يتوقف -طوال فترة انتظاره لغليان إبريق الشاي- عن التفكير بالرِّواية وبطلتها التي ألهمته فكرة الرحلة والمُتكأ الذي تخلص فيه من مُنغصات حلمه الذي أضحى -إثر تلك الرحلة الحُلمية- أثيرًا بعد كُمونه في لاوعيه. تنفس الصُّعداء، وأعد

لنفسه إفطارًا مُتأخرًا من جبنة الماعز وبيضة مقلية بقطرات قليلة من زيت الزيتون. رش قليلاً من الملح والفلفل الأسود فوق البيضة ثم حمَّصَ شريحتين من الخبز الأسمر، ليعود إلى أريكته بصينية الإفطار المتأخر وكوب الشاي المُحلى بالعسل، مفكرًا بالاسترخاء طوال ما تبقى من نهاره الذي قرر ألا يفعل شيئاً فيما تبقى منه سوى الإنصات لمقطوعات كلاسيكية لبرامز، موزار، مندلسن أو بيتهوفن الأصم. لكنه، وحتى قبل اختياره لقرص موسيقي يُناسب مزاجه المُنشرح، وجد نفسه يتابع أخبار قناة البي. بي. سي.

كانت نشرة الأخبار في نهايتها، فشدت انتباهه ابتسامة لم يألفها في وجه المذيع وهو يقرأ خبر اكتشاف علمي جديد عن نشاط الدماغ خلال النوم، وتوصُّل العلماء لتخمين طبيعة الأحلام التي تراود النائم المُوصَّل دماغه بحاسوب قَرَّاء للأحلام.

قفز به خبر الكشف العلمي (المبثوث في نشرة الأخبار) للتفكير في مسألة لم يفكر بها قبل قيامه برحلة الخلاص: إمكانية حلمه اللامتناهية للعبث بخزين لاوعيه، لا سيما أنه اقترح عليه الكُمون ضمن أحد عصور حقبة الحياة الحديثة، دون تقييد لحركته بين الحُقب الثلاث وعصورها. وهي فكرة وتّرت أعصابه فورًا، وأقلقت استرخاء جسده بعد عشر ساعات من النوم الهنيِّ المُريح، لذلك انتقل من البي. بي. سي إلى قناة أخرى لم يلبث مراسلها أن استرسل في تغطية مطولة لقِمَّة الثمانية الكبار. خلال تجواله العشوائي (الذي أنساه برامز، موزار، مندلسن وبيتهوفن) بين قناة وأخرى، صادف إحدى قنوات الرسوم المتحركة. توقف لمتابعة واحدة من معارك توم وجيري التي سبق له متابعتها مع طفليه، متخيلاً حدوث معركة مماثلة على مسرح لاوعيه بين حلمه الأثير

(متقنعاً بوجه قط مُتنمِّر من العصر الأوليغوسيني) وفأر بدائي من العصر الپاليوسيني، لكن المعركة الأزلية -لحسن حظه- بين القط والفأر انتهت بنهاياتها المعهودة على الشاشة.

ابتسم كطفل رائق المزاج، وقد كانت الفرصة ملائمة لإدارة قرص موسيقي يُخفف من وطأة تلك الفكرة المرعبة، لكنه لم يغتنمها. وترك نفسه فريسة سهلة لإغواء الصُّورة المتلفزة. في إحدى القنوات التي اعتادت بث الأفلام، تابع فيلمًا خمَّن أنه مقتبس عن واحدة من روايات القرن التاسع عشر. فاتته لقطات المقدمة والعناوين، لكنه استمر في المتابعة محاولاً نسيان الفكرة التي أرعبته حول ما يمكن لحلمه أن يفعله بالتراتب والتصنيف الذي خلّد مستحاثاته وفقًا لسيرورة الزمن التي اقترحت ذلك التراتب التصنيفي؛ بين نشوء وارتقاء وانقراض جعلتها قوة غامضة، كسِرِّها الوجودي، الذي كان على الإنسان اكتشافه ومحاولة فهمه.

في إحدى لقطات الفيلم التي انتهت بمعركة حاسمة، راقب البطلَ المتعبَ، وهو ينسلّ من غبارها إلى لقطة أخرى، تُظهره وهو يشرب الشاي تحت شجرة قرب موقد مُرتجل في انتظار محبوبته التي واعدها في لقطة سابقة للقطة المعركة، بعد أن طبطب على عنق حصانه، ليطلقه حُرًّا كي يرعى حشائشه المُفضلة في حقل اللقطة المضفور بظل الشجرة المزنر بموسيقا صافية أنسته -بين جرعة وأخرى من الشاي- غبار المعركة الذي ضبَّب اللقطة السابقة.

خلال فاصل إعلاني عن أحدث شامبو ضد القشرة، انبثق فجأة صوت رسام شجرة الشاي مُناديًا بصوت يشبه صوت الموسيقا التي حركت أغصان الشجرة التي ارتاح تحت ظلها بطل الفيلم انتظارًا لمحبوبته.

قال له الصَّوت:

«تخمينك صائب وفي محله، رغم أنك لم تر مقدمة الفيلم المقتبس بالفعل عن رواية لكاتب من القرن التاسع عشر. أعرف أنك تحب شجرة الشاي التي رسمتها قبل قرن أكثر من الشاي نفسه، لكنني لا أعرف لم تصر على قراءة رواية للكاتب نفسه، ولا يخطر في بالك قراءة روايات لكُتاب من القرن التاسع عشر. لن أقترح عليك أسماءهم، عليك أن تبحث عنهم في مكتبتك التي طالما أهملتها».

أدهشه نداء رسام علبة الشاي الذي تقمص هيئة بطل الفيلم المستريح بعد المعركة تحت شجرة. أدهشه ذلك النداء الغامض، ولم يُخضعه، كعادته، لمعاييره العلميَّة الصارمة، بل استسلم لتأثيره المُخدِّر، واعتبره إشارة خفية ربما توجَّب عليه اتباعها، برغم أنه كان يخطط للإستمرار في قراءة رواية أخرى للكاتب نفسه الذي أمتعته روايته وأوحت له بفكرة المُتكأ الذي اعتقد أنه تخلص فيه تماماً من مُنغصات حلمه.

* * *

انتهى الفاصل الإعلاني، وتابع أحداث الفيلم الذي لم يرد اسم كاتب الرِّواية في نهايته. تذكر أنهم يضعون أسماء الكُتاب في البداية التي فاتته، كما فاته اسم المخرج واسم الممثل الذي أخرج الشاي من خرج حصانه وأعده على موقد ارتجله تحت شجرة الموعد الغرامي، قبل إطلاق حصانه في براري اللقطة التي استثمرها المخرج لإظهار نبله الأصيل متجسدًا في انحناء رقبته وهو يتناول العشب، تمامًا كما أظهر قوته وصموده في لقطة المعركة.

عاد إلى المطبخ ليتأمل من جديد شجرة العلبة التي حضَّر منها كوبًا آخر حمله معه هذه المرة إلى المكتبة. مكتبته التي خجل من نفسه وهو يعيد اكتشاف قسمها الأدبي المهمل، مُثمِّنا استبطان رسام شجرة الشاي لتلك الحقيقة التي جعلته يستسلم أكثر فأكثر لتأثير ندائه السِّحري الغامض. تشارلز ديكنز، ليو تولستوي، مارك توين، إميل زولا، تيودور دوستويفسكي، جين أوستن، والتر سكوت وآخرون كانوا جميعًا هناك في مكتبته المنسية. هناك كانوا جميعًا في انتظاره، بقبعاتهم وملابسهم التي ميزت ذلك القرن في صورهم المؤنبة له، ولكثرة نسياناته الدهرية، على أغلفة كتبهم التي علاها الغبار.

كان عليه اختيار أقربهم ليس إلى نفسه، بل إلى مقاصد النداء الخفيّ لمن أضحى صديقه الخفيّ ومُرشِده:

فنان علبة شايه السِّيلاني المُفضل.

على أحد الرفوف، كانت «**آنا كارنينا**» تولستوي متكئة على الجزء الأول من «**الجريمة والعقاب**» لدوستويفسكي. لم يجد الجزء الثاني ولا باقي رواياته التي احتلت مكانها «**كبرياء وهوى**» جين أوستن المتكئة، هي الأخرى، على كل من «**حدائق كيو**» و«**السيدة دالاواي**» لفرجينيا وولف (المولودة في ثمانينيات القرن التاسع عشر، لكنها لم تصنف من كتاب ذلك القرن). وإمعانًا في المفارقة التصنيفية التي بعثرتها يد الزمن؛ إمعاناً في المفارقة التي أكدت ما استبطنه قبل قرن بحذافيره رسام شجرة الشاي كانت «**قلب الظلام**» لجوزيف كونراد مندسّة بين روايتي مارك توَين: «**مغامرات توم سوير**» و«**مغامرات هكلبيرّي فينّ**»، تليهما في نفس الرَّف رواية «**في البحث عن الزمن الضائع**» لمارسيل پروست و«**مدام بوڤاري**»

غوستاف فلوبير. لكن أكثر ما أثار حنقه على نفسه هو وجود **«الحياة على المسيسبّي»** في رفٍّ روايات القرن التاسع عشر، رغم أنه كتاب مذكرات كتبه مارك توَيْن عن رحلاته حين كان قبطانًا في إحدى سفن المسيسبّي البُخارية بدولابيها الكبيرين اللذين ذكّراه (وهو يتأمل لوحة الغلاف) بدولاب الناعورة، ودلائها التي كانت وما زالت تنزحُ مياه الذكرى من نهر الماضي إلى بستان مستقبل غامض.

أزاح الغبار المتراكم على سفينة الغلاف، ليكتشف بعد فتح صفحات الكتاب أنه وضع بين الصفحتين 135/ 136 علامة قصّ تشير بوضوح، لا غبار عليه، لأيام دراسته في الولايات المتحدة. ضحك من ألعوبة الزمن ودورانها البطيء كالناعورة. ضحك من نفسه في الحقيقة. فعلامة القصّ كانت دليلاً قاطعًا على أنه لم يُكمل قراءة كتاب مارك توين. وكما أدخله نداء صديقه الرسام إلى المكتبة كي يبحث في رفوفها عن رواية من روايات القرن التاسع عشر، أبحرت به سفينة غلاف مارك توين من مكتبته، من بيته، من شارعه، من مدينته، من بلده، من قارته إلى نيوجيرسي، إلى جامعة برينستون حيث التقى أيام الدراسة الڤنزويليةَ خوانيتا سانشيز، طالبة الجيولوجيا التي تخصصت في دراسة علم البراكين، برغم ظن طلبة الجامعة بأنها ستسعى للتخصص في دراسة علم الحياة القديمة أو الصخور الرسوبية، لأن بلادها أكبر منتج للنفط في أميركا اللاتينية.

تأمل كتاب توَين وسفينة الغلاف التي رست به في نيوجيرسي أمام مقهى **«عالم صغير»** القريب من الجامعة. مقهاهما الذي اعتادا اللقاء فيه بعد أن توطدت علاقتهما وظلا يشربان فيه القهوة البرازيلية ويتبادلان الأحاديث حول تخصُّصيهما، بلديهما، قارتيهما

واهتماماتهما الأدبية المشتركة، دون أن ينسى هديته الأولى بمناسبة سفرها في عطلة أعياد الميلاد إلى كاراكاس: علبة التمر التي وصلته من بلاده. هدية بسيطة أفرحت عائلتها، كما أخبرته بعد عودتها. وكان رد خوانيتا على هديته ثلاثيًا: لوحة بحجم راحة الكف لسيمون بوليڤار وكتابين: «يوميات دراجة نارية» لإرنستو تشي غيفارا والحياة على المسيسبّي؛ عربون صداقة وثقها ولعهما المشترك بالأدب ومفارقة اختيارهما -قبل تعارفهما- دراسة الجيولوجيا.

في عامهما الدراسي الثالث كانت علاقتهما العاطفية في أوجها. وكانا على وشك الزواج بعد عودتها من رحلة لدراسة بركان «إلميستي» القريب من أريكيبيا، ثاني أكبر مدن الپيرو، لولا أن تلك الزيجة لم يكن مقدرًا لها أن تتم كما خطَّطا لها معًا. فقد زلَّت قدم خطيبته خوانيتا سانشيز خلال تلك الرحلة، لتهوي جثة هامدة في أحد الوديان. لم يتمكن الفريق الجيولوجي ولا القوات الپيروڤية الخاصة من إنقاذ حياتها فأعيد جثمانها المحطم من الپيرو إلى ڤنزويلا. لم يعرف بما حدث إلا بعد يومين حين التقى في مقهى «عالم صغير» صديقةَ خوانيتا التي أتت باحثة عنه لتخبره بالحادث المؤسف. استقل أول طائرة للمشاركة في مراسم الدفن التي حضرها مع عائلتها في كاراكاس التي اضطر لدخولها بتأشيرة سياحية، وليس بالصفة التي كان عليه أن يفصح عنها لرجال الأمن: المشاركة في جنازة خطيبته خوانيتا سانشيز، لأنه لو أفصح -كما قيل له- عن سبب زيارته الحقيقي سيجد نفسه متورطًا في إجراءات بيروقراطية لها أول ولا آخر لها، كانت حتمًا ستحول دون مشاركته في مراسم الجنازة، لا سيما أنه آسيويٌّ قادم في رحلة من مطار لاغوارديا في نيويورك إلى كاراكاس.

اعتبر النصيحة خلاصة مقتبسة عن فيلم هوليوودي اعتاد تقديم دول أميركا اللاتينية بتلك الصورة المنمَّطة، لكن استعادته لبعض الكلمات التي قالتها خوانيتا عن الوضع الحقيقي في بعض بلدان أميركا اللاتينية جعلته يغض الطرف عن الشق الهوليوودي من الحكاية، ويدخل البلاد بأكثر من دمعة ودمعة للمشاركة في جنازة بتأشيرة سياحية أعطيت له مع ابتسامة ترحيب فور وصوله مطار سيمون بوليڤار الدولي.

كانت تلك ذكريات أبحرت به إليها سفينة غلاف الحياة على المسيسبّي، بعد أن محاها الزمن بطبقات جديدة من الذكريات، إثر عودته للوطن واستقراره في وظيفته اللامعة وزواجه وإنجابه وطلاقه، لينسى زهرة ڤنزويلية تفتحت في بستان الماضي، وذبلت قبل أوانها على حافة بركانه.

لكنها عادت كشريط سينمائي لم تُحذف منه لقطة أو دمعة، بمجرد تأمله غلافَ الكتابِ ذا السفينة-الناعورة التي أبحرت به إلى تلك الذكريات الغائرة، بمجرد تقليبه للكتاب الهدية في مكتبته، مستعيدًا حواراتهما الشائقة حول مؤلفه مارك توَين الذي أحبته خوانيتا سانشيز، كما سحرها أسلوبه السَّاخر.

استعاد الاسم الحقيقي للكاتب: *صموئيل لانغهورن كليمونص*، حين قرأه ضمن النبذة التي وضعتها دار النشر على ثنية الغلاف؛ تلك التي جعلته يستعيد مفارقة اختيار الكاتب لاسم Mark Twain المستعار من تعبير شائع بين بحارة المسيسبّي، ويعني حرفيًا: العلامة الثانية؛ مجازًا عن عُمق قامتين بلهجتهم الجنوبية. وهو المقياس المستخدم لتقدير عمق النهر الآمن لعبور السفن البخارية.

بعد ذلك تأمل علامة القصّ المزيّنة برسمة ديك منفوش الذيل (شعار السِّلسلة الكلاسيكية لمنشورات بانتام)، فوجد أن خوانيتا كتبت على ظهرها -وبخط يدها- جُملة خالدة لإرنست هيمنغواي:

All modern American literature comes from one book by Mark Twain called Huckleberry Finn.(*)

جُملة، رغم خلودها، استطاعت مكنسة الزمن أن تنسيه أسباب خلودها، كما أنسته حبيبته خوانيتا سانشيز، التي خلدت ذكراها - دون أن تدري، دون أن يدري هو- لحظة كتابتها لتلك الجُملة بخط يدها، إلى جانب خط إهدائها الكتاب له.

ولأنها جملة خالدة بالفعل، كانت حاسمة في تحريضها له على مواصلة البحث في مكتبته المُتربة عمَّن نسيهم من كُتاب القرن التاسع عشر، كما طالبه نداء رسام شجرة الشاي الغامض. لكنه لم يحتمل ترك الذكرى تمر دون طقس وداعي أخير لخوانيتا بعد أكثر من ربع قرن على علاقتهما التي لم يُنهها حادث عرضي في بئر نفط، بل زلة قدم على حافة بركان.

بعد قراءته صفحات من الكتاب وضع علامة القصّ (بذيل ديكِها المنفوش) في مكانها الجديد بين الصفحتين 210/ 211 قبل أن يعيده إلى الرفِّ المجاور حيث تقبع كتب المذكرات والسِّير والرحلات، ليكون عربون صداقة لكتابين حدثها عنهما ذات يوم في مقهى «عالم صغير»: **«الرّمال العربية»** للكاتب والرحالة الإنكليزي ويلفرد ثسيجر و**«مذكرات أميرة عربية»** لإميلي رُويْته (أو السيدة

(*) كلّ الأدب الأميركي الحديث مُغترَف من كتاب واحد لمارك توَين يُدعى هكلبيرّي فين.

سالمة بنت سعيد، كما كانت تُدعى قبل زواجها). بيد أن رحلة الإبحار لم تنته بإعادته لكتاب توَين إلى رف السِّير والمُذكرات بين كتابين أثيرين لديه، لأن من حاصرته، هذه المرَّة، بذكرياتها عن أحوال الجزيرة-الفردوس قبل ثورة 1964 كانت عمّته التي عاشت في زنجبار والتي أرضعته حكايات جدات أفريقية لا تُنسى بحيواناتها وغرائبيتها وسحرها، إلى جانب ما رَوتهُ إميلي رويْته عن الحياة في زنجبار -بعد أن اصطفاها حُب متوهج لترحل إلى هامبورغ، وتغيّر اسمها ودينها وجنسيتها- في كتابها المزيّن غلافه بصورة لتلك الأميرة التي كانتها. فكتابُها كان ينبوع معرفته المُوثق إلى جانب روايات عمَّته وحكاياتها عن أحوال الجزيرة التي طالما تمنى زيارتها برفقة خطيبته الراحلة خوانيتا لقضاء شهر العسل في ربوعها، ضاحكين في عالمهما الصغير؛ مقهاهما المفضل، من مفارقة لم تعد مضحكة بالتأكيد. ليس اليوم، بل آنذاك، في الحدود القصوى للموت والحياة:

خوانيتا من أميركا اللاتينية، وهو من أقصى بلد يقع شرق الجزيرة العربيَّة، وكلاهما يدرس الجيولوجيا في الولايات المتحدة، برغم ولعهما معًا بالأدب الذي كانت دودتهُ الذهبيَّة ستذهب بهما لقضاء شهر عسل لا يُنسى في إفريقيا، في جزيرة زنجبار، تحديدًا، لالتقاط صُورة مشتركة أمام بيت العجائب الذي ربما كانت آخر عجائبه التاريخية المُفارقة؛ أنه لم يُحقق لهما تلك الأمنية. ليكتفي الدكتور المُتقاعد من خميرة الذكرى بمرارة النسيان التي احتساها مُخمَّرة في كوب شاي اقتطفه من شجرة رسمها فنان مجهول من القرن التاسع عشر، اعتاد تحليته -تحايُلا على المرارة- بملعقة صغيرة من العسل.

لم يجد على رفوف ذلك القسم «يوميات دراجة نارية» كتاب تشي غيفارا على متن «الجبارة»، دراجته النارية العتيقة حول رحلته عام 1952 بمعية صديقه ألبرتو غرانادو؛ تلك التي قطعا على متنها المُتواضع 4500 كلم، قاطعين مُعظم طرقات دول أميركا اللاتينية. بحث عنه ليضعه قرب كتاب مارك توَين، وفاءً مُتأخرًا لذكرى خوانيتا سانشيز، لكنه لم يجد الكتاب، فاستسلم لفكرة إعارته لصديق لم يُعده في الغالب.

تناول كتاب «الرمال العربية» من الرَّف، لا ليقرأه من جديد، بل ليُمعِن نظره في مجموعة الصُّور الفريدة التي التقطتها عدسة ويلفرد ثسيجر وضمّنها كتابه المُحتوي مغامرة عبوره منتصف أربعينيات القرن العشرين للربع الخالي على ظهر جَمل بمعيةِ رفاقه البُداة. فتح الكتاب على مجموعة الصور المبعثرة بين صفحاته، ليجد نفسه محاصرًا -هذه المرة- بذكريات لا علاقة لها بخوانيتا، ولا بعمَّته العجوز في زنجبار، ولا بسالمة؛ تلك الأميرة التي لم يُسلِّمها حتى اسمُها السابق من مصيرها المأساوي، وإنما بزيارته الميدانية الأولى للرُّبع الخالي، ضمن فريق استكشاف أتاحت له شركة النفط أن يشارك فيه كمتدرب، إثر عودته في إحدى عطل أعياد الميلاد، قبل إنهاء رسالة الدكتوراه التي تطرَّق، في أحد فصولها، إلى خصائص علامات النِّيم؛ تلك التموُّجات -التي لم يُبدع رسمها فنان من القرن التاسع عشر-؛ لأن الله سبقه إلى تنفيذ تلك المهمة الجمالية، قبل اكتشاف الجيولوجيين لأهمية تلك التموّجات الرملية الصغيرة التي تنشأ على سطوح الكثبان بفعل الرياح، أو بفعل التيارات الشاطئية، ليستدلوا من اتجاه مَيلها، إلى تحديد اتجاه الرياح والتيارات البحرية التي شكلتها، استقراءً

للمناخات السَّائدة في حُقب العصور الجيولوجية الموغلة في القِدم.

كانت زيارة هامة في مسيرته العلمية والعملية جعلته يحدس ما تخفيه تلك الرمال من كنوز بعد تخرجه من جامعة پرينستون، لا سيما أن التَّكوين الجيولوجي الممتد حول «عروق الشيبه» جعله يتخلى عن التَّقية الأبديَّة للموظف المُستجد؛ ليتحلى بشجاعة طلب مقابلة وزير النفط السابق لتنبيهه مبكرًا (وقبل ترسيم الحدود مع الجارة الكُبرى) إلى أهميتها الاقتصادية الهامة، لاحتواء ذلك التكوين على مكامن نفطية نفيسة لا تقدر بثمن. لكن وزير النفط الذي لم يكن يعرف كُوعَ خرائطه الجيولوجية من بُوعِها لم يستمع لنصيحته الذهبية كعلامات النِّيم وظلال تموجاتها على الكثبان الذهب، مُؤثرًا تصديق خبراء شركات النفط الذين تبين لاحقًا أنهم ضللوا حكومة بلده، رغم أن التاريخ والاقتصاد أثبتا، فيما بعد، أن رأيه هو -رغم تجربته الغضة، آنذاك- كان حصيفًا لدرجة أنه لم يعد بحاجة (فيما كان يتصفح كتاب ويلفرد ثسيجر) للعودة بذاكرته إلى تلك الأيام التي منحته خلالها جامعة شيفيلد وسامَ الريادة الجيولوجية استحقاقًا لاكتشافه الهام للحفرية التي أكدت ظهور النباتات المزهرة على وجه البسيطة في العصر الأوردوڤيشي قبل خمسين مليون سنة مما هو محفور في السِّجل المُستحاثي.

كان عالِمًا جيولوجيًا، ولم يكن أكثر من ذلك؛ عالِمًا أثقل كاهله تغييب اسمه في مكاتب شركة النفط، ليُستعاض عنه بلقب «الدكتور»، الذي لم يرتح إليه يومًا. عالِمًا شغله التبحُّر في ميدان عمله عن استنتاج وضاح، كشمس الله الهائلة في الرُّبع الخالي، لم يهتد إليه إلاّ مُتأخرًا: فالهدف من تكريمه الرَّسمي في بلده بوسام

العلوم، لم يكن -كما وصفته الصُّحف المحلية، آنذاك- الاعتراف بمكانته العلمية، بل مكافأة على غبائه، وتكتمه الوطني، فضلاً عن شراء صمته لما كان يدور وراء الكواليس.

لكنه عرف مكيدة تلك «اللعبة الوطنية» متأخرًا أكثر مما ينبغي، بعد أن تأكد له أن الوزير السابق، ومن كانوا حوله، قد باعوا بثمن بخس مقدرات شعبه، حين لم يستمعوا لنصيحته الصادقة، نصيحته الذهبية كعلامات النِّيم، بعد إيثارهم الإصغاء لنصيحة ذوي العيون الزرق، خبراء الشركات الأجنبية، أولئك الدَّهاقنة الذين قبضوا ثمن تضليلهم، ليس مرَّة واحدةً فحسب، بل مُزدوجًا من الضَّفتين.

الفصل الثّاني

لم تكن تلك الليلة لتختلف عن كثير من لياليَّ المؤرقة، عدا انغماس ثوانيها ودقائقها وساعاتها الطوال في أحداث الرِّواية الغرامية التي ما كدت -إثر جرعة أخيرة في قعر كوب الشاي- أنتهي من قراءة رُبعها الأخير حتى وجدت صعوبة بالغة في التزلف، من جديد، إلى سلطان النوم الذي خاتلتُ تاجَهُ وصولجانه بفكرة إعداد الشاي لأتمكن من الوفاء بوعد قطعته على نفسي تلك الليلة:

قراءة روايتي الغرامية كاملة حتى غلافها الأخير.

كانت واحدة من رواياتي الغرامية المفضلة، حاولت إكمالها حتى النهاية بذات الشغف الذي أكملت به سابقاتها من خزين رواياتي الغرامية. لكنني لم أفلح، للأسف، هذه المرة في إكمالها، رغم محاولاتي اليائسة، وتزلفي لسلطان النوم، بحيلة التثاؤب الإرادي، بسبب تفكيري المتواصل في حلم غريب ظل يقض مضجعي طوال الفترة الأخيرة. وهو حلم اعتدت عليه وتمكنت بمرور الوقت من تطوير حيل بسيطة ساعدتني على تلافي تنغيصه المؤرق لحياتي.

لكن المفاجأة التي أدهشتني، فجر ذلك اليوم، لم تكن حلمي المؤرق بمنغصاته التي لا عد ولا حصر لها، ولا السُّهاد الذي

انتابني فيما بعد ليمنعني من التمتع بمواصلة قراءة واحدة من رواياتي الغرامية المفضلة، دعك من عدم قدرتي على التركيز لتطوير خططي الاستثمارية في سوق الأسهم والعقارات، والتكسُّب من فروقات بيع العملات الصعبة، بل غموض تلك الوثيقة المُرفقة في بريد إلكتروني، وصلني خطأ كما بدا لأول وهلة.

مفاجأة لن أجد بدًّا من الاعتراف أنها لم تكن متوقعة في قائمة بريدي الذي أحفظ صادره ووارده المُعتاد، عن ظهر قلب. بيد أنه اعتراف منقوص، لأنه غير كاف للتعبير عن عدم توقعي لتلك المفاجأة التي غيرت مجرى حياتي إلى الأبد، بسبب ارتكابي حماقة لن أغفرها لنفسي؛ حين قررت بدافع الفضول فتح الوثيقة المرفقة ببريد مجهول المصدر، برغم حذري الدائم من فتح مَرَافِق بريد إلكتروني لست مُتيقنًا من مصدره، لاسيما أن الفيروسات الإلكترونية أضحت من الشراسة والدهاء بحيث تستطيع اختراق أكثر أنظمة حماية الحواسيب فعالية. ولبُّ تلك المفاجأة لم يكن وصول الوثيقة المرفقة بالبريد الإلكتروني إليّ، بل محتواها الأغرب من الغرابة ذاتها حين تصفحتها صفحة بعد أخرى لأجد تفاصيل دقيقة شبيهة بتفاصيل حياتي مَرويَّة، باحتراف أدبي أخاذ، على لسان راوية ضليع لم أتمالك نفسي من حسده على براعته الواضحة في بناء السرد والأسلوب السلس، بمتانة نقلاته المفاجئة بين الحكايات وربطها الواحدة بالأخرى.

وهي وثيقة لا أعرف من كان مرسلها المجهول ولا الشخص الذي أرسلت إليه، فضلاً عن استكناه المساقات القدريَّة التي ألقت بها في بريدي أنا، دون سواي من ملايين ملايين مستخدمي البريد الإلكتروني على هذه البسيطة.

كانت قراءتي الأولى للوثيقة المرفقة متسرِّعة، لكن دهشتي تضاعفت حين قرأتها بتمعن. لأن ما وجدته في ثناياها لم يكن مدعاة لإعجاب مفرط بالأسلوب خشيت على نفسي منه، تأثرًا بالصياغة وبراعة السرد، بل مدعاة لما هو أكثر من الدهشة، بعد أن تضاعفت طبقات اندهاشي في حوض ذهول كاد أن يفقدني صوابي وأنا أقرأ في تتالي السطور والصفحات ما طوح بي كصاعقة لم ألحظ أنها أفقدتني صوابي بالفعل. فكاتبها -راويها، بالأحرى- كان مُطلعًا على تفاصيل أدق من خيوط الدِّقة ذاتها عن حياتي الخاصة، حياتي المسرودة في تلك الوثيقة، دونما احترام للخصوصية التي لا يكتفي باستحواذه عليها لتسجيل ما كشفه من أسرار حياتي دون حياء؛ بل قولبتها وبترها والإضافة إليها من خياله الواسع، لتكون مرويَّةً بإتقان مُقنع مثلما يفعل الرُّواة المحترفون، مُكسِبًا إياي عادات لم أعتدها، بينما يُسبغ عليَّ خصالاً تُعرِّي أسرار حياتي الواقعية، حياتي التي ستبدو لمن يقرأها (في صيغتها المَرويَّة، تلك) حقيقية، كأنها نسخة معدلة عن حياة لوليتا في رواية ڤلاديمير نابوكوف، مع فرق سينتبه إليه القارئ حتمًا: هي فتاة مراهقة وأنا صَيرفيٌّ في الأربعين.

بيد أن ما جعلني أحتار في الأمر هو تغيير شخصيتي الحقيقية وطمسها، ببراعة لافتة، في شخصية دكتور جيولوجي ينتابه حلم غريب على ذات الشاكلة. الخطوط العريضة للعلاقة بيني وبين حلمي الغريب المُؤرِّق هي ذاتها، لكن المعالجة تختلف.

وما جعلني في حيرة من الاستمرار في رواية روايتي الحقيقية، هو أنني لست متأكدًا من قدرتي المتواضعة على مواجهته بعد قراءتي لتلك الوثيقة، لا فرق إن كان حسن طالعي أم سوؤه هو من تكفل بإسقاطها عمدًا أو سهوًا في بريدي الإلكتروني. لأن قارئها الآخر

سيستمتع بها بالتأكيد، وحتمًا سيصدِّقها. ولن يكون بإمكانه التوقف والتمعن جيدًا في تصديق المرويِّ عليه عن المرويِّ عنه، لكنني لن أستطيع تصديق تلك الأكذوبة المرويَّة عني وعن حياتي بأسلوب يظهرها -كما يظهرني- شخصًا واقعيًا وحياة واقعية، لأن حياتي كانت ولا تزال، في أبعادها الواقعية التي عشتها، على النقيض تمامًا مما رواه الرَّاوي -أو الرَّاوية- في تُحفته التي قد تقنع الجميع، عداي أنا. لأنني الوحيد الذي يعرف كوع الحكاية الحقيقية من بوعها؛ بعيدًا عمَّا أظهرته جزالة تعبير الرَّاوي الذي أذهلني بالفعل. أذهلني للحد الذي ربما سوَّغ لي أسلوبه الفاتن اقتراف جريمة محاكاته اقتباسًا، وتحاشيًا لركاكة تعبيري قياسًا إلى فذلكته اللغوية التي استثمرها في وصف حياتي وتحريفها، كما شاء قلمه المَكَّار.

احترت في الأمر، ولم أعد قادرًا حتى على شرب قهوتي التي اعتدت تحضيرها، كما كان بطل الرَّاوي يُحضِّرها على ركوة أيامه السعيدة قبل معضلته مع حلمه الغريب والأثير، على حد سواء. لأنني مثله تمامًا أدمنت شرب الشاي السِّيلاني المُحلى بالعسل، كما روى بالفعل، مذ سيطر عليَّ حلم غريب لم يعد هو المدهش في حد ذاته، بل ما كتبه ذاك الرَّاوية عني وعن ذلك الحلم الغريب.

احترت ولم أعرف ما الذي ينبغي علي فعله، وما النهج الذي عليَّ انتهاجه لمواجهة حقيقة مُرَّة لا مراء في مراراتها: هنالك من يروي -بتعمد وإصرار، وكما يحلو له- تفاصيل من حياتي بإفراط مدهش. هنالك من يرويها طولاً وعرضًا على تلك الصفحات، لا كما عشتها بالضبط، وكما لا أزال أحياها في الواقع، بل كما قدمها بأسلوبه الأدبي الخادع، لتطغى بلاغة صدقه الأدبي الكاذب على حقيقتها التي طالما عشتها ولا أزال أحياها في صميم الواقع،

أمس، اليوم وفي الغد الذي أتمنى ألاّ أقضيه كسابقه مُلتاثا وعاجزًا عن فعل شيء يخرجني مما وجدت نفسي دائرًا، رغمًا عني، في دائرته التي لم أفلح في الخروج منها، برغم محاولة انكبابي على قراءة رواية غرامية أخرى من سلسلة **«رويات عبير»** و**«روايات أحلام»** الرومانسية. وهما سلسلتان من الرِّوايات التقيت أديبًا ضليعًا أكَّد لي أن مترجميها عن أصليها الإنكليزي والفرنسي أدباء وكُتاب معروفون، لكنهم يستحون من وضع أسمائهم الحقيقية على أغلفتها، فغالبيتهم شعراء وكتاب ومترجمون لهم سمعتهم الأدبية.

طبعًا لم أشغل نفسي بتفسير ذلك الأديب الضليع، تفسيره الذي لا يعني صيرفيًا على شاكلتي، لأنها كانت بالنسبة لي مجرد روايات قصيرة وغير معقدة وسهلة الهضم كالسَّندويتشات العاطفية الخفيفة، تلك التي طالما استمتعت بها في سويعات الراحة، رغم أنها روايات موجهة في الأصل لإثارة غرائز المراهقين والمراهقات برومانسيتها السطحية الخادعة. لكنها روايات استطاعت أن تمنحني الإثارة والإمتاع اللذين تثيرهما تلك الرِّوايات التي قدر ما كانت قراءتها تثير خجلي، كان محتواها الجنسي الفاحش أحيانًا يثير فضولي، بعد اعتيادي إدمان قراءتها كاعتيادي قراءة متغيرات الأسهم في البورصة. ففي عالم الصَّيارفة الجاف كانت رطوبة تلك الراويات الغرامية قادرة على إشعال فتيل إثارة طالما افتقدته بعد نجاحي في تحقيق صفقة ماليَّة مربحة في سوق الأسهم. وكثيرًا ما جعلتني تلك الرِّوايات -وهذا ليس سِرًا يستحق مكابدة البوح به- أستمني بعد الانتهاء من قراءتها، حالمًا بين أحضاني بفتاة رومانسية كتلك التي ربما كانت تحلم بي في إحدى صفحات الرِّواية التي لم أنته من قراءتها بعد.

لكن محاولة انكبابي على عادة قراءاتي السريّة أضحت محكومة بالفشل في الفترة الأخيرة، ولم أتمكن من إنهاء الرُّبع الأخير من تلك الرِّواية التي كانت بين يديَّ بانتباه وتركيز بعد قراءتي للوثيقة التي تؤرخ، كما تحرِّف سيرورة حياتي. لذلك وجدت نفسي أرمي تلك الرِّواية جانباً (خلافًا للمرويِّ عني، عن بطله، بالأحرى في تلك الوثيقة). وعليه لم يكن غريبًا إسراعي لإعداد فنجان مكثف من القهوة؛ فربما كان أجدى لانتباهي من الاستمرار في شرب الشاي المُحلّى بالعسل، بعد أن رميت الرِّواية جانبًا، علّه يعين محاولاتي اليائسة للتركيز على ما ينبغي عليّ فعله حيال ما ورد في تلك الوثيقة. لكنني كنت وما زلت حائرًا، مشوشًا ومشتتًا إلى أبعد الحدود. ولم أبلغ -بعد ما لا يُحصى من فناجين القهوة- مَشارفَ حكمة طالما انتظرتها في قاع الفناجين لتنقذني بخيال قارئة فنجان قد يرشدني إلى تصرف يلائم تعقيد الموقف، عدا مهزلة استسلامي لفكرة تحاشيتها منذ البداية:

الرَّد على صاحب البريد الإلكتروني تحت تأثير انفعال أملته حالتي اليائسة باستخدام عنوانه ليوضح لي في رده ملابسات وثيقته المرفقة. ولن يكون غريبًا على من سيصبح قارئ دحضي لتلك الوثيقة أن يُخمِّن أن الأيام مرت دون أن يصلني رد. لذلك بادرت بعد أسبوع لإرسال بريد آخر إليه، أقل انفعالاً من سابقه. لكنه، مرة أخرى، تعمّد تجاهل الرد عليه. انتظرت أسبوعًا آخر وأرسلت إليه بريدًا ثالثًا من عنوان بريدي مختلف وقَّعتهُ -في محاولة للإيقاع به- باسم شخص آخر يدعي وصول تلك الرسالة إليه بالخطأ الإلكتروني ذاته، وكان عدم الرد للمرة الثالثة هو الجواب الوحيد الذي كان عليّ انتظاره في صندوق بريدي.

عندها تأكدت أن هناك من يراقبني بالفعل. وأن هناك من يستفيد من وقائع حياتي ليجعل منها أرضية لعمل أدبي يشتغل عليه -كما اتضح لي بعد أن أعدت قراءة الوثيقة، وعرضتها على صديقي الكاتب الضليع-، ليزداد يقيني بمنظومة الشكوك التي خامرتني حولها منذ البداية، ولأتأكد بأنها فصل من رواية يرويها بإتقان واحتراف أدبي ابنُ عاهرة لا أعرف كيف تمكن من مراقبتي وألبسني لبوس دكتورِهِ الجيولوجي، إمعانًا في التضليل.

وأيًّا كانت أسبابه التي دعته ليسرد وقائع مجتزأة من حياتي ومعاناتي مع حلمي الذي أرقني بالفعل، لكنني كشخص واقعي لا يعرفه أصلاً، ولم يمنحه الحق ليتحدث عني بضمير الغائب، أيًّا كانت تلك الأسباب التي دعت هذا الرّاوية، ابن العاهرة وسليل الخصية الواحدة ليقترح على نفسه سرد وقائع حياتي كما يحلو له وكيفما اتفق، ضاربًا عرض الحائط بالأمانة المفترضة فيمن يجشم نفسه عناء سرد وقائع لا أكاذيب مختلقة يمزجها للتمويه بوقائع حقيقية. أيًّا تكن تلك الأسباب ودواعيها، فالحقيقة التي يجب أن تُروى، كما يجب أن تروى -وهذا ما أجدني أفعله، مُرغمًا- مختلفة تمامًا عما ذهب إليه من لم يكلف نفسه عناء الرد على أبرِدَتي الثلاثة. هذا الذي لم يكتف، كراوٍ، بسرد الوقائع كما وقعت، بل أضاف إليها وحذف منها استمالة لقارئ مفترض -كما يبدو- ليصبح تصديق ما يرويه نهائيًّا وواقعيًّا وبديهيًّا كالبداهات المُنزلة من السماء.

اللعنة. اللعنة عليه وعلى خصية أبيه الوحيدة.

أيَّة سماء وأية أكاذيب وأية بداهات منزلة كانت أو غير منزلة؟..

بأيِّ حق، بل بأيَّة صفة يتحدث عني وعن أحلامي وآلامي كأنني لست على قيد الحياة أتنفس الهواء وأشرب الماء وأقرأ الرِّوايات الغرامية التي تثيرني، وألعب الدومينو لأخسر أحيانًا وأفوز في بعض الأحايين، تمامًا كما يحدث لي في البورصة؛ فوز وخسارة أسهم ترى هبوطها وارتفاعها على شاشة السُّوق الهائلة.

بأيَّة صفة يروي عني، كأنني لستُ قادرًا أن أسرد بلساني هذا، وبضمير المُتكلم هذا، ما حدث لي بالضبط دونما تحريف أو زيادة أو نقصان، فيما لو كانت لديَّ الرغبة، بالفعل، في سرد وقائع حياتي في فصل مرويٍّ لنشره في موقع إلكتروني للمبتدئين في المواهب الأدبية.

وجدلاً، إن وُجدت رغبة لم توجد أصلاً لأروي وقائع حياتي، فإنني سأضطر لأن أكون فجًّا ووقحًا وقليل أدب. لأن عُملاءنا لا يصفوننا في المهنة -من وراء ظهورنا- بألقاب أفضل من تلك، بل بما هو أسوأ في رثاثة قواميس ألسنتهم التي تصطدم بجُسور أطقُم أسنانهم، برغم أنهم هم والأغبياء الذين يتحدثون إليهم في جلساتهم الخاصة من يجني الأرباح التي توفرها لهم خدماتنا كصيارفة يرشدونهم إلى حيث يجب عليهم استثمار أموالهم.

من أوكل لذاك الأحمق بتلك المهمة؟.. ومن دعاه للقيام بها؟ ومن يكون أو لا يكون ابن العاهرة وسليل الخصية الواحدة ذاك؟

صحيح أنه كان بارعًا ولا يُجارى في صياغة الفقرة الافتتاحية حول طقس قراءتي للرِّواية وشربي للشاي المُحلى بالعسل -وهذا دليل دامغ على مراقبته لي عن كثب-، كما أنني لم ولن أخفي إعجابي المفرط بالتفاصيل التي أوردها عن تقاعدي (من البنك، وليس من شركة نفط) وعن حلمي الغريب الذي لم يعد غريبًا، بل

أضحى لفرط تكراره أثيرًا رغمًا عني؛ ولكن لأسباب مختلفة عن أسبابه التي سوَّقها فيما كان يرويه عن بطله المُزيَّف. لكنها تفاصيل في نهاية المطاف، ومهما برع في صياغتها، لن تعطيه حق التطاول على مهنتي التي امتهنتها طوال حياتي ليشطبها بجرَّة قلم، سليل الخصية الواحدة ذاك، وفق هواه إلى مهنة أخرى لا ناقة لي فيها ولا شهادة دكتوراه ولا جيولوجيا ولا حقول نفط.

فأنا لم أعمل، قط، في شركات النفط. ولا أعرف شيئاً عن الطبقات الجيولوجية ولا الأحافير التي يدعوها مُستحاثات، فضلاً عن أهميتها -إن كانت لها أهمية، أصلاً- في تحديد عمر الطبقات الأرضية الحاملة للنفط أو للماء أو للجن أو الشياطين، لأنني بكل بساطة شخص أبسط من كل ذلك التعقيد الذي أسبغه عليّ وعلى حياتي الوادعة الكلبُ ابنُ العاهرة الصفيق ذاك.

وإن كان لا بد من توضيح له أو لسواه ممن سيقرأون ما بدا - دون شك- أنه فصل من عمل أدبي أجهل كُنهه وماهيَّته، فإن مهنتي على النقيض تمامًا مما رواه وأقنع به القارئ مُقنَّعاً في شخصية بطله الأبطولة؛ لسبب أبسط من بساطة السَّرد ذاته: لم أكن في يوم من الأيام دكتورًا في الجيولوجيا، ولم أكتشف أحفورة في جبال بلادي أعادت تاريخ اكتشاف النباتات المزهرة خمسين مليون سنة إلى الوراء، ولم يدر في خلدي أن الدولة تمنح أوسمة للعلوم، فضلاً عن تكريمي بواحد من تلك الأوسمة التي لا أعرف كيف دعاه خياله المريض -خيال الرّاوية، لا خيال شخصيته المُنتحلة من شخصيتي الحقيقية- لمنح ذلك الوسام لي دون سواي، ممن خدموا مؤسسات الدولة واستحقوا ذاك الوسام عن جدارة.

فبكل تواضع وفخر، تدرَّجت في وظيفتي من مُحاسب صغير

في البنك إلى مسؤول مساعد في قسم الحسابات في الفرع نفسه القريب من بيتي في أطراف المدينة حتى تم نقلي وتعييني، بعد سنوات طوال، لأصبح مديرًا لقسم الحسابات في الفرع الرئيس، ثم مديرًا عامًّا للقِسم نفسه. وما أدهشني خلال قراءتي للوثيقة المرفقة في بريده الإلكتروني دقة وصفه لطقس قراءتي لرواياتي الغرامية المفضلة وإسدالي للستارة وإعدادي لكوب الشاي المُحلى بالعسل، إلاّ أن ما فاته في إضافاته الماكرة هو أنني لم أعرف في حياتي جارًا لديه سيارة رياضية بشاحن توربيني مزدوج، فضلاً عن اختلاقه الممجوج لإعجابي اللامتناهي بلونها البرتقالي المميز. فتلك فكاهة لا تختلف عن فكاهة من يحاول تزوير ورقة المائة دولار اعتمادًا على نسخة من ورقة الدولار الواحد الأحد.

تفصيل صغير لم أكن لأكترث له، لولا أن السيارة الرياضية ذات الشاحن التوربيني المزدوج هي سيارتي المازيراتي برتقالية اللون، وليست سيارة أحد الجيران. وهو تغيير طفيف، لن يضيرني لو قورن بفداحة تغييره لمهنتي، وهو أمر كدت أتغاضى عنه لولا استهانته بكرامتي حين اقترح على قارئه المفترض شكّي في سلامة قواي العقلية والنفسية بادعائه أنني استشرت معالجًا نفسيًّا أكد لي فداحة الالتباس والتشوش العقلي والنفسي اللذين أعانيهما دون أن أدري، لسبب سيفهم بُطلانه قارئ وثيقته ووثيقتي النافية لوثيقة سليل الخصية الواحدة ذاك.

* * *

لقد فكرت طويلاً فيما يتوجب عليّ فعله، ولم أجد مَخرجًا أدبيًّا أو قانونيًّا يُمكِّنني من مقاضاته على فعلته الشنيعة، لأن ما كتبه

عني مُسوَّدة لم تُنشر بعد على نطاق واسع. برغم أن طريقة السَّرد وأسلوبه يُوحيان بأنه فصل من عمل أدبي لم يكتمل. وما أثار جنوني حقًّا هو أنني استطعت، بوسيلة من الوسائل، التغلب على حلمي، لكنني إطلاقًا لم أستعن بفكرة ألهمتنيها رواية غرامية ساذجة منشورة في سلسلة «روايات عبير» أو «روايات أحلام». فقد كنت أستحي حين أذهب لشراء سلسلتيهما الشهريتين من كشك الصحف القريب من بيتي، لدرجة أنني صرت مع الوقت أتحاشى شراءها من الكشك القريب، وأتعلل بأية تعلة للذهاب بعيدًا لشرائها من كشك أو سوبرماركت بعيد لا يعرفني فيه البائع، كي لا أحرج نفسي في أربعينيَّات عُمري بسبب مواظبتي على قراءة روايات المُراهقين تلك.

ورغم أنني لست كاتبًا ولن أكون في يوم من الأيام، لكنني - مع ذلك- أعترف بفضل سليل الخصية الواحدة عليَّ في تنبيهه إلى ضرورة كتابة شيء مفيد عن حياتي أو عن حكايتي مع حلمي الغريب. صحيح أنني واحد من آلاف الصَّيارفة المتقاعدين الذين تخامرهم، بين الفينة والأخرى، فكرة كتابة مذكراتهم ونشرها لإضفاء بعد تاريخي على حيواتهم التي عاشوها، لكن الكثرة الكاثرة منهم لا تفلح في تحقيق تلك الأمنية، عدا بعض السّاسة الذين امتهنوا الصَّيرفة من نافذتها -لا من بابها المشرع-، بعد أن شعروا بالخواء في حياتهم ولم يتورعوا، بعد انتهاء أدوارهم واضمحلالها من المشهد السياسي، عن تأليف كتاب يكون القصد منه تذكير العالم بأدوارهم المنسية، أكثر منه كتابة وثيقة للتاريخ. وهي نوستالجيا دافعها استعادة صورهم في الصفحات الأولى وفي نشرات أخبار الفضائيات عندما كانوا وزراء أو رؤساء وزراء ذات يوم.

نعم، نعم. أعترف بفضله عليَّ، ولا أرى ضيرًا في التصدِّي له

في عقر داره، لتلافي المسألة برمتها حتى لا يتمادى، لاحقًا، فيما لا تُحسب عواقبه على أكثر من صعيد. فلعبة سرد الوقائع من منظوري وكما حدثت تماماً ليست سيئة، بل مُسلية لمتقاعد على شاكلتي؛ لم يكن يفعل شيئًا سِوى قراءة الرّوايات الغرامية اللذيذة.

لم أمتهن الكتابة، ولا أعرف أصلاً ما أصولها وقواعدها، لأنني كنت دومًا أقرأ دونما اكتراث ما يكتبه الآخرون في الجرائد والمجلات، مُستغربًا تضييع وقتهم الثمين في ألاعيب على تلك الشاكلة، ومندهشًا من قدرتهم على إيجاد الوقت لكتابة ما يكتبونه. لكنها ربما كانت إحدى وسائل الرزق، كما خمَّنت، وكما سمعت عن بعض الكتاب الذين أثروا من وراء رواياتهم وقصصهم القصيرة. لكنني شخصيًّا لم أفكر بكتابة عمل أدبي أو حتى سيرتي الذاتية المُتواضعة، فضلاً عن فكرة نشرها بعد صياغتها أدبيًّا بأسلوب رصين، ومع ذلك فهي تجربة ربما استحقت الخوض فيها، إنصافًا للحقيقة وحدها. كما أن الوقائع الغريبة والعجيبة فيها ستكون مسلية وممتعة للقارئ إن كلّفَ نفسه عناء قراءة حكايتي مع حلمي الغريب.

وما سأقوم به في الصفحات التالية سيكون مِرانًا وصقلاً لموهبة أدبية كامنة وَأدَتْها أرقامُ الحسابات والحوالات المصرفية طوال سنوات خدمتي التي عشتها قانعًا راضيًا بنجاحي الذي حققته في مهنتي، لولا تنغيص الحلم الغريب الذي ظل يراودني في الفترة الأخيرة، حلمي الذي لا أعرف كيف سبر غوره ذاك الراوية المُحتال، ذاك الذي تطوع لسرد حياتي وشوهها دونما خجل في الفصل السابق. لكنني لن أكون على شاكلته بل سأعيد صياغة ما تطوع بسرده منذ البداية مكتفيًا، للأمانة وحدها، بسرد الوقائع من حيث انتهى إليها، ولكن كما حدثت بالضبط. كما أنني ابتداء من

الآن -واحترامًا لقارئي المُفترض- سأكف عن مناداته بابن العاهرة أو سليل الخصية الواحدة، وسأكتفي -في مسودة نصي الأدبي الأول، نصّي المُفنِّد لادعائه- باعتباره واحدًا من أولئك الرُّواة المتحذلقين. وهي مكافأة صغيرة على تنبيهه لي بضرورة رواية وقائع حياتي مع حلمي الغريب كما كانت، وكما يجب أن تُروى بالفعل.

* * *

قبل الخوض في التفاصيل، لا بد من تفنيد ما ادعاه بخصوص حلمي الذي أرق حياتي والوسائل التي لجأت إليها مُضطرًّا للتخلص منه. فما رواه عن حبسي لحلمي المؤرق في لاوعيي بإلهام وتأثير من رواية لم أقرأها هو محض افتراء، لكن الضغوط التي مارسها حلمي الغريب بالفعل كانت أقسى من أن تُحتمل. وبالفعل قلبت حياتي رأسًا على عقب، وكادت -كما روى الرَّاوي- أن تفقدني صوابي وتدخلني في متاهة جنون حقيقي، لكن ليس إلى الحد الذي جعلني أنبطح على أريكة معالج نفسي استفرغ نقود محفظتي بعد أشهر عديدة قضيت نهاراتها ولياليها في استكناه وهم قيصري باهظ الثمن، كما ادَّعى فيما رواه.

لأنني -وبكل تلازم مُتاح للبساطة والصِّدق- قضيت تلك الشهور في البحث لمعضلتي عن حل واقعي محسوب بدقة أرقام الصَّيرفي، ما أمكنني ذلك. ولأنني مجرد صيرفيّ عاش جُلّ حياته مراقبًا ومتابعًا لصعود أرقام الحسابات النائمة وهبوط المتحركة، الخفيفة والثقيلة، السوداء أو تلك المُبيَّضة بصابونة فقه المال، ابتداء من الصِّفر حتى ملايين الملايين في الأرصدة، التي كانت تدور تحت أصابعي، لتتناهى بلاغة رقمية رمادية مموهة الاستعارة

والكناية على شاشة حاسوب البنك - لأنني صيرفيّ عتيد، ظنَّ في البداية أنه سيجد الحل لمُعضلته في دائرته الحميمة، دائرة المال والأعمال. لكنني كنت مخطئًا في الحِسبة، رغم تاريخ الدِّقة التي ميَّزتني بين أقراني الصَّيارفة في كافة حساباتي.

نعم. لقد أخطأت بعدما أصابتني الأرقام بعماها الخاص، عماها الذي لا يمكن أن يُقارن بعمى الألوان. أخطأت في حماسي العارم لوظيفتي وانشغالي بعالم المال والأعمال لدرجة نسياني لجذوري وعائلتي في القرية التي نشأت فيها، بعد أن جعلني نجاحي أتوهم أن نسيان المرء لجذوره وتحاشي ذكراها مفتاح ذهبي لا بد من حمله كجوزة قلب مثقوب بتلك الطمأنينة التي تنضح من وجه بنجامين فرانكلين المرسوم على ورقة المائة دولار، فتلك طمأنينة خادعة لمن أراد بلوغ الثقب الضيِّق لقفل النجاح بتسارع غير محسوب.

لكنني في لحظة صفاء عدت للتفكر فيما مضى من حياتي انطلاقًا من الصِّفر. أي من أيام طفولتي التي قضيتها في قرية صغيرة محفورة في الصخور والوديان. تلك القرية المخفورة بالخرافات والسِّحر والغيب، أي بكل ما هو نقيض لما أنا عليه الآن. عدت للتفكر في تلك الحياة نادمًا بعد شعوري العميق بالوحدة، رغم النجاح المادي الذي حققته، نادمًا على ما فعلته بنفسي، وما فعلته بعائلتي وقريتي الوادعة تلك. قريتي التي رضعت حليبها. قريتي التي شربت ماءها. قريتي الساحرة والمسحورة. قرية الديك السَّقاع ودجاجها البيَّاض. قريتي التي لم تعرف الكهرباء. قريتي التي لا فرع فيها لأحد البنوك حتى. قريتي التي كانت تنام في الثامنة والنصف مساء. قرية المُغيَّبين والملائكة الذين يرسلهم الله سربًا

سربًا للتناوب على حراسة مؤمنيها من شيوخ السحرة وشيوخ الجان. قرية أبي وارث السِّحر مُخففًا في فناجين زعفران علم الفلك والمنطق اللامنطوق. قرية النشوق والغليون. قرية حفلات الزار السِّرية في أطرافها الخلفية. قرية البازار يبيع فيها الساحر من تقع عليه عيناه من المارة بعد أن يقبض الثمن من ساحر قرية أخرى. قرية الصِّفر والمليون في تبادلهما كُنه أحدهما للآخر، دون أن أفقه مغزى الأحجية التي ظلت في انتظاري زمنًا طويلاً. زمنًا أطول من نسياني المُتعمد لقريتي تلك، ولأهلي وأقاربي بعد أن ولّيتُ وجهي وجهة أخرى في عالم آخر. عالم حسبته دقيقًا كدِقَّة الصِّفر السَّادس ومُضاعفاته في الودائع المليونية، لأكتشف متأخرًا أن ذلك العالم الذي أغرقت نفسي فيه لم يسعفني في إيجاد حل لمعضلتي مع حلمي المُنغص، كما لم يسعفني غرقي الساذج في أحلام الرِّوايات الغرامية التي أدمنتها في الفترة الأخيرة.

هكذا عُدتُ، في لحظة الصفاء النادرة تلك، بالذاكرة إلى الوراء. إلى أبي وارث السِّحر الشائع في الإشاعات المتداولة عنه، تلك التي أضفت عليه هالتها الأسطورية، حقيقية كانت أم مُتخيلة، بعد شيوع حكاية عن صندوق ورثه أبي عن جد جدي الأول. صندوق كانت به كُتب قديمة ورُقى مُطلسمة قيل إن أبي استفاد من بعضها في كتابة المَحو. وهي رقى كان يكتبها بماء الزعفران على صحن لتُمحى كي يشربها المرضى بالعلل التي لا شفاء منها في أزمنة البرص والجذام والطاعون. عدت بالذاكرة إلى ذلك الصندوق الذي سمعت بحكاياته الأسطورية ولم أكترث لوجوده من عدمه، لأنه اختفى ولم يكترث أحد لاختفائه بعد وفاة أبي.

لذلك تفتق ذهني -بعد أن فشلت في السَّيطرة على حلمي

المنغص- عن ضرورة القيام برحلة إلى القرية التي ولدت فيها لأسأل عجائزها عن مصير ذلك الصندوق بعد اقتسام إرثنا العائلي. ولأنني أكتب اعترافات حقيقية وغير مُزورة؛ فسوف أسرد الحقيقة كما كانت عليه دائمًا، دون غش أو خداع، كي لا يقع القارئ في الخديعة مرَّتين.

* * *

لقد سبق لي أن عرفت مُصادفةً الشخص الذي آل إليه ذلك الإرث من أفراد عائلتي الذين انقطعت صلتي بهم منذ وفاة والدي؛ إثر لقائي في أحد المقاهي صديقًا لأبي لم يلبث أن جلس إلى طاولتي ليثرثر عن صداقته لأبي وعن أيامهما الخوالي في القرية.

لم يشأ مُعاتبتي على مقاطعتي للقرية وأهلها، لكنه لمَّح إلى ذلك الصندوق الثمين قائلاً لي إنه إرثك، لكنكم لم تسألوا عنه، لا أنت ولا إخوانك. وإن كنت مهتمًّا به فهو موجود لدى عمَّتك التي انقطعت عن زيارتها.

والآن أتذكر كلماته حرفيًّا:

- الصندوق موجود مع عمتك العجوز. عمتك التي ما زالت تحيا في بيتها الطين القديم وحيدة وفقيرة، كما كانت قبل نصف قرن.

هكذا عدت للتفكير بأهمية ذلك اللقاء العرَضي مع صديق أبي.

وهكذا، هكذا فكرت في القيام برحلة العودة إلى الجذور حاملاً بين جوانحي زئبق خجلي من نسياني لتلك العمَّة ولتلك الجذور سنين طوالاً. بيد أن تلك الجذور وتلك العمَّة العجوز

استعادا فجأة أهميتهما بعد سيطرة حلمي المؤرق، حلمي الغريب عني باحثًا عن مخرج لمعضلتي التي لم يسعفني التدرج الوظيفي البطيء ولا أرقام الحسابات الفلكية، ولا حتى قراءة الرِّوايات الغرامية في إيجاد حل لها.

هكذا قررت الرحيل إلى القرية، ودخلت على العمَّة، ذات يوم، في بيتها الطيني المُندثر مُعلنًا تفجر ينابيع اشتياقي لها.

كنتُ وغدًا، لأنني كذبتُ عليها. لكنها كعادة العجائز، لم تفصح عن عتابها لعدم زيارتي لها بعد وفاة أبي حين فاجأتها بتلك الزيارة لأوقف سيارتي رباعيَّة الدفع أمام بيتها الطينيِّ المُتداعي، رغم وضوح العتاب في عينيها الدفينتين تحت جفنيها اللذين هدَّلهما الزمن، مُؤثرةً رسم ابتسامة حنان ذاوية طوال الأيام الثلاثين التي قضيتها في القرية معها، حيث تشرّبت لأول مرة إيقاع حياة بطيء بعد خمس وعشرين سنة قضيتها في المدينة منهمكًا في سرعة إيقاع الإنجاز الوظيفي ودقته التي لا تهاون فيها لمن عرف سراديب العمل في المصارف.

لن أطيل حكايتي بروايات تمهيدية لتوليد حكاياتٍ داخل الحكاية الواحدة، لذلك سأدخل صلب الموضوع بأقل الكلمات قدر الإمكان، لأنني استعدت علاقة قَرابة كنتُ المُتسبِّب في ذبولها. لذلك حاولت قدر ما أستطيع، خلال زيارتي لعمَّتي المَنسيَّة، أن تكون، بكل صدق متأخر، صداقة مُستعادة في وقت ضيق عبر اهتمامي المفاجئ بها، وإطلاعها على أخباري وأسراري الصغيرة من ألِف نجاحي في وظيفتي حتى ياء حُلمي الغريب. وهي بدورها لم تبخل عليّ بخزين ذاكرتها حين راحت تخبرني بقصص وحكايات لم تعد تُروى، مستطردة بحنان افتقدته: لأنكم جميعكم

-أبناء المدينة يا ولدي- مشغولون ومعذورون لعدم إيجاد فسحة من وقتكم الثمين لإصاخة السمع لحكايات العجائز. لقد تغير الزمان يا ولدي، لقد تغير عما كان عليه في زماننا، لكنها سُنة الحياة. سُنة الحياة، نعم سُنة الحياة، ثم انهال عليَّ التأنيب غير المُباشر، حين أردفت:

... ولا تذهب بعيدًا، بل انظر إلى نفسك. انظر إلى وجهك الذي محقته تلك المدينة التي نَمتْ على عجل. انظر إليه وإلى تجاعيده الشبيهة بنقوش النقود المعدنية القديمة. تعرف أنني لا أعترف بالنقود الورقية التي اخترعتموها أنتم الصَّيارفة لتسهيل عملية احتيالكم لسلب أموال القرويِّين البُسطاء أمثالي.

وإن استطعت بنظارتك السميكة أن ترى وجهك في مرآة؛ جِدْ لنفسك بعض الوقت للتمعن في صلعتك التي ما كانت لتجد لنفسها مكانًا في رأسك الصغير أيام كنت طفلاً بشعر منسول -كما أتذكرك-، كان يفتن الفتيات الصغيرات، وكنَّ يتقربن إليك معتقدات أنك واحدة منهن. تمعن اليوم في هذه الصَّلعة الكريهة، تمعَّن فيها وانظر إليها بعين مُتفحصة في المرآة. أتعرف ما الذي جعلها تملأ رأسك لتلمع كالمرايا؟..

مدينتك اللعينة. نعم، مدينتك اللعينة وإدمانك لشرب المياه الصَّدئة من حنفيَّاتها البغيضة.

انظر إليَّ وإلى شعري الأشيب. أتعرف ما الذي أبقاه طويلاً حتى اليوم؟ ماء هذه البئر النقي، ماؤها الذي ما زلت أرفعه منها بتلك الدلو كما كنت أفعل قبل خمسين عامًا. لكن ما يخيفني يا ولدي أن الحكومة، كما يُشاع، تريد أن توسِّخ بيوتنا بأنابيب صدئة تحمل الماء مباشرة إلى حماماتنا. بعض القرويين السُّذج فرحون

بذلك ولا يدركون عواقب تلك الخطوة الملعونة. لا يدركون أنهم بعد عشر سنوات فقط ستتساقط شعور رؤوسهم وسيصبحون جميعًا نسخة صلعاء لا حاجة بهم لرؤيتها حتى في مرآة صدئة، أو في صحيفة من الصُّحف التي تنشر صورتك وأنت تترأس اجتماعات مجلس إدارة البنك الذي كنت تفاخر بالانتماء إليه.

اللعنة. سحقًا لأمثالك، وسحقًا لمياه الحكومة.

اللعنة على الكهرباء التي أخاف أن تصل في أعمدة ستشوِّه وداعة قريتنا، ناهيك عن مكيفات الهواء التي سمعتُ أنها تُصدر زئيرًا مرعبًا، بحجة تبريد هواء الله. لدينا شتاء، ولدينا صيف ننام خلاله فوق أسطح البيوت، ونتناسى الحَرَّ بشاعرية تأمُّل النجوم. وإذا كان شديدًا فإن مهفَّة سعفية، اعتدت صنعها بيدي، كافية يا ولدي، كافية لاتقاء الصَّهد، فهو أقل وطأة من شرور الكهرباء وزئير مكيفاتها اللعينة.

* * *

رغم عدم اقتناعي بما كانت تقوله حول العلاقة الحتمية بين الصلع ومياه المواسير التي بلغت كل القرى في بلادنا بفضل سياسة حكومتنا الرشيدة واهتمامها بالمواطنين سواء كانوا في الجبال أو في الرمال، لكن العمَّة العجوز جعلتني أتفكر في سُنن الحياة. وواحدة من تلك السُّنن التي اضطررت لتذكرها مؤخرًا، أنني عدت إليها سائلاً عن صندوق جدي القديم في محاولة، رومانسية في الغالب، لإعادة عقرب الزمن إلى الوراء. وبالفعل، بالفعل لم تخذلني العمَّة حين لمست جديَّتي وتلهفي للاطلاع على محتويات صندوق الإرث العائلي الذي لم يلتفت إليه الأبناء.

كانت تلك هي البداية.

وكان عليّ التخلي مؤقتًا عن خبراتي التي اكتسبتها، وحاربت طويلاً صيارفة العاصمة المجبولين على الأعمال المصرفية، وفقًا لمعايير سرعة الإنجاز. المعايير التي لا يمكن لعمَّتي العجوز أن تفهم تهجئة حرف واحد منها. لكن حِكمتها وخبرتها المُختزنة هيَّأتني لتقبل سُنن واقع بطيء وغريب على خبراتي المكتسبة، تلك التي بدت عديمة الفائدة في قرية وادعة منسية بين الجبال. وكان هذا يعني أن عليّ خوض غمار تجربة جديدة تمامًا بمعية عمَّتي التي لم تتوان في الاستفاضة بشروح، بدت لي مُملة في البداية، عن معارف الأولين الغيبية التي مكنتهم من علاج الأمراض المستعصية بقوة السِّحر والرّقى، واستعانتهم بمعارف الجنّ التي كانت متقدمة على معارف الإنس قبل ظهور الأدوية الحديثة والاختراعات العجيبة والسيَّارات، ليس هذا فحسب -قالت، مُستطردة- بل استطاعوا السَّيطرة على الجان بمشاركتهم معارفهم وتطويعها لرفاهيَّتهم بالممكن والمُتاح آنذاك، يا ولدي.

ولأنك جاد في البحث عن علاج لمرضك المزمن -تقصد حلمي الغريب- فلن أضنَّ عليك بفتح الصندوق القديم الذي جئت من أجله وقراءة الرّقى التي فيه، علها تساعدك في محنتك. فقد كانت الأحلام والكوابيس وما زالت من عمل الجان والشيطان، وكانت الرّقى وسيلة ناجعة لحبسها والسيطرة على شرورها، لكنكم لا تؤمنون اليوم بتلك الوسائل التي كانت ناجعة في أزمنتنا الغاربة.

بعد عدة أيام من وصولي القرية أقنعتها بركوب سيارتي لنتجول في الوديان القريبة من القرية، فوافقت على ركوب السيارة للقيام

بتلك الجولة. بعد أن ركبت سألتني عن اسمها فقلتُ لها هَمَر HUMMER شارحًا لها أنها واحدة من أفضل السيارات القادرة على السير في الطرقات الوعرة.

في الطريق نحو الوادي أخبرتها أنها في الأصل عربة عسكرية يستخدمها الجيش الأمريكي، لكن الشركة المُصنعة أطلقت نسخة مدنيَّة، وصبغتها بألوان جذابة كالأحمر والأصفر والأزرق السَّماوي.

فسألتني العمَّة:

- ولماذا اخترت هذا اللون الأسود الكئيب؟

- لديَّ سيارة أخرى ذات لون برتقالي مُبهج يا عمَّتي، لكنها لا تستطيع الوصول لهذه القرية، أما هذه فقد اشتريتها قريبًا واخترتُ لونها الأسود لأنهُ مُعبِّر عن حالتي السوداوية بسبب حلمي الغريب.

- لون سيارتك يُنبئ بصعوبة الحالة التي أنت فيها، ولكن عليك الاقتناع والإيمان قبل كل شيء، فهل أنت مستعد؟

كان الأمر أشبه بالمفاوضات السرية إذعانًا وقبولاً بشروط الطرف الآخر.

وكانت جملتها الأخيرة: «ولكن عليك الاقتناع والإيمان قبل كل شيء، فهل أنت مستعد؟»؛ تُضمِرُ قدر ما يفصح مكنونها عن شرط يفرضه الطرف المفاوض: ضرورة الإيمان بتلك الوسائل، لو كنت جادًا في تحقيق هدفي.

هكذا تخليت عن أسلوبي الشهير بصعوبته، بين الأقران، في المفاوضات على نسب الأرباح بيننا وبين البنوك الأخرى والمحافظ المالية ورساميل الودائع، مذعنًا دونما شرط للشروط المفروضة

ضمنًا، لا سيما أنني كنت حائرًا ودائخًا أمام أفق مسدود لم يتح لي وسيلة أخرى سوى الإذعان التام:

أي محاولة الإيمان بتلك الخرافات، وذلك ما وطنتُ نفسي عليه.

لن أطيل في وصف الساعات والأيام التي قضيتها معها، فذاك سرٌّ عائليٌّ درَّبتني العمَّة على عدم التفريط به، لكنها بُعيد اطمئنانها إلى جدِّيتي وبلوغي مرتبة إيمانية أعلى من حافة الشك بقليل؛ سلمتني مفاتيح الصندوق التي كانت تحتفظ بها معلقة في رقبتها لتتدلى بين ثدييها الذابلين، وسمحت لي بفتحه لأبدأ رحلة طويلة في غرائب وعجائب محتوياته، فضلًا عن الإرشادات والإشارات التي قادتني للبحث عن كتب قديمة كان لا بد لي من الاطلاع عليها لنجاح وصفة ما كنتُ أهفو وأصبو إليه:

«السَّيطرة على الأحلام».

هكذا؛ وبمساعدة الرُّقية التي وجدتها في الصندوق، إضافة إلى إرشادات العمَّة التي كانت في أبعادها النظرية أقرب ما تكون، في مغامرات التشبيه، إلى كُتيِّب تعليمات تشغيل حاسوب مُعقَّد - تمكَّنتُ من حبس حُلمي في علبة فضية أهدتنيها العمَّة، بعد ممارسة طقوس معينة طبقتُها بحذافيرها، كما وردت في الوصفة الخاصة بالسيطرة على الأحلام، قبل توديعها بعد شهر لأعود إلى بيتي بصندوق العائلة السِّحري والعلبة الفضية الصغيرة.

* * *

بمجرد عودتي للمدينة، قلت لنفسي مُهنِّئًا:

أخيرًا حبستُ حلمي. أخيرًا حبست ذلك الحُلم الوغد في علبة. علبة فضيَّة، ذات نقوش أثرية، مُحكمة الإغلاق لن يتمكن من الخروج منها، كما أكدت لي العمَّة. وأخيرًا، أخيرًا سأستريح من تكرار مطالباته برواية تجليَّاته المؤرقة والمزعجة، تلك التي أشاهدها في المنام على الآخرين، لأفضح نفسي أمام الجميع بنشر غسيل علاقتي المدمرة بحلمي المؤرق ذاك.

لم أفهم سبب طلبه المُضمر بأن أروي ما يحدث في مناماتي للآخرين، أو أن أرويه هو حُلمًا لم يتوقف عن إزعاجي لأزعج الآخرين بروايته لهم. لكنني بعد حبسه استرحت من تلك الطلبات المزعجة، وحسبت أنني تخلصت منه إلى الأبد.

بيد أن الأيام ستثبتُ لي خطأ اعتقادي ذاك، لأنني لم أسترح رغم نجاحي الساحر الباهر. فقد شعرت بعد فترة من الزمن أن فكرة حبس حلمي في علبة فضية أضحت تؤرقني، هي الأخرى، كما أرقني بقاؤه طليقًا يأوي إلى رأسي متى شاء في أية ليلة. صحيح أنني تخلصت منه ومن ألاعيبه وبهلوانياته الهذيانية التي لم تعطني الفرصة والصفاء اللازمين لترتيب حياتي، بعد التقاعد، كما كنت أخطط، لكن اللعنة أصابتني من جديد وصرت أعاني صداعًا وأرقًا من نوع آخر: إحساسي البغيض؛ كلما تركته في عُلبته وخرجت من البيت بأنني، في نهاية المطاف، لا أختلف عن أي سجان. وهو إحساس قاتل لم يلبث أن أصابني بالرعب والخوف من نفسي هذه المرة، لا عليها.

ونتيجة لذلك عادت إليَّ حالة اللاتوازن والقلق والتوتر رغم

نجاح مسعاي في التخلص من تأثيرات سيطرته عليّ، لأنني لم أستطع السيطرة على نفسي، هذه المرَّة، رغم محاولات انشغالي بقراءة روايات غرامية جديدة، لكنني كنت دائمًا أفتقد إلى التركيز بمجرد التفكير في العلبة الفضية وحلمي الحبيس فيها.

كانت حالتي تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وكنت دائم التفكير في مهرب من المأزق الجديد الذي وضعت نفسي فيه. كان عليًّ التوقف قطعيًّا عن شرب القهوة التي ضاعفت أرقي، وفكَّرتُ في الاستعاضة عنها بالشاي، كما أسلفت. نعم. ذات الشاي السيلاني الذي كان يشربه بطل الرَّاوي الذي حرَّف وقائع حياتي بعد دمجها بوقائع حياة بطله الجيولوجي المزيَّف.

هذه هي الحقيقة، وليس ما لفَّقه الرَّاوي ببراعة ما زلت أحسده عليها. فأنا لم أتجول مع حلمي داخل لاوعيي لأحبسه -واعيًا أو غير واعٍ- بين مستحاثات العصور المُعشِشة في دماغ بطله، بل حبسته في علبة فضية أهدتنيها العمَّة المنسية. لكنني لم أسترح لفكرة السَّجان التي استحوذت علي فيما بعد، وأضحت هي من يقوم بدور حلمي الغريب. حلمي الذي عليَّ استئناسه ذات يوم ليصبح أثيرًا كحلم بطل الرَّاوي، إن كان لا بد من الاستفادة مما رواه. وللأسف لم أجد وسيلة تسمح لي بذلك: أي حبسه واستئناسه والتقرب منه ليصبح أثيرًا بالفعل.

كانت معضلة، وكان لا بد من حلها بطريقة أو بأخرى حتى لا أضطر للاضطجاع على أريكة محلل نفسي، كما فعل بطله. ولحسن الحظ، لحسن تربية عمَّتي -على قِصر أيامها- حين روضتني على الصبر وعدم التسرع، لأهتدي ذات صباح رقراق

ورائق كلؤلؤة انشق عنها فنجان شاي هداني إلى ما لم أفكر فيه من قبل:

فكرة السفر بعيدًا عن حلمي الحبيس إلى جزيرة نائية؛ علّها تنسيني أرق فكرة السجين والسجان.

بيد أنني لم أجرؤ على تنفيذ الفكرة خوفًا من ازدياد حالتي سوءًا.

هكذا عدت للدوران من جديد في حلقتي المفرغة، كأنني لم أنجز إنجازًا باهرًا بتخلصي منه. حتى، حتى حلّت ليلة لم تكن شبيهة بالليالي المعتادة. ليلة لم أقترب فيها من مشارف النهاية، ولم أتثاءب للمرة الثالثة خلال الصفحات، بينما كنت أسدل الستارة وأمضي نحو المطبخ لأقطف كوبًا ثقيلاً من شجرة الشاي المرسومة في علبة سيلانية (لم تُزوَّق، طبعًا، بإتقان رسام من القرن التاسع عشر)، كي يعينني شايُها الثقيل على استكمال قراءة آخر رواياتي الغرامية.

لا، لا، لا. بل إشراقة نورانية هبطت من السماء.

إشراقة كانت أفضل بكثير من فكرة السفر التي خذلتها وخذلتني. إشراقة سمعتها أذناي ورأتها عيناي. إشراقة خاطفة لم تكن في حسباني: هكذا فتحتُ صندوق العمَّة بمفاتيحه الثلاثة. مفاتيحه الصَّدئة الثلاثة التي احتفظتُ بها في خزانة الودائع في البنك الذي كنت أعمل به قبل تقاعدي!

سألتُ نفسي بمجرد انزياح تلك الإشراقة عن دلالتها المضمرة، عن مضمونها المجهول، وعما يُراد لي أن أقوم به. إذ يبدو، كما يبدو، أن وراء الأكمة ما وراءها. نعم. وراءها ما وراءها. عليَّ العودة لتقليب محتويات صندوق العمَّة من جديد، فربما كان هناك بين محتوياته ما لم أنتبه له.

هل هي إشارة غامضة تلاحقني بها العمَّة؟ . .

لا أدري، لكن عليَّ الإيمان بما توحيه إليّ من بعيد، إن كان وحيُ الإشراقة صادرًا منها وعنها.

* * *

كانت صبيحة عطلة، ولم يكن ممكنًا استعادة مفاتيح الصندوق من خزانة الودائع. كان عليَّ الانتظار، والانتظار يعني المزيد من التوجُّس لما قد تؤول إليه محاولة فتح الصندوق.

في اليوم التالي ركبت سيارتي المازيراتي البرتقالية وهرعت إلى البنك.

أوقفتها في موقف سيارة المدير الجديد المُسافر في مهمة عمل، كما أخبرني حارس المواقف الذي لم ينس كرمي معه قبل تقاعدي.

قمتُ بكافة إجراءات التحقق من الشخصية، وأخرجت المفاتيح الأثرية من خزانة الودائع، وعزمت في الليلة نفسها على فتح الصندوق، رغم تخوفي الكامن منه ومن محتوياته وأقفاله الثلاثة الصَّدئة، لأحاول نبش محتوياته وتقليب رقاه، التي لم أتمكن من قراءتها كاملة حين كنت في القرية، بسبب تركيزي، آنذاك، على ما له علاقة مباشرة بمشروع السيطرة على حلمي فقط.

لم يكن الأمر سهلاً، فقد أحسست برهبة وخشية من استسهال فتحه، لا سيما أن العمَّة حذرتني من فتحه دونما داع أو مبرر. لكنني تجاوزت رهبتي وخشيتي منه بذريعة حيازتي سببًا مُضافًا يدفعني لمحاولة فتحه.

هكذا أشعلت النار بعود ثقاب ووضعت الإبريق لغلي الماء في الموقد؛ لأعود بكوب من الشاي وشمعة أشعلتها مباشرة من لهب الموقد ذاهبًا إلى الغرفة التي خبأت فيها الصندوق، متذكرًا لعنات العمَّة للكهرباء، مفسرًا الأمر على طريقتي، هذه المرَّة، بسبب اعتقادي أن فتح الصندوق على ضوء مصباح كهربائي قد ينطوي على مخاطرة كبيرة.

كان الظلام دامسًا، لولا أن الشمعة أشاعت ضوءًا خافتًا، ضوءًا راقص أشباح ظِلال الأشياء.

بعد أن جلست على الأرض ارتشفت جرعة من الشاي. فقد تكهنتُ أن السِّر مُذابٌ في الشاي، لكن الشاي السيلاني الذي أشربه من النوع العادي، وليس من تلك الأنواع المحفوظة في عُلب معدنية تأنَّى رسام من القرن التاسع عشر في رسم شجيرات شايها المُميزة وتزويقها.

هل سأحظى بما حظي به بطل الرَّاوي من أعاجيب أعادت ذاكرته إلى الوراء؟

لا أعرف، لكنني ارتشفت جرعةً أخرى من الشاي، وتوكلتُ على العلي القدير، وأخرجت المفاتيح الثلاثة من جيبي لأدخلها بهدوء، واحدًا إثر الآخر، في أقفالها الثلاثة.

أدرتها واحدًا إثر آخر. . .

تـك تـك تـك

ارتشفت جرعة ثالثة من كوب الشاي، وانفتح صندوق الإرث العائلي.

وقبل المُغامرة بلمس محتوياته من أضابير مصفرَّة مُغبرَّة، تراقصت فجأة، أمام عيني قصاصة ورقية مستطيلة الشكل لترتفع في الهواء دون بلوغها سقف الغرفة، هابطةً في حركة لولبية بطيئة، كأنها توحي لي إيحاءً خفيًّا لألتقطها بكلتا يديّ. أمسكتها برِقَّةٍ بالغة، ذكرتني بطريقة إمساكي لورقة المائة دولار الثمينة.

قرَّبتها واقتربت من الشمعة، محاولاً قراءة ما كان مكتوبًا فيها.

كانت جملة واحدة، جملة كُتبت بخط صغير، جملة واحدة تتكرر. قرأتها على ضوء الشمعة صامتًا عدة مرات، دون تحريك شفتيّ، ولم يحدث شيء مما كنت أتوقع حدوثه. داهمني شعور بالخسارة واللاجدوى، لأنها مجرد قصاصة ورقية مستطيلة كتب عليها، بخط صغير، جملة واحدة فقط. جملة تتكرر من أول سطر إلى آخر سطر أمكن لكاتبها أن يحشره بريشة قلمه في تلك القصاصة التي بحجم راحة اليد.

قصاصة أعلنت نفسها فجأة بجملتها اللغز. قصاصة لم أرها، ولم أنتبه لها، رغم تقليبي عدة مرات لمحتويات الصندوق حين كنت بمعية العمَّة، لكنني تيقنت أن وراء جملتها اللغز سرًّا عليّ اكتشافه مهما كان الثمن.

أغلقت الصندوق وأعدته إلى مكانه.

عدت إلى المجلس بكوب الشاي. وضعته على الطاولة أمام أريكة القراءة، لأسأل نفسي عن سبب تراقص تلك القصاصة، كأن دخان مصباح علاء الدِّين هو من كان يرفعها حتى كادت تبلغ السقف، أمام عينيّ دون التوصل إلى جواب شاف.

أعدت قراءتها محاولاً فهمها لكن ما كتب فيها بدا عبارة غامضة، لم تُحدث تأثيرًا سحريًّا كما توقعت.

لم أستسلم وحاولت فكَّ رموزها بعد أن قرأتها مرارًا وتكرارًا محاولاً فهم الجملة التي بدت سحرية، ولكنها دون دخان يتحول إلى مارد، وبالطبع دون مفعول سحري، رغم يقيني بعد نجاحي الباهر في السيطرة على حُلمي، أن محتويات صندوق العمَّة سحرية حقًا، وأن هذه القصاصة ما تراءت لي عبثًا تلك الليلة دون سواها، رغم بحثي وتقليبي المستمرين لمحتويات الصندوق الذي آمنت بأعاجيبه منذ نجاحي في السيطرة على حلمي وحبسه في العلبة الفضية الصغيرة التي أهدتنيها العمَّة.

كررت المحاولة وقرأتها بصوت مسموع، مُحركًا لساني متنغمًا بها كما يفعل قراء النصوص المقدسة، ولكن دونما فائدة. إذ لم يحدث شيء مما توقعت حدوثه. تمعَّنت من جديد في القصاصة المهترئة محاولاً فهم مُحتوى الرسالة السرية المخبأة بين سطورها: مفتاحُ الحق قفلٌ باطل - قلها مرة واحدة.

مفتاح الحق قفل باطل - قلها مرة واحدة مفتاح الحق قفل باطل - قلها مرتين
مفتاح الحق قفل باطل - قلها ثلاث مرات مفتاح الحق قفل باطل - قلها أربع مرات
مفتاح الحق قفل باطل - قلها خمس مرات مفتاح الحق قفل باطل - قلها ست مرات
مفتاح الحق قفل باطل - قلها سبع مرات مفتاح الحق - واحد وسبعون

مفتاحُ الحق قفلٌ باطل - قلها مرّتين. أي قلها مرة واحدة، ثم قلها مرتين. مفتاحُ الحق قفلٌ باطل - قلها ثلاث مرات، ثم قلها أربع مرات وهكذا دواليك. وفجأة لمع الشاهد الخفيُّ، فجأة لمع وتوقد في ذهني، لدرجة أنني شعرت بحرارته، حين تكشفت لي الرِّسالة المُضمرة في كلمات القصاصة.

يا إلهي، يا إلهي الذي في السماوات! كانت الرسالة المُشفرة ساطعة كشمس الضحى أمام عيني، لكنني لم أكن قادرًا على ملاحظتها لشدة سُطوعها الذي استغلق عليّ لبساطة الترميز الذي وقعت، بدايةً، في فخه.

تقوقعتُ في قوقعة التعقيد، بينما كان عليّ الانبساط على بساط البساطة، بساطة الرسالة التي أشرقت ولمعت في ذهني عندما أدركتُ أنها ترشدني بوضوح لا غبار عليه لقول الجملة، الجملة نفسها تكرارًا وفق التعليمات اللاحقة لها؛ أي قول الجُملة الأولى مرة واحدة، والثانية مرتين، والثالثة ثلاث مرات... إلخ، مع الاحتراس من الفخ الذي حَشرَتْهُ ريشة كاتبها؛ تكرار **مفتاح الحق** (دون قفل باطل) سبعين مرَّة ومرَّة واحدة:

71 + 7 + 6 + 5 + 4 + 3 + 2 + 1

هذا معناه، وبعملية حسابية بسيطة يجيدها صيرفيٌّ ألمعيٌّ مثلي، أن عليّ قراءتها 99 مرة.

يالسذاجتي. يا لخسارة العمر الذي بددته هباء بين أرقام الحسابات والودائع. الجملة سحرية! الجملة سحرية بالفعل! وذات مفعول ساحر، تمامًا كجُملة علاء الدين، وإلاّ ما كان حاصلُ جمع 1 + 2 + 3 + 4 + 5 + 6 + 7 = 28 بمجرد إضافة أول وآخر رقم في تلك المتوالية العددية؛ أي 71، لتكون نتيجة الجمع النهائي رقم ربَّاني ساحر: 99

يا لكنزي الثمين.

يا إلهي الذي في السماوات.

يا لأمثولات العمَّة الرائعة وسُنن صندوقها الأروع من كل صناديق ودائع بنوكنا المحلية والبنوك السويسريَّة وبنوك جزيرة كيمَنْ المُعفاة من الضرائب. عمَّتي الألطف من كل عمّات الآخرين، من وُلدوا منهم ومن سيولدون، عمَّتي الساحرة بصمتها الطويل، عمَّتي التي أهملتها ولم أفكر طوال تلك السنين حتى بمساعدتها بمبلغ مالي ضئيل أقتطعه من راتبي الذي تضخم في السنوات الأخيرة، وصرت لا أعرف حتى كيف أنفقه.

لن أستطرد في محاولة شرح فرحي العارم؛ فمن الصعب حتى على صلعتي اللامعة نقل الإحساس بذلك الفرح إلى كلمات قادرة على وصفه، بيد أنني تمالكت نفسي وأعدت التفكير في اكتشافي الهائل، مُثمنًا، من جديد، وصايا العمَّة قبل التهور في حماقة ما لا تحسب عواقبه:

ضرورة الطهارة البدنية قبل الشروع في طقس سحري. فالجملة رغم بساطتها تتطلب بالتأكيد طقسًا خاصًا واستعدادًا نفسيًا وإيمانًا بها وبشعاع نورها المُخبأ بين السُّطور، لذلك أجَّلت قراءتها الطقوسية حتى ليلة اكتمال القمر، رغم أن التعليمات لم تشر إلى ذلك بوضوح، لكنني تعلمت من العمَّة طقوس قراءة الرّقى. وهذا معناه أن عليّ الانتظار ست ليال بحذافيرها، بعد أن عدت لتوقيت الشهر القمري المكتوب في صحيفة اليوم التي اشتريتها صباحًا في طريقي لإحضار المفاتيح الثلاثة من قسم الودائع، وتأكَّدتُ بعد أن قرأت التاريخ الهجري المكتوب على الصحيفة من أن اكتمال القمر

سيحدث في الليلة السابعة ابتداء من ليلة طيران القصاصة السحرية على ضوء شمعة بعد أن شربت جرعة من شاي مُرّ، شاي نسيت، في لحظات ارتباكي، تحليتهُ بملعقة من العسل.

* * *

ابتداء من هنا ستلاحظون كيف ستغيِّرني القصاصة السِّحرية.

وابتداء من هنا ستصدقون حكايتي الحقيقية، حكايتي الصادقة أكثر من رواية من روى الفصل الأول بأكاذيبه عن بطله الذي لم يجد حتى الوقت ليُسمِّيه، كما تُسمى الشخصيات الروائيَّة، أو ليدعوه باسم مُناسب، عدا لقب دكترَةٍ سخيف لم يرتح حتى بطله لمناداته به.

نعم، في هذا الفصل ستتعرفون إليَّ، على طبيعتي وسجيتي، ولن ينسى أحدكم اسم الصيرفيّ الأصلع. الصيرفيّ الذي عندما قرَّر كتابة تجربته أجاد حرفته الجديدة بعد صفحات قليلة، برغم أن الكتابة أصلاً ليست مهنته، ولم يكن يقرأ طوال حياته سوى روايات غرامية مُسلية ولذيذة.

أعرف أنني سأدهشكم بحكايتي، لكن عليَّ قبل استرسالكم في القراءة أن أعيد الفضل لمن يستحقه: الرَّاوية الذي أرسل لي خطأ بريده المُحتوي على فصله المقتبس ببراعة من حياتي الحقيقية وحياة بطله الوهمية. عليَّ أن أعترف، فلولاه ما تغيرت حياتي وما كنت لأفكر بزيارة عمَّتي المنسية، فيما حسبته جهلاً، ظلماتِ قريتها النائية التي تعيش على قناديل الكاز. فبفضله وبفضل عمَّتي استنرتُ، وعرفت طرقًا للحياة لم أعرفها من قبل. إنَّ لقية الصندوق وكنز محتوياته الثمين غيَّرني وسيغيِّرني أكثر فأكثر حين تتابعون معي الرِّحلة حتى النهاية.

سأصارحكم، وأصارحكم، وأصارحكم.

لم أصدق كيف أطوي الليالي السِّت انتظاراً لليلة الموعودة، الليلة السابعة، ليلة النطق الطقوسي بالجُملة السِّحرية 99 مرة، بصوت مسموع في حديقة وضاءة بضوء قمر تصَّاعد إليه روائح لُبان محروق، بعد قيامي بكافة الطقوس المرافقة، اغتسالاً وطهارة ولباسًا أبيض غير مخيط.

سأصارحكم، وأصارحكم. لم أصدق كيف أطوي تلك الليالي السِّت، كما أنني لم أنتبه للتغيرات النفسية التي طرأت عليّ في مرحلة التهيؤ، كمن مسَّهُ السِّحر.

لم أنتبه، ولم أشعر بالجناحين السِّحريين ينبتان تحت إبطيَّ تجسيدًا فسيولوجيًا لأفكاري المحلقة في سماء تلك الجملة السحرية. الجملة التي سأدللها ليلة اكتمال القمر دون سواها من الحروف والكلمات والجُمل والأسطر والصفحات التي لا تستطيع في سائر التراكيب اللغوية المستعصية والمُحتملة والممكنة تكوين جملة سحرية شبيهة لها. كرضيع فردوسيٍّ أنجبته الطبقة النورانية من سلالات الملائكة سأدلِّلها تلك الجملة السحرية بعد فكِّ مغاليقها. وهي بدورها ستدلِّلني كما لم تدلِّل أحدًا من قبل. وبالتأكيد، بالتأكيد ستمكنني من تحقيق أحلامي وأمنياتي بالسَّفر والرحيل ونسيان وظيفتي القديمة وحياتي التافهة بين أرقام متخمة بحسابات الأغبياء، فضلًا عن مزيَّة تيسيرها لمهمة تخلصي إلى الأبد من حلمي السجين وإحساسي تجاهه بالذنب، لأنني رغمًا عني صرت سجانه الأبدي.

وما أدراني، ما أدراني عن الاحتمالات اللانهائية لجنون الخلاص الفردي والحُرية والثروة الإضافية التي سأمتلكها بعد أن

تهبني كافة مكنوناتها وطاقاتها الخارقة. ما أدراني، وما أدراني عما سيؤول إليه حالي مصيرًا ساحرًا تقودني إليه كما تشاء تصاعدًا به إلى ما أشاء. وما أدراني، ما أدرى هذياني بحقيقته من استيهامه، حين أجد نفسي غدًا، غدًا وليس بعد غد، أنني من اختارته عناية القصاصة وجملتها السحرية، دون سواه من الناس، ليحقق ما لم يحققه في حياته.

ولحسن الحظ، لن أبدأ هذه المرة من الصِّفر، كما بدأت حياتي من صِفر الأصفار اللاحق لكل رقم لاحق، بل سأتجاوز تلك الخطوات الثقيلة على النفس والعمر القصير. نعم سأتجاوزها بخطوة حاسمة غدًا، بعد ليلة طقوس قراءة الجملة السحرية، وليس بعد غد، أحبو فيه ابتداء من صفر الأصفار ذاك، بل من الرقم 99 عبورًا به عتبة المئة، فالمئات والآلاف ومئات الآلاف والملايين والمليارات. غدًا، غدًا وليس بعد غد عندما أصحو من النوم في ثوبي الأبيض غير المخيط، بعد ليلة الطقوس التي سيحين ميقاتها في الغد بحول الله.

غدًا عندما أدندن، بعد نجاحي في الليلة الطقوسية، بأغنياتي المفضلة وأحلق ذقني وأعد الشاي المُحلى بالعسل، لأشربه كأنني أشرب أكوابًا كبيرة من إكسير السَّعادة اللامتناهية، قبل أن أتزيّا بأفخر ملابسي المخيطة، وأتعطر بأفضل عطوري استعدادًا للخروج من المنزل، ليس إلى اجتماع مجلس إدارة البنك السخيف، أو لزيارة أحد العملاء الأثرياء لإقناعه بافتتاح حساب ذي مزايا خاصة برجال الأعمال، لن يجدها -كما كنت أوهِمُه- في البنوك الأخرى، وليس إلى معالج نفسي أخرق يبتز نقودي -كما ادعى الرَّاوي، سامحه الله-؛ وإنما إلى أكبر مراكز بيع تذاكر السفر في المدينة

لأشتري بكل ثقة افتقدتها فيما مضى تذكرة سفر.

نعم. تذكرة سفر، ليس في الدرجة السياحية ولا في درجة رجال الأعمال، بل في الدرجة الأولى. وغدًا، غدًا واثق الخطوة سأدخل عليه (كأنني مَلِكٌ مُتوَّج) ذلك الوغد الجالس في مكتب استصدار تذاكر السفر. غدًا وليس بعد غد، حين سيطلب مني موظف استصدار تذاكر السفر السياحية المعتادة الجلوس إلى طاولته سأتردد بأنفة؛ طالبًا مقابلة مدير المكتب شخصيًّا. وبدوره حين يرى هيئتي ووثوق خطوتي الملكيَّة ويشم رائحة دهن العود الكمبوديِّ الثمين؛ لن يتردد في الاتصال بمديره، لتطلب مني بعد أقل من خمس دقائق زميلته الحسناء مرافقتها إلى مكتب المدير الذي يعرفني حق المعرفة بسبب تعاملات مكتبهم البنكية معنا، حين كنت مديرًا نافِذًا قبل تقاعدي.

ستفرحه ذلك المُدير الرَّث زيارتي، وسيسألني عن أحوالي.

سأقول له باقتضاب:

- في أفضل حال.

سأفتعل الوقار اللازم وسأصمت حتى قبل أن يدعوني إلى كوب عصير طازج احترامًا لمقامي السَّابق، وبالطبع لن أخبره عن سبب مجيئي. لكنه لن ينتظر وصول كوب العصير، وسيبادر هو إلى سؤالي:

- إلى أين قرَّرت السفر؟.. شرقًا أم غربًا؟

- ليس إلى وجهة محددة، لكنني أريد تذكرة مفتوحة للتجول حول العالم.

- درجة سياحية؟.. أم تفضل درجة رجال الأعمال، فلدينا تخفيضات هذه الأيام.

- لا . لا ، مللت من السياحية ودرجة رجال الأعمال، أفضل الدرجة الأولى.

سيندهش طبعًا، وسأستمتع بتأمل دهشة شاشةِ وجهه المشوبة بحسد واضح.

لكن ما لن يعرفه مدير مكتب المبيعات، بعد أن يُصدِر لي تلك التذكرة الخاصة، تلك التذكرة المفتوحة للسفر على أي شركة طيران هو أنني سأمتلك، أوتوماتيكيًّا، وبترحيب مُبالغ فيه من بنك HSBC بطاقات ڤيزا وماستركارد. (ومن يدري؟. . ربما واحدة نحاسية قد أجبرهم على تدشينها بحجة المُساواة بين المعادن)، ناهيك عن الشيكات السياحية الممهورة بصورة الرَّحالة، طيِّب الذكر، توماس كوك لأسافر بعيدًا في الآفاق، حيث لن يهتدي إليَّ حلمي الأثير ولن أهتدي إلى أرقي وتعبي وقرفي منه طليقًا كما كان، أو حبيسًا في علبته الفضية.

عصفوران بحجر واحد: صندوق سحريٌّ منسيٌّ، وعلبة فضية ساحرة.

لا. لا. ثلاثة عصافير بحجر واحد: رقية سحرية فككتُ شيفرتها وأراحتني من المعضلتين: ترك حلمي طليقًا، أو تركه حبيسًا في علبته الفضية.

لا. لا. أربعة عصافير بحجر واحد: تخلصي منه إلى الأبد.

ثم السفر. الثروة. بطاقات الاعتماد والشيكات السياحية.

يا إلهي، يا إلهي الذي في السماوات. عفوًا إلهي، عفوًا. أقصد يا قصاصتي، يا قصاصتي ببساطها السِّحري (يبدو أنني أخطئ المَقاصِد). أقصد يا قصاصتي بجملتها السحرية. ويا، يا عصافيري التي لا عد لها في شجرة عمَّتي الوارفة. يا إلهي، مرة أخرى. لا

تزعل مني، لا تزعل، برغم حنقي لأنك جعلتني أقضي نصف حياتي مُحاسبًا تافهًا يعدُّ نقود الآخرين، ولا يحصل مقابل ذلك إلاّ على النزر اليسير آخر الشهر. صحيح أنني رُقِّيت وتدرجت لأعلى المناصب، لكن ذلك تطلب مني عبور مفازة عمر بأكمله حتى اختفت من رأسي قبل خمس سنوات آخر شعرة فيه، لكنك كنت كريمًا معي هذه المرة، كريمًا إلى أبعد الحدود، حين عوضتني بصلعة لامعة رائعة. صلعة اضطررت للتباهي بها أمام الزملاء، والتلميح إلى مزاياها حين ابتدأوا في التهكُّم مني ومنها. صلعتي الرائعة التي استطعت تحويلها من موضوع تهكُّم -بعد أن صرت مديرًا عامًّا لقسم الحسابات في الفرع الرئيس- لتصير واجهة عريضة لوجاهتي، اضطر الموظفون الصغار لاحترامها، بل وتقبيلها في بعض المُناسبات.

عصفوران بحجر واحد، ثلاثة عصافير، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، تسعة عشر، ثمانية وعشرون، تسعة وتسعون عصفورًا. لا. لا. 99 رحلة حول العالم. سأضرب الرقم القياسي.

لا. لا. لا يهم عددها، ولا يهم إن كانت عصافير أو طائرات ترحل بي إلى حيث أشاء. المهم أنني سأعنونها في كتابي الآتي: مائة رحلة ورحلة حول العالم. لا. لا. سأعنونها 101 رحلة ورحلة حول العالم. هكذا أفضل، عرفانًا مني كصيرفيّ عتيد بفضل الأرقام وتأثيرها السَّاحر، دائمًا وأبدًا، على مجرى حياتي.

يا إلهي الذي في السماوات

يا إلهي الذي جعلني طائرًا مُحلقًا.

يا إلهي الذي لم يرشدني إلى التحلي بالحكمة في غمرة جنوني الخاطف.

يا إلهي، يا إلهي...
أرشدني لفعل الصواب.
عليّ ألاّ أتصرف كمُحدث نعمة، فتلك نقمة في حد ذاتها.

نعم، عليّ أن أكون حريصًا كما ينبغي أن يكون الحرصُ على الحرص، وحكيمًا كما ينبغي أن تكون الحكمة حكيمة، ورزينًا كما ينبغي للرزانة أن تكون في شعرة ميزان الوزّان. لن أسافر وحيدًا إلى مدينة معروفة، لا في الشرق ولا في الغرب. عليّ أن أكون مستقلاً بطرائق تفكيري، كما كنت دائمًا، وأن لا أفكر في الوجهات السياحية المقصودة من قبل الجميع: لا سفاري كينيا ولا نفائس البحر الأحمر، لا سواحل الكاريبي ولا عجائب الهند، لا السلفادور ولا القفز بأرجل كنغر أجرب في سهوب أستراليا. لا تمثال الحُرية الجريح ولا برج پيزا المائل بدقات الزمن المضبوطة في ساعة بيغ بن. لن أتهاون لأكون ذاك الأحمق الذي يسافر إلى وجهة مقصودة تعزف على محاسنها ومفاتنها شركات الترويج السياحي، التي طالما تبارت لإرسالها إلى مكتبي طمعًا في رحلة أقوم بها، لولا أن وقتي حينها لم يكن يسمح لي بنعيم الترحال، برغم تذاكرهم المجانية.

سأسافر حرًّا وطليقًا كما لم أكن.
وحدي، وحدي سأسافر.

لا، لن أسافر وحيدًا. سأصطحب أصدقائي القدامى، أصدقائي الذين انشغلت عنهم أكثر مما يجب. هذا ما سأفعله. هذا ما عليَّ فعله. سأتصل بهم واحدًا واحدًا لأفاجئهم بمشروعي الجديد: اصطحابهم إلى جزيرة نائية في أحد المحيطات.

وكالعادة، كالعادة سيقولون لي: ولكننا مفلسون، وعلى غير العادة سأقول لهم: الرِّحلة على حسابي، وستكون وجهتنا جزيرة لا يعرف بوجودها أحد في أحد المحيطات. جزيرة لا تحيط بها سوى الزرقة وزرقاء المسافة ويمامتها. سيفرحون كثيرًا، وسيتقاطرون إلى مديريهم طلبًا لإجازات طويلة. وحين يرفضون إعطاءهم إجازات طويلة، سأقول لهم ببساطة: استقيلوا من وظائفكم! أو غيبوا دون عذر عن الدوام الرسمي. سأتكفل بحياتكم وعائلاتكم طوال المائة سنة القادمة. هل ستعيشون مائة سنة؟.. سيطلبون ضمانات، وبدوري سأمنحهم تلك الضمانات: 10% من المليون دولار التي سأخصصها لكل واحد منهم. سيفرحون بها حين يُمحِّصونها رقمًا دسمًا لا شبهة حوله في حساباتهم التي سيتفحصونها بمجرد إضافتي ضمان الـ 10% الذي سيُسيل لُعاب حساباتهم البنكيَّة قبل إسالته للُعاب أفواههم.

ولن يخذلونني بالطبع. لن يقدموا استقالاتهم الجماعية حتى، لأنهم سيغيبون عن وظائفهم دون عذر إرضاء لنزواتي الواضحة، ونزواتهم الكامنة.

لكن، لِمَ أصطحبهم إلى جزيرة نائية؟

لم لا أشتري واحدة جديدة بكرتونة حدودها البحرية المعترف بها دوليًا؟ لم لا أشتري واحدة بفيض النقود التي ستنهال عليّ بتأثير جملتي السحرية، ببطاقات التسليف، بالشيكات السياحية، شيكات صديقي طيِّب الذكر الرحالة توماس كوك؟.. تلك التي سأسحبها من أرصدتي التي ستتضخم مع فوائدها في أعرق البنوك.

ومن يدري؟ من يدري؟.. ربما أحبَّني السكان الأصليون في الجزيرة التي سأشتريها. ومن يدري؟ ربما تدور الأيام لأصير ملكًا متوجًا على جزيرتي بفضل جُملتي التي تمتاز عن أي تاج ملكي بأنها ليست قابلة للسَّرقة. نعم، سأفعل تمامًا ما يفعله الأثرياء التافهون. أولئك الذين كنت أقرأ أخبارهم في المجلات والصحف وأعرف مكامن أرصدتهم البنكية، دون أن تتاح لي تجربة سحر الحياة التي لا يمنحوننا منها سوى صُورهم الملونة في الحفلات مع الممثلات الفاتنات. سأصير ثريًّا مثلهم، لكنني سأكون أفضل منهم بسبب معارفي الجديدة وتجاربي السابقة، وقراءتي للرِّوايات الغرامية التي لا تُملّ. ومثلهم سآتي بالحسناوات وسأشرب أفخر المشروبات التي سمعت بها والتي لم أسمع بها. ولن أنسى تفنُّني في تحضير وجبات الطعام التي اشتهرت بها في الحفلات البسيطة التي كنت أقيمها لأصدقائي بين فترة وأخرى.

لا. لا. لن أحضر الطعام بنفسي. ألم أصبح ملكًا متوَّجا على جزيرتي؟

لِمَ أحضِّر الطعام بنفسي؟ تلك حماقة من حماقات مُحدثي النِّعم من صغار الصَّيارفة. لم العودة إلى الشقاء؟ سأوظف طهاة مَهَرة وذواقة ليتذوقوا كل وليمة قبل أن أتذوقها بنفسي. ألا يفعل الملوك ذلك خوفًا من السُّم؟.. ما أدراني بطويّة بعض أصدقائي الذين قررت اصطحابهم معي؟ ربما كانوا يُظهرون خلاف ما يُبطنون، أولئك الأصدقاء القدامى. تلك سُنة الحياة. عليَّ ألاّ أنسى كلمات العمَّة، فتلك سُنة الحياة. وعليّ الاحتراس من سُننها. عليّ التفكر دائمًا وأبدًا بنصائح العمَّة، وعليّ قبل ذلك أن أرسل إليها تعويضًا ماليًّا كبيرًا لتعيش سنواتها الأخيرة في رخاء عميم.

نعم. إنهم يظهرون خلاف ما يبطنون، أولئك الأصدقاء. فربما فكر أكثرهم إخلاصًا -حتى قبل وعدي له بتولي منصب وزير المالية- في محاولة اغتيالي مسمومًا ليستفيد من الامتيازات التي سيتمتع بها دون سواه حين يغتصب عرش جزيرتي. لا بد من يقظة واحتراس، عليّ ألاّ أطمئن إلى أصدقائي مهما بالغوا في توقيرهم الكاذب. لذلك من المفيد دراسة مشروع إنشاء وحدة خاصة، مُتفرعة من جهاز مخابراتي، مهمتها تزويدي بكافة تحركاتهم وسكناتهم وتسجيل مكالماتهم الهاتفية. السكان الأصليون في جزيرتي طيبون ومسالمون وفرحون باستلامي زمام الحكم، وبطبيعة الحال لن يفكروا باغتيالي، لأنني مليكهم المفدى، مليكهم الذي ستتناهى إلى أسوار قصره هتافاتهم في أكثر من ذكرى وذكرى: الذكرى الأولى والثانية والثالثة والعاشرة والأبدية، لاعتلائي سُدَّة عرش الجزيرة. ومكافأة لهم، وحماية لنفسي ستكون عناصر جهازي الأمن والمخابرات وحتى الحرس الخاص، فقط، من السُّكان الأصليين، المضمون ولاؤهم بنفحات روحيَّة، وهبات مالية سنوية تهطل عليهم في مواسم الأمطار، وهي كثيرة هناك، وبالكاد تتوقف.

سأصير ملِكًا إذن، ملكًا مُتوَّجا سأصير بفضل الجملة السحرية.

ساعتها سيكون من البديهي أن تحفَّني وتحيط بي رعية صغيرة. وهذا معناه، ضرورة، إعداد جهاز للشرطة وجيش قوي ضباطه وجنوده، مثل رجال الشرطة، من السكان الأصليين. لا. لا. عليَّ التواضع قليلاً: جزيرتي أو إمارتي الصغيرة. فلأكُن أميرًا في طريقه ليصبح ملكًا بالتقادم العرَضي. لأن البعض من أصدقائي المنافقين، في حفلة تتويجي ملكًا، لن يترددوا في إيهامي أنها ليست مملكتي

فحسب، بل هي الجنة بحذافير أوصافها التي وردت في الكتب المقدسة.

لم لا ينافقونني قليلًا؟ لم لا تكون جنتي؟ وكلّ صفات الخلود التي أشارت إليها الكتب المقدسة موجودة فيها؟..

لا. لا. فردوسي. فردوسي تعبير أفضل من جنتي (عليّ أن أكون دقيقًا في اختيار تعابيري)، كما يفعل الملوك دائمًا، وفق قواعد خاصة بهم لا يعرفها الرُّعاع من رعيتي: «كلام الملوك ملوكُ الكلام»، عليّ أن أكون دقيقًا في كل كلمة أتفوه بها، لأنني سأكون مُحاسبًا عليها من الرَّعية، فكلُّكُم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، مع تحوير بسيط للحديث الشريف، وتأويل مناسب ستتكفل به الشعبة الدينية في جهاز المُخابرات، ليُناسب مُعتقدات سُكان الجزيرة الأصليين وديانتهم.

وبالقليل من الخيال أستطيع مضاعفة الصِّفات، بالقليل منه فقط سأجعل وصف فردوسي -حتى في كتب جزيرتي التي لم تُقدَّس بعد- حقيقيًّا بمجرد ضغطة بسيطة على زرٍّ «جملتي اللذيذة». نعم، جملتي اللذيذة. إنها ألذ من «جملتي السِّحرية». كلّ لذيذ ساحر، كلّ ساحر لذيذ. ترالالا. ترالالا. ترالالا. لالا...

لا. لا. عليّ أن أتريث قليلًا، لذلك سأدعوها كالآتي هكذا:

«جملتي اللذيذة، جملتي التي لا تُسرَق كتيجان الملوك».

وجدتها! وجدتها!

تلك هي، تلك هي. جملة طويييلة تستعصي على من يفكر بسرقتها وانتحالها، تمامًا كبرامج الحاسوب المُحصَّنة بكلمة سر طويلة مؤلفة من حروف وأرقام تستعصي، بعشوائية ترتيبها، حتى

على أمهر القراصنة: «جملتي اللذيذة، جُملتي التي لا تسرق كتيجان الملوك».

جملتي الظاهرة للعيان مجازًا تمويهيًا لباطنها الكامن في جذور اللقية الأصل: [مفتاحُ الحق قفلٌ باطل]، ردًا لجميل العمَّة، ردًّا لجميل مفاتيح الحق، ردًا لجميل صندوق إرثنا العائلي الذي لن أفرط فيه حقًا أو باطلاً. جملتي، جملتي اللذيذة التي لا تسرق كتيجان الملوك. جملتي الملكيّة التي سأعلنها -لإثبات أنها لا تُسرق- في وسائل الإعلام، بأسلوب مختلف عما اعتادته قنوات التلفزيون حين أشيعها بين الرَّعية، لتكون شعارًا سريًا ومفضوحًا في آن، أحمي سرِّيتها بالفضح والإشاعة، دون أن يعرف الجميع أنها جملة سرية هدفها الخفي حماية سِرِّ الأسرار: الباطن الظاهر في جُملة القصاصة التي -بين ليلة وضحاها- صيَّرتني ملكًا..

ومن يدري، يا إلهي الذي في السماوات، من يدري عما سيحدث بعد أن صيَّرتني ملكًا على رقعة صغيرة من الأرض، تكفيني وتكفي رعيتي الصغيرة. من يدري عما ستتفتق عنه مخيلتي الحُرَّة في جزيرتي التي منحتني إياها مع رعاياها الذين بفضلك سيصبحون رعاياي؟.. من يدري بالقادم في قادم الأيام؟..

من يدري؟..

قد أدعو الصحفيين لزيارة جزيرتي، لتظهر الجزيرة النائية من باطنها كسِواها من البلدان ظاهرة غير خافية في خريطة المحيط. وفي مؤتمري الصحفي الأول، الذي لن يُقصِّر ضباط جهاز مخابراتي في ترتيبه، على حين غرة، سأعلن للعالم واحدةً من مُفاجآتي السياحية الجاذبة:

حدود جزيرتي مفتوحة لكم، ولا حدود للاستثمار فيها.

هكذا، سأضمن دخلاً إضافيًا لم أحسب له من قبل حسابًا،

حين يتهافت المُوسرون والأثرياء من أصقاع الأرض ليحطوا بطائراتهم النفاثة الصغيرة مطالبين بحقهم في اكتساب الجنسية الفردوسية التي ستمنحها لهم وزارة داخلية فردوسي مقابل رسم لن يكون رمزيًا في أية حال، إذ سيتعين عليهم استثمار أموالهم في جزيرتي الفردوسية وإقامة المشاريع السياحية، مؤكدًا لهم شعاري الجديد، شعاري الذي ستشيعه الصحافة:

السياحة تثري في الجُزر الفردوسية!

نعم. السِّياحة الفردوسية تُثري وتُثري، وبالطبع لن أكون من الحماقة بمكان لأفتح جزيرتي لحقائب ظهر سياح المائة دولار. سيكون تركيزنا -كما سيعلن وزير السِّياحة، مُستشهدًا بحكمة مقولاتي على سياحة النُّخبة المُختارة فقط.

ومن يدري؟.. ربما اقترح عليّ المستشارون فكرة لم تخطر على بالي من قبل: دعوة الشركات للتنقيب عن النفط. وتلك ضربة معلِّم، تستحق، هي الأخرى، مؤتمرًا آخر لن تتوانى وزارة الإعلام استباقَ جهاز مخابراتي لبثِّه من قاعة المؤتمرات عبر الأقمار الصناعية.

ونكاية بالرَّاوي، نكاية به سأشغل أجهزة الأمن القومي بالبحث عن جيولوجيِّه الذي ادَّعى استقراء طبقات الأرض، كما ادَّعى قراءة الرِّوايات الموشاة بحكايات غرامية مُملَّة ومعقدة بعقدتها المعتمدة على بيانو نمساوي ثقيل الوزن، توجب على خمسة من خدم البيت مفتولي العضلات نقله من الصالة إلى الحديقة، دونما فائدة إيروسية فورية تستثير مكامن اللذائذ في نفوس القراء.

هو، هو دون سواه من سيكون قائد فريق التنقيب عن النفط في جزيرة الفردوس الديموقراطية المُتحدة.

لا. لا. عليّ أن أكون حذرًا من التمادي في الأحلام. عليّ أن أكون حذرًا. فدعوة مفتوحة لأثرياء العالم للاستثمار المضمون لا بد أنها ستثير الفتنة والنقمة على جزيرتي الفردوسية من ولايات الجحيم المتحدة حين تزداد بؤسًا وفقرًا إذا ما استنزف اقتصادها، وتحوَّلَ كبارُ المستثمرين الأذكياء إلى جمهورية فردوسي الصغير.

لا. لا. عليّ التحلي بالفطنة، فربما اختلقتْ أسبابًا لمهاجمة جزيرتي الوادعة، تحت أكثر من حجة وذريعة، بعد إقناع مجلس الأمن بالتصويت على تدمير جزيرتي أو احتلالها، لا سيَّما إن أظهر جيولوجي الرَّاوي براعة -كما كان يدَّعي- في اكتشاف حقل نفطي كبير في حدود جزيرتي البحرية.

عليّ بالتعقل وعدم الشطط والمغالاة..

عليّ العودة وإصاخة السمع لآراء الخلَّص من المُستشارين...

والأهم من كل ذلك، عليّ التخلص من وهم خيانة أصدقائي لكرمي وبذخي نحوهم. لماذا أفكر في احتمالات اغتيالي بالسُّم وتحويل جزيرتي الفردوسية إلى طُعم سهل تستهدفه القوى الجحيمية العظمى؟.. هذا ليس في صالحي، ليس في صالحي البتة.

يبدو أنني أنسى نفسي وأبالغ أكثر مما يجب استنزافًا لكرم جُملتي، جملتي اللذيذة التي لا تسرق كتيجان الملوك. يبدو أنني أنسى نفسي بالفعل، وأستبق الأحداث. تمامًا كما أنسى هدفي الأول والأخير:

الفكاك من حصار حلمي الأثير.

الفصل الثَّالِث

لست كالآخرين، ومن الصُّعوبة بمكان اعتباري واحدًا مثلهم أو على شاكلتهم في أقل تقدير.

فأنا ببساطة متناهية حُلم كسائر الأحلام، رغم الصعوبة المنهجية لتصنيفي بموضوعية وبدقة علمية. لأنني حُلم مختلف عن الأحلام وعمَّن يحلمون بها. حُلم لا يستطيع أن ينام أو يغتسل أو يتناول إفطاره وحيدًا أو حتى مع زوجته، فتلك أشياء يقوم بها الناس العاديون، الناس الذين يحلمون ويتذكرون أحلامهم أو ينسونها كما يحدث في الغالب.

لقد انتظرت طويلاً وصبرت طويلاً، ومررت بتجربة مؤلمة قلَّ نظيرها، قياسًا لأترابي في الاسم والماهية والكينونة، مُحتمِلاً ما حدث لي على مضض، لأنني وببساطة متناهية، كنت وحدي المتسبِّب فيه. وعليّ وحدي تحمل النتائج المترتبة على سوء تقديري حين اخترتُ الأصلع، دون سواه من ملايين الناس، عيِّنة عشوائية لاختبار معايير خلاصاتي واستنتاجاتي في العلاقة بين الأحلام وحالميها.

اختباري الذي بالغتْ صرامة مقاييسه في مراعاة وجهة نظر الأحلام ذاتها، لا وجهة نظر حالميها، وتأثيرها فيهم وفق أكثر

دراسات علم النفس عُمقًا، وما لن تبخل به على الحالمين السُّذج أكداسٌ لا تُحصى من كتب تفاسير أحلام العامَّة المُبسَّطة.

كنت المُتسبِّب فيما حدث لي، وعليّ وحدي تحمل نتائج سوء تقديري للأمر منذ البداية. وأعترف أنني ضغطت على الأصلع بقسوة اختباراتي التي كنت أطمح للخروج منها بما يفيد الطرفين: الحُلم وحالمه. لكن الأصلع لم يكن عيِّنةً مطواعة ونموذجية وملائمة لاختباراتي التي أنشأتْ-خلافًا للمُؤمَّل من نتائج- علاقة ريبة وتوجس بيننا، كما تبلوَرت في بؤرة تعقيدهاعلاقة صيَّاد بطريدته.

فكما هو معلوم ومفهوم عبر الخبرات المُكتسَبة؛ في علاقات يحكمها قانون من هذا النوع، يحدث أحيانًا أن تتحول الطريدة إلى صيَّاد من الطراز الأول، والصياد إلى طريدة حبيسة لا حول لها ولا قوة في قفص لا فكاك منه. وحالة أسري في علبة فضية -على غرابتها وعدم شيوعها في الواقع، كما في أحلام الأحلام- نتيجة حتميَّة وطبيعية لمن يرضخ طائعًا لقانون على تلك الشاكلة.

لكن النتائج النهائية تكون مختلفة وفقًا لطبيعة كُلٍّ من الصياد وطريدته وأهدافهما المتبادلة. أهدافهما التي تنشأ، ضرورة، من علاقة كتلك اعتمادًا على فعالية الكمائن والأسلحة المُستخدمة لتحقيق النتائج.

لقد تريَّثتُ وانكفأتُ طويلاً في عُلبتي الفضية، وقد حان الحِين للتفكير بشيء جديد حتى أضمن سلامتي الشخصية للخروج من المأزق الذي وضعت نفسي بنفسي فيه. وهذا يعني أن عليّ قلب المعادلة الشهيرة بين الصياد وطريدته، ولتكُن الخدعة سلاحي الذي سأشهره اضطرارًا في وجه الأصلع.

الحرب خدعة، وعليّ قلب علاقة السجين بسجانه والطريدة بصيادها، أيًا كانت الوسائل التي سيتوجب عليّ استخدامها. الحربُ خدعة وفن وإبداع يتطور تباعًا. لذلك سأطوِّر مفهومها لتصير الحربُ خدعة وفنًا وحُلمًا يحلم؛ حتى أخرج سالمًا من مُعترك أتونها بأقل الخسائر، وعليه سأغيِّر استراتيجيات انتظاري الطويل في العلبة التي تمكّن الأصلع من أسري فيها بِرُقيَةٍ ما. سأغير تلك الاستراتيجيات إلى تكتيك معركة حاسم ابتداء من أول زيارة قادمة يقوم بها ليطمئن إلى وجودي في العلبة الفضية التي حبسني فيها.

أحفظ عن ظهر قلب سيناريو تضرعاته واعتذاراته وتبريراته التي دعته لحبسي في تلك العلبة. وهو يعرف ردودي الغاضبة، كما يستكنِهُ صمتي حين أقبع كالحلزون صامتًا هازئًا به وبتضرعاته التي لم يبُح بها في اعترافه الهذياني أمام قارئه المُفترض. لكنني هذه المرة سأفاجئه بما لم يعهده من بشاشة وترحيب مبالغ فيه بعودته بعد غياب طويل. وعلى غير العادة سأقول له بتملق معكوس في مرآة العلاقة:

- صباح الخير عزيزي الأصلع، صباح المسرَّات.

حتمًا ستعجبه: «عزيزي الأصلع»، كما أعجبتني تسميتهُ الأثيرة: «حُلمي الأثير»، برغم أنها -في العُمق- تُعبِّر عن إفلاس قِرد نحويٍّ؛ فهي مُنتحلة من وصف الرَّاوي لعلاقة بطله الجيولوجي بحلمه الآخر. لكنني سأتعامى عن معرفتي ببواطن الأمور، لأخاطبه مباشرة بلطف مبالغ فيه، لطف لم يعهده مني في زيارات تضرعاته السَّابقة، قائلاً:

لِمَ تكلف نفسك عناء السفر والمغامرات السيئة التي لا تليق

بك ولا بسمعتك الذهبية كصيرفيٍّ لامع؟ لم لا تبقى في البيت وتشرب قهوتك الصباحية قبل أن تفتح علبتي اطمئنانًا إليَّ كما كنت تفعل في أيامنا الخوالي؟ ما شأنك بالرّقى وبكنوزها الوهمية؟ ألا تعرف خطورة اللعب بنار الأقدمين؟

لقد وهبتك عمتك وسيلة مُحكمَة للسيطرة عليّ، وذلك كاف في حد ذاته. أما أن تستغل طيبتها مُحاولا تفكيك شيفرة الرقعة التي تطايرت أمامك، فذلك ما لا تحمد عقباه. عليك العودة إلى الواقع، وأنا حلمك الذي لم يعد غريبًا بل أثيرًا شغله الشاغل مُساعدتك على البدء من جديد. ولتكن البداية، ككل البدايات، خبرًا هامًّا ومفرحًا لن أتردد في البوح لك به اليوم، إن كان لديك الوقت للاستماع.

ستدهشه نبرة الخطاب الجديدة، وسيخمِّن أنه ناتج عن تخوُّفي من استخدام طاقة الرُّقية التي صار بمقدوره استخدامها، بعد تفكيك الشيفرة، وحمايتها بدرع جملته اللذيذة كما توهَّم، لكنه سيتخابث ولن يفصح عن دهشته تلك، وسيعطيني الفرصة لأسمعه الخبر الهام قائلًا بإذعان:

- كُلي آذان صاغية.

وبدوري سأغتنم الفرصة السانحة لأعرب له عن قراري الذي اتخذته بالتراجع عن كافة اشتراطاتي السابقة. اشتراطاتي التي اعتبرتها قاسية ومدمرة لمشاريعك المستقبلية، عزيزي الأصلع، برغم أنها في خلاصتها النهائية لم تكن سوى مطالبتك برواية تجلياتي الحلمية في منامات الآخرين. وأنت رأيت في ذلك مهمة شاقة لا قبل لك بها. لذلك أعدك أنني لن أطلب إليك، ابتداء من هذه اللحظة، روايتي للآخرين كما في المرّات السابقة. وسأحافظ على وعدي ما أبقيتني قريبًا منك، ولو في هذه العلبة.

لقد كان طلبًا سخيفًا منذ البداية عزيزي الأصلع. كانت حياتنا معًا -سأقولُ له- أفضل مما هي عليه الآن. لذلك سأقترح عليك اقتراحًا جديدًا، لو حسبت حساباته بدقة الصَّيرفي الحذق، وفكرت فيه بجدية وحياد الأرقام التي لا تُجامل، ولم تعتبره، منذ البداية ألعوبة من ألاعيبي؛ فإنك ستكتشف أنه الاقتراح الأنسب لكلينا حتى نستطيع الخروج بسلاسة وبأكثر المزايا والفوائد من مآزقنا التي تبادلنا وضع أنفسنا فيها لأسباب واهية لا تستدعي معاناتنا المشتركة.

وحتى لا تذهب بك الظنون والهواجس بعيدًا سنستبدل، ببساطة، دور من يَروي ومن يُروى له. لماذا نُعقِّد الأمر ونستمرُّ في خلافاتنا التي لا تنتهي؟ سنقوم بالأمر وحدنا. نعم. سنقوم به أنا وأنت.

لا حاجة بك للآخرين كي ترويني لهم وتُحمّل نفسك ما لا طاقة لها به. نحن من سيروي ونحن من سيُروى له. ستكون روايتنا الخاصة بنا وحدنا. رواية مختلفة عما سمعناه من روايات تُروى شفاهة أو ما قرأناه من روايات تُكتب ليستمتع بها قراؤها، ويستفيد من ريعها كتَّابُها وناشروها. ولا أكتمك سرًّا إن أخبرتك بأنني أقرأ الرِّوايات، وأحب الأشعار والسِّير الذاتية. فما لا تعرفه، عزيزي الأصلع، حتى الأحلام ينضب معينها وتحتاج أحيانًا إلى قراءة المفيد والمثير والمُنعش. أنت قارئ جيد كما عهدتك، لا سيما بعد تفرغك وتأهبك لحياة جديدة تستثمرها فيما لم تستطع القيام به طوال فترة تفانيك وإخلاصك لوظيفتك. لكنني أفسدت عليك تلك المشاريع بحماقتي التي أرى أن من واجبي الاعتذار لك عنها.

أعرف أنك قارئ جيد حتى عندما كنت موظفًا، ولك آراء لا

يُستهان بها في الروائيين الذين يكتبون روايات مبتذلة وأولئك الذين يكتبون روايات رائعة يعشقها الجميع، فضلاً عن أولئك الذين يكتبون روايات للنخب المثقفة، وأقدر آراءك -على تكتمك- فيهم وفي أعمالهم.

ولأكن صريحًا معك:

ادعاء سذاجتك المفرطة بأنك مجرد قارئ لروايات غرامية ساذجة مجرد غطاء لا يعدم الصيرفي البارع ادعاءه؛ لكتمان ما تحتويه البئر من كنوز. أليس كذلك؟ أعرف ذلك، كما أعرف سخطك وقرفك من بعثرة الشخصيات الثانوية التي لا تجيد فعل شيء مفيد للقارئ سوى تمشيط شعورهم وإطالة لحاهم أكثر مما ينبغي في بعض الرّوايات. (وهنا سأثمّن عن قصد -في جملة معترضة- عدم زعله مني لمناداته بالأصلع تحبُّبا، لأنه الوحيد الذي قرر التباهي بذلك اللقب، ولا يستشعر بأية إهانة عندما يُنادى به من جميع معارفه)، لأستطرد لاقتناص تأثير إيجابي فيه مُباغتًا إياه بلدغة سلاسة قول مُحكَم:

بالأمس فقط، بالأمس أدركتُ مدى اهتمامك بي حين تيقنت، متأخرًا أكثر مما ينبغي، سبب رفضك لروايتي لأيٍّ كان. لأنك تحبُّني. نعم. لأنك تحبُّني بالفعل، وتدرك تمامًا أنك إذا ما رويتني للآخرين ستفتقدني وأتلاشى كسائر أحلام الناس من ذاكرتك. صحيح أنني اعتقدتُ أنني مجرد حلم حبيس في هذه العلبة. وهو أمر أغضبني، كما لا يخفى عليك، لأنها حقيقة مُرَّة ليس بوسعي أو بوسعك التهرب منها، لكنني أنسى أو أتناسى -كما يبدو- مزيَّة أخرى لهذا الوضع الفريد الذي أتحفتني به؛ وهو أنك تحافظ عليّ قربك ومعك.

وأنت؟. . صحيح أنك تشعر بالذنب وتحاول ما أمكنك الهرب مني كي لا تواجهني وتواجه نفسك بما اقترفت يداك، لأنني -على اختلاف المسوغات- سجينك في علبتي هذه. وهو تعبير سوَّغت لنفسك تحاشي استخدامه قدر المستطاع، في حين إنك كنتَ تحافظُ عليَّ عزيزي الأصلع.

لا بأس، فواقع الحال لا يغير شيئًا، مهما اختلفت التعابير المستخدمة لوصفه. لا بأس، ولنقل معًا: عفا الله عما سلف، فتلك تجربة عانى منها كلانا. دعنا ننسى كل تلك المعاناة. وبدوري لن أسامحك فحسب، بل سأساعدك قليلاً أو كثيرًا. وأنت لن تبخل عليّ بمساعدتك إن كانت النوايا حسنة.

بالأحرى، دع كُلًّا منا يُساعد الآخر:

أن نروي روايتنا لكِلينا، فقط. . . ما حاجتنا للآخرين؟

ستعجبه الفكرة وتروقه، لكنه لن يفصح لي عن إعجابه بها. وبدوري سأبدأ اللعب على وتر مشروعي تلاعبًا بملفوظ الرّواية كتابة وشفاهة، ممتدحًا قدرته الفائقة على التعبير روائيًا، كما أبان عنه الفصل الذي عارض به ما أوردهُ راوي الفصل الأول. هكذا سأدخله في مشروع كتابة رواية حقيقية اعتمادًا على تلاعب بالألفاظ: أن نروي روايتنا لكلينا فقط، لينسجم مع مشروع الرّواية المكتوبة الذي سأطرحه عليه، لنصبح شركاء فيه، بعد أن أعيد امتداح صياغاته الأدبية الموفقة، صياغاته التي بَزَّ بها كُتاب الروايات الغرامية التي اعتاد قراءتها.

وقبل أن يبدي اعتراضًا على الفكرة، سأعترض عليها بنفسي كأنني أتماهى في نحت استطراد غير مقصود:

أعرف أنك ستعترض على الفكرة، عزيزي الأصلع. واعتراضك وجيه وفي محلِّه، لأن العمل الروائي الجيد بحاجة إلى راوٍ جيد. لكننا تقنيًّا وعمليًّا لن نكتب رواية بالمعنى التقليدي، نحن سنرويها فقط. لن نكتب رواية، وربما لن ننشرها في كتاب. سنرويها لأنفسنا فقط. وإذا ما واجهنا -لا سمح الله- صعوبة في إدارة شؤون روايتها وحدنا نستطيع، حينذاك، الاستعانة بآخرين. لا أقصد آخرين كأولئك الموجودين في الرِّوايات المعهودة. لا. لا. عزيزي الأصلع؛ لأن من سنستعين بهم سيكونون من صُنع أيدينا. وللدِّقة في التعبير، سيكونون من صنع روايتنا التي سنتناوب على روايتها أنت وأنا بمعيَّتهم.

من يعرف المُستقبل، من يعرفه؟

قد نكتشف أننا بحاجة إلى شخصيات كثيرة، كما يحدث في الأعمال الروائيَّة الكبرى. لكننا لا نكتب عملاً روائيًّا كبيرًا. علينا أن نكون متواضعين واقتصاديين في احتياجاتنا، لذلك أقترح أن تكون البداية -في حال احتجنا لمساندة لوجستيَّة- برجل وامرأة فقط؛ يرويان أو نروي على لسانيهما ما لن نتمكن من روايته عنا حالمًا وحُلمًا، ليعطيا تعددًا وزخمًا للمَرويّ.

صحيح أننا لن نصبح شريكين في كتابة رواية -كما اتفقنا، أو كما سنتفق لاحقًا- بالمعنى الحرفي والتقني. لكن لا بد من حبكة وصراع في كل الحالات. لا بد من إخوة أعداء، عزيزي الأصلع. من شرِّيرين وطيِّبين، من أغنياء وفقراء، من قاتل بخنجره المسموم وقتيل مضرج في دمائه، من عاشق ومعشوق متدثرين بغمامة الحديقة الخلفية للفصول التي ستتتالى وتنساب -من يدري؟- بسلاسة قد تدهشنا نحن، قبل إدهاش قارئ عملنا المشترك. وهذا

لن يتأتى إن لم نرتكن إلى فكرة مغسولة جيدًا بصابونة أسلوب صقيل في حواف الصفحات كخشب صندل فواح بعطر المهارة والحَرفنة المُعزِزة باستثمار أنقى أساليب السرد، وتبويب الحكايات التي نرويها، لتكون مشرقة على زجاج النوافذ وياسمين الشرفات، الذي لن نضطرَّ للتناوب على روايته بالماء لأنه مَرويٌّ، سلفًا، في بئر كلماتنا.

تلك تفاصيل لا بد لنا من العناية بها، مهما بدت صغيرة وغير ذات أهمية. لكننا لن نحتاج إلى استخدامها بذات الطرائق التي أفادت كل من سبقونا في هذه المهنة الجديدة علينا.

وأنبهك منذ البداية: لن نكون في حاجة إلى حشد شخصيات كثيرة ينسى القارئ تتبعها كما في روايات تولستوي ودوستويفسكي، ولا إلى تعقيد مبالغ فيه كذاك الذي يستملح الأكاديميون الرُّكون إليه تعلة فضفاضة لتخفيض علامات طلابهم المجبرين على دراسة عوليس جيمس جويس أو صخب وليم فوكنر وعنفه، أو ثلاثية نجيب محفوظ. دعك من كافكاويَّة كافكا و«مُدن الملح»، أقصد خماسيَّة عبدالرحمن منيف التي بالكاد قرأها 3% من سكان الخليج والجزيرة العربيَّة؛ لأننا لن نكون في حاجة ماسة إليهم، على الأقل في مراحل الإنتاج الأولى.

رجل وامرأة يكفيان، رجل وامرأة لمساعدتنا على تلافي مأزق ثنائية السرد الفقيرة أسلوبيًا -كما تعرف- للوفاء بأبسط قواعد اللعبة السحرية في واقعيتها كما في حُلميتها السَّاحرة. وليس مهمًّا من أية شريحة اجتماعية يتبلوران. المهم أن نستخدمهما وفق ما نشاء، وبعد ذلك نضعهما في شريحة اجتماعية تناسب الدور المطلوب منهما تأديته.

ألا يفعل الروائيون ذلك؟ ألا يجعلوننا نتعاطف مع شخصياتهم الطيبة كما يقودوننا طواعية لكُره شخصياتهم الشريرة؟ رغم علمنا المسبق أنها شخصيات من اختلاقهم، شخصيات لا وجود لها في الواقع، ولا تحمل بين طيات حيواتها المتخيلة ما يستدعي حقًّا تعاطفنا أو اكتناز كره دفين لها.

نحن سنفعل الشيء ذاته، مع فارق بسيط:

لن نكون مُلزمين بهم حرفيًّا ولا أدبيًّا، مثلما يحدث في الرِّوايات. سنعطي أنفسنا حق إخفائهم متى شئنا وإعادة تخليقهم متى شئنا، أيضًا. وعليه سيكون في مقدورنا تغيير ألوانهم وأجناسهم وأفكارهم وطبقاتهم الاجتماعية. قد نوفق في العثور على امرأة تناسب دور رجل أكثر من رجل حقيقي كرجال هذا الواقع، والعكس متاح بالتأكيد: فإذا اكتشفنا، مثلًا، أنه لا يقوم بالدور المنوط به كما ينبغي، سنلغي عقدنا معه من طرف واحد (هذا إن وقعنا عقدًا، كما يفعلون أحيانًا في النسيج الرِّوائي)، وبعدها نستعين بآخر، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية لرجالنا ونسائنا الذين سنختارهم بعناية؛ ليكونوا ما عليهم أن يكونوه في لحمة السَّرد وسداه.

سأصمت قليلًا للتفرس في ملامح وجهه. ثم سأقذف في وجهه بكُرة سؤال استباقية:

- ما رأيك في اقتراحي هذا؟

لكن، وحتى قبل أن يفكر الأصلع بإجابة قبول أو رفض، سأعيد تشغيل ماكينة استطرادي الحُلمي، لا سيما حين أرى ملامح اهتمامه بطرح مقترحي في طريقة شربه للقهوة، قائلًا:

أنا حُلم ولا أستطيع فعل كل شيء وحدي، لأنني مجرد

انعكاس للأشياء كما تعلم. لذا سيتعيَّنُ عليك أنت توجيه نوازع الخير والشر لديهم، نساءً كانوا أم رجالاً. لكن ذلك سيتطلب أن تكون قادرًا ومسيطرًا على الإطار الذي ستضع فيه كل شخصية بعد اختيارنا لها. مع ذلك لا تعتقد، مرة أخرى، أننا نكتب رواية بالفعل. نحن نتسلى للفرار من ضجرنا المزدوج من بعضنا البعض، ومن العالمين الواقعي والحُلمي. ولعبتنا هذه مُسوِّغ لطيف للفرار من ضجرنا واحتمال التمادي في إيذاء كلٍّ منا للآخر. هي لعبة ذات منافع لا تحصى ولا تعد، لكنها لعبة في آخر الأمر. لعبة إن راقت لنا وحازت إعجابنا واكتشفنا أنها تستحق إطلاع الآخرين عليها، قد لا نستبعد كتابتها باحتراف ونشرها في كتاب، كما يفعل الرِّوائيون المُخضرمون.

بيد أنَّ كل لعبة، عزيزي الأصلع، تنشئ قوانينها التي تنتج عنها مشاكل لا تعد ولا تحصى أيضًا، لذلك علينا أن نكون قادرين على حلها بالمتاح من الوسائل في إطار تلك اللعبة. ولك أن تتخيل معي -لو راقت لنا فكرة شخصيات دون أن نسميها بأسماء تميزها-، لك أن تتخيل المأزق الذي سنجد نفسينا فيه لو لم نسمِّهم قبل تخليقهم وتفعيل أدوارهم الروائيَّة. لذلك علينا قبل كل شيء أن نسميهم بأسماء تميزهم عنا، إن لم يولدوا عرَضًا بأسماء جاهزة وشهادات ميلاد لا قيمة لها إن لم نعترف بها نحن.

للأسماء دلالات، ولأصحابها مقامات. لكن لا بد من الأسماء، لا بد منها، لأسباب شتى. فإذا مرض أحدهم، لاسمح الله، لن يتوجب علينا سوى تغيير اسمه فقط. لا سيما أنك تعرف، بحكم تجاربك المُرَّة، أن بعض الأسماء ثقيلة وتؤذي أصحابها. لذلك سنغير، لو شئنا، من لا يناسبه اسمه أو لا يناسب الدور الذي

سيضطلع به. ولتغيير الأسماء فوائد غير منظورة في الوقت الراهن، لكنها وسيلة ناجعة لجعلنا قادرين على تنظيم فريق العمل ورفع إنتاجيته حين نستطيع الإكثار من شخص واحد بمجرد تغيير اسمه. هكذا سنضرب بحجر واحد أحد عشر اسمًا أو أكثر. وهم سيتكاثرون وسيكبرون في دور الحضانة التي سننشئها خصيصًا لهم. سيتعلمون ويكبرون وسنقضي معهم أوقاتًا طيبة. من المحتمل قضاء أوقات سيئة معهم بالطبع، لكننا سنتفادى ذلك قدر المستطاع. أليس الهدف النهائي هو محاولة نسيان الآلام التي نعانيها والأوقات السيئة التي مررنا بها طوال تمادينا فيما لا طائل من ورائه؟

ولنستطرد معًا في تصوُّرنا المبدئي لشخوص الرِّواية:

سيكونون كثيرين من حولنا، دمثين وودودين، وربما كانوا في غاية اللطف؛ إلى درجة أننا قد نفكر باصطحاب من نستشِفُّ فيه خصائص النديم لمشاهدة الأفلام أو لاحتساء النبيذ. وليس مهمًّا، ليس مهمًّا أن يكون من نختاره مقتطفًا كتفاحة يانعة من شجرة الواقع، أو ممن سبق لهم خوض معترك الحياة في أزمان غابرة، بأرواح أخرى، وفي صيغ أخرى للوجود. فحتى هذا لن نعدم الاستفادة منه ومن كينونته السابقة، لأنه بخبراته السابقة على وجوده المُحدث معنا، سيمتعنا ويُثرينا بحديثه عن ملامح الحياة التي عاشها ولم نتمكن نحن من معرفة تفاصيلها لأن أحدًا في زمنه، ببساطة، لم يكترث بتسجيل وقائعها في مخطوطة أو كتاب. هكذا سيكون نديمًا ورافدًا أصيلًا لإضفاء بُعد تاريخيٍّ على عملنا المُشترك. وعندها لن يجد النقاد المُسلحون حتى الأسنان فرصة للانتقاص مما نرويه، إن احتجنا لناقدٍ أصلًا.

ستعجبه جملتي الأخيرة، وسيعلق الأصلع قائلًا:

- إذن، في هذه الحالة، سنستعين بناقد أدرد.

سأتعمد القهقهة، من داخل علبتي الفضية، إعجابًا بتعليقه المُبتكر، وسيصمت كأنه يعطيني فرصة الاستطراد من جديد:

سنقضي أوقاتًا طيبة معهم، عزيزي الأصلع. نعم، أوقاتًا طيبة لنتسلى ونستفيد. ولكن، لماذا الاكتفاء برجل وامرأة أو بفتى وفتاة؟.. لم لا نجعل النساء أكثر من الرجال؟ نعم. أكثر من الرجال، لكن ليس إلى الحد الذي يشكلن فيه خطرًا علينا، بل قدر ما نحتاج فقط. لن يكُنَّ كلهن فاتنات ففي ذلك خطر محدق بنا. لذلك سيكون من المفيد لكلينا التفكير بعجوز حكيمة تكون ملمة بأساليب الفتنة التي تتخذها الشابات الفاتنات وسيلة لطموح غير مشروع في مسرد الأحداث التي سنرويها، إلى جانب قدرتها على فض الخلافات التي قد تنشب بين الشخصيات التي ستساعدنا على إتمام ورشة مشروعنا الرِّوائي على أكمل وجه. لكنني، بصراحة، أستصعب انتقاء شخصيات العجائز ولدي حساسية مزمنة تجاههن، لكننا في الغالب سنحتاج واحدة لإضفاء بعض الحكمة والرَّزانة والوقار على حكاياتنا.

ربما استطعت أنت تدبير عجوز مناسبة! ما رأيك؟

لو قبلت عمَّتك القيام بدور عجوز محنية الظهر لكان جيدًا، لكنها ككل عمات القرى سترفض الدور مُتصابية حين تقنعك، لو طلبت منها أداء دور صغير، بأنها أصغر بعشرين سنة مما كنت تعتقد.

عفوًا، لا تسئ بي الظن مرة أخرى، لكنها عمة لن يكون بمقدوري أن أكن لها الود والمحبة، لأنها مكنتك من حبسي في هذه العلبة، فتلك خطيئتها التي لن أستطيع غفرانها.

- دعك من فكرة العجوز الآن، وأمتعني باستطرادك المُثير، حُلمي الأثير.

لا بأس. سيكونون كُثرًا، وسنقضي أوقاتًا طيبة بصحبتهم أنّى كانت مشاربهم وأعمارهم. لكن ما يقض مضجعي الآن، في علبتي اللعينة هذه، أنهم قد يتكاثرون ويتكاثرون أكثر من احتياجنا. وما أخشاه أن تتنامى بمرور الزمن قدراتهم التخطيطية، لينخرطوا ضمن نقابة لها رئيس قد يطالبون من خلالها بحقوقهم التي قد يرون فينا - أنا وأنت عزيزي الأصلع، نعم أنا وأنت- نموذجًا لأرباب العمل الفاسدين الذين لا يُوفُّونهم تلك الحقوق. والأنكى من كل ذلك مجابهة الأصعب؛ لو كان رئيسهم طموحًا بما يكفي ليحلم بترشيح نفسه في محاولة للفوز بالانتخابات، إن كان من رعايا دولة تسمح بانتخابات حرة، ديموقراطية ونزيهة.

واسمح لي بانتحال أسلوبك الرَّشيق في طرح الأسئلة. ما أدراك؟.. قد يفوز ذات يوم، وهذا أمر يحدث في الواقع ونراه على شاشات التلفزيون، فكيف نستبعد حدوثه في الرّوايات؟

نعم. قد يفوز صاحبنا ديموقراطيًّا ويصبح عضوًا في البرلمان، وربما رئيس دولة في أحداث روايتنا. وفوزه حتمًا سيجبرنا على احترامه وتقديره ومسايرته والاعتذار له ولحزبه الحاكم عما بدر منا؛ فيما سنضطر لتسميته لاحقًا بالعهد الدكتاتوري البائد، معلنين ولاءنا لعهده الزاهر، عهد رئيسنا المحبوب الذي سنُكْرَهُ على الإشادة به علنًا في الصحف. وربما ركبنا موجة العهد الجديد الذي، كما كان يحدث دائمًا، سيفسد مع الزمن ليصبح نسخة من العهد القديم، لنضطر -خوفًا على حياتينا- أن نفتديه بأرواحنا، وأن نعتبره قائدنا المُلهم، كما يفعلون دائمًا عزيزي الأصلع، في الواقع والرّوايات.

لذلك سنكون السباقين لتلافي الأمر. وأنا على يقين أنك من الحنكة بحيث تجيد، في الوقت المناسب، استخدام تلك العبارات التي تهدِّئ من روع رئيس دولة غاضب. فإذا ما أضحى رئيس دولة، في روايتنا، عليك أن تُكثر وتفخم تلك العبارات المتملقة قدر ما تستطيع. خاطبْهُ بصيغة الجَمع. فالرؤساء يحبّون ذلك، يحبون كوكتيل صيغ الجمع، لدرجة أنهم لا يمانعون في امتلاك أكثر من مؤخرة لمجرد أنها صيغة جمع لمؤخرات فخامة الرئيس.

عندها لن يتردد في دعوتنا لحضور المناسبات الرسمية وحفلات استقبال الملوك والرؤساء.

واسمح لي بانتحال أسلوبك، مرة أخرى عزيزي الأصلع.

ما أدراك، ما أدراك؟.. ربما كان ذاك الرئيس من الأريحيَّة واللطف -بعد أن يُثني جهاز مخابراته على ولائنا الذي لن نتوانى في الإفصاح عنه بمقالات تمجيدية في أعياده الوطنية-، ربما كان من الأريحية واللطف بحيث يرسل لنا دعوة خاصة لحضور حفل راقص في يخته (نسيت أن أخبرك أننا سنكتشف أنه من مُلاك اليُخوت الفارهة قبل فوزه المُلفق بالانتخابات في روايتنا، تمامًا كما كان وما زال يحدث في الدول ذات الحدود الجغرافية الواقعية).

نعم، عزيزي الأصلع، حفل راقص في يخته الفاره حيث لن يشرب الشاي كما اعتاد أن يفعل في المناسبات الرسمية المتلفزة، بل سيشرب الشمپانيا وسيرفع كأسه الكريستالية ذات الساق الرفيعة في صحة اعتذارنا الوجيه حتمًا. ربما سيمتدح ولاءنا لعهده الميمون، وقد يأتي خصيصًا بشاعر له باع طويل في مدائح المناسبات التي طالما انتظرها شاعر الرئيس الذي سيفاخرنا بنسائه (أقصد فخامة الرئيس، وليس الشاعر) معترضًا على تسميتهن القديمة: محظيّات،

هامزًا لامزًا تقاليد بلاط الملوك السابقين أمام سفير ولايات الجحيم المتحدة، مُسهبًا في تعليل وجهة نظره -بينما يرفع كأس الشمپانيا- كرئيس ديموقراطي مُنتخب لم تعهد الرِّوايات مثله:

«لقد مضى عهد استعباد الناس، إنهن رفيقات مسيرة ونضال، لا أكثر ولا أقل».

ونحن بدورنا سنصدقه قليلاً أو كثيرًا، وفق ما تقتضيه المناسبة، لكننا لن نعطي ذلك الرئيس قدح الفرصة وكأسها، ليصبح على حين غرة ملكًا بتغيير مفاجئ للدّستور وفق صلاحيات سيمنحها لنفسه في عيد ميلاده، كما حاولتَ أن تفعل في فصلك الهذياني، دونما ارتكان إلى قاعدة شعبية أو إلى دستور لجزيرتك الفردوسية المتوهمة سوى ارتكان هذيانك الخلاق إلى استحلاب جُملتك اللذيذة، جملتك التي -كما ادعيت- لا تسرق كتيجان الملوك. وبدورنا سنصدقه قليلاً؛ كي يطمئن إلينا وإلى نوايانا التي سنُظهر وجهها الحسن في البداية، لكننا سنفاجئه في غمرة فرحه بأسوأ الاحتمالات التي يمكن لرئيس دولة أن يتوقعها في مَسرد روائي:

سنجعله نادلاً يقدم الشراب لضيوفه الأعزاء، للوزراء والوكلاء وكبار الشخصيات من قادة الجيش والشرطة وأجهزة الأمن وأعضاء السلك الدبلوماسي. ألا يحدث شيء شبيه بهذا السيناريو في الانقلابات العسكرية؟ يحدث ويحدث كثيرًا، عزيزي الأصلع. لذلك سنختار ليلة اليخت الفاره لتنفيذ مخططنا الانقلابي ضده، وببساطة سنُخرج من قبعة الساحر مواطنًا محبوبًا من الجماهير ليكون رئيسًا منتخبًا، وبإمكانك توقع ما سيحدث لاحقًا:

سيوقِّع الرئيس السَّابق وثيقة تنازله عن الرئاسة، شرط أن لا نهين كرامته بجعله نادلاً في يخته الفاره، مفضلاً على تلك الإهانة

غير المتوقعة عقوبة أقل قسوة: نفيه إلى أقصى بلدة في الأرض كي لا يعرفه سُكانها؛ في حالة اضطراره للعمل نادلاً في مقهى يؤمُّهُ فلاحو تلك البلدة التي في أقصى الأرض، كما ستنصُّ وثيقة التنازل.

ونحن، من جانبنا، سنكون في غاية الكرم مع رئيس مخلوع. وسنتقبل على مضض شرطه الصغير هذا. عندها سيكون علينا البدء، من جديد، بمشاكسة الرئيس الجديد.

ومن جديد، بإمكانك توقع ما سيحدث مرة أخرى:

ستتغير الأحداث وسيتوجب علينا روايتها بطريقة أخرى، مع مراعاة ضغط الفصول المرويَّة قدر المستطاع. فالناس، عزيزي الأصلع، مشغولون كثيرًا هذه الأيام، مشغولون ولا يملكون الوقت الكافي للاهتمام بأحداث روائيَّة مليئة بانقلابات قد لا تستسيغها أذواقهم في آخر المطاف. انقلاب عسكري واحد في رواية أكثر من كافٍ يا عزيزي، فربَّما عُوقبنا وأتى في فصول لاحقة من ينقلب علينا نحن انقلابًا أبيض سنُكرَهُ على القبول به إن لم تكن نوايانا - تجاه بعضنا البعض- حسنة ومتفقًا عليها، لذلك سيكون من المُجدي أن نفكر في عواقب الأمور قبل التهوُّر في نقلة غير محسوبة، يكون فيها هلاكنا معًا.

الفصل الرَّابع

الاسم: تفاحة. ولاسمي حكاية، ربما سأرويها لاحقًا.

العمر: 21 سنة، لكن عمري النسبي ثلاثة أضعاف عمري الحالي، وربما أكثر في لانهائية الأعداد، ولكل من العُمرين حكاية قد أرويها فيما بعد.

الحالة العاطفية: عاشقة ناضجة كثمرة مشمش. ولعشقي حكاية لن أرويها الآن، لأنها ستروي نفسها بنفسها في الغالب. وفي الأغلب المُتواري في غياهب الغيب، قد تروى بضمير الغائب النحوي: «هي»، إن لم أغيِّر مزاجي لأرويها بنفسي.

الحالة النفسية: مضطربة دائمًا، ومضطربة أحيانًا. ولم يعد سرًّا أنني أعاني من حالات اكتئاب هوسيّ مزمن، ولاضطراب حالتي النفسية حكاية ستتكشف أسرارها لاحقًا، دونما حاجة لمعالج نفسي يرويها لي بضمير المُخاطب لأرويها لاحقًا بلساني، دون شعور بعقدة ذنب لاستخدامي ضمير «أنا» المتكلم.

الهوايات: كثيرة على قلتها، قليلة على كثرتها. كثيرة في

الكثرة، قليلة في القلّة إلى حد اضمحلال إمكانية وجود حكايات شائقة تستحق عناء روايتها بضمير الغائب، حتى في الهوامش التي تُعورف على تجاهلها وطمسها في المرويّ شفاهة أو المكتوب بحروف صغيرة تكاد لا تُرى في أمهات الكتب وبناتهن.

الحيوانات الأليفة: الضِّباع والقطط المُتوحشة.

الشخصية المفضلة: إسحاق نيوتن *Sir Isaac Newton*

العطر المفضل: السُّم الخالص
Eau de parfum PURE POISON

اللعبة المفضلة: القانون الثالث لإسحاق نيوتن: ***لكُلّ فعلٍ ردُّ فعلٍ، مُساوٍ لهُ في المِقدار ومُعاكسٌ لهُ في الاتجاه.***

المهنة (الدائمة والمؤقتة): عاطلة عن العمل، رغم امتلاكي طاقات خفية لتحميص حُبيبات الأرق مع فستق العبيد وشرائح البطيخ الأحمر على مقلاة من يُحاولون إيقاظي من حالات السُّبات الطويلة، ولتلك الحالات هيولى حكاية كامنة في برزخ السَّابق واللاحق، وهو ما قد يُروى لاحقًا.

الصِّفات العامة: جميلة جدًّا، رشيقة جدًّا، شبقة جدًّا، لكنني قد أتجلى عجوزًا شمطاء وباردة جدًّا جدًّا، ولذلك أيضًا ألف حكاية وحكاية، وفقًا لزاوية النظر الأفقية وتقاطعها أو توافقها مع زاوية النظر العمودية في ما يُدعى صفات عامة، دونما تمحيص دقيق للفروق الغائرة في غياهب كينونتي.

المميزات الفارقة: قدرة فائقة على اختراق مكامن أفكار الآخرين الذين لا يستطيعون الوصول إلى حقيقة أفكاري -إلاّ عندما أسمح قصدًا بتسريبها- لأنني أمتلك جهاز حماية بدائي جدًّا، لكنه متطور مقارنة بالقدرات العادية للناس العاديين، بمن فيهم أولئك الذين يستفيدون من تلاقح طاقاتهم الحيوية حين يُوصلوها بيولوجيًّا بالحواسيب.

المحصّلة اللانهائية: في أغلب الحالات يمكن اعتباري ظاهرة وخفية. قاسية وحنونة. مخادعة وساذجة. قدِّيسة وشيطانة. أرضية وسماوية. يمينية ويسارية (خارج الدلالة السياسية). سريعة وبطيئة. صوفية ووجودية. حُرّة ومستعبدة. وسخة ونظيفة. غنية وفقيرة. حمقاء ورزينة. مؤمنة وملحدة. وَلود وعاقر. سادية ومازوشية. سوية وذات احتياجات خاصة (في بُنيتي الجسديَّة). فاتحة وغامقة. نهارية وليلية. علوية وسفلية. بيضاء وسوداء. فصيحة ومتلعثمة. سويَّة ومثليَّة (حصرًا، في علاقاتي الجنسية). أحادية وثنائية (في طبيعة آرائي). جهنمية وفردوسية (وفقًا لطبيعة الثواب والعقاب). طبيعية وغريبة أطوار (وفقًا لأطواري طبعًا!).

المحصّلة النهائية: يتغاضى سيفي عن رقبة عدوِّي، لكنني أعرف دائمًا من أين تؤكل كتفه. أسيرة في براري المطلق (بصيغة الماضي)، رغم طلاقتي في مهب الحاضر، ولكن بشروط خاصة عليّ الخضوع لها والالتزام بقوانينها، فقد تكون ماهيتي الحالية مائيَّة المزاج، وقد تكون ناريَّة الطبع. قد تكون ترابيَّة (كوني يا تفاحة فأكون)، لكنها -ولست متأكدة من صحة زعمي- قد تكون هوائية

تمامًا، لدرجة عدم حاجتي لاستدراج دراجة هوائية من بنات أفكار لم تنضج بعد؛ حتى تسقط تفاحتها عموديًا من شجرة حُلم أثير على رأس أصلع استنار مُؤخرًا. أما حكايتي معهما وتقاطعها حياة ومصيرًا، فتلك قصة لن تُروى بإسهاب حتى يحين حينها.

خلاصة خاتمة: لا ضير في اعتباري، مؤقتًا، شخصية مُدرَجة في جدول أعمالهما كشخصية غير واقعية بالمعنى الوجودي. شخصية من اختراعهما على هذه الصفحات، إن لم أبالغ لأكون بالفعل واحدة من بنات أفكارهما قبل تخليقي في مسودة أجندتهما الروائيَّة، بحجَّة اقتصادهما وتقشفهما في احتياجهما إلى شخصيات مُوازية، أو مؤآزرة يتبادلان وإيَّاها سرد ما لن يتمكنا من سرده على لسانيهما بضمير «أنا» المُتكلم، ليعطيا تعددًا وزخمًا للمَرويِّ بضمير الغائب.

الفصل الخامس

- صباح الأحلام الحبيسة.

- صباح أروع صلعة تضيء صباحات العالم.

- دعني أفتح علبتك الفضية أولاً؛ لتستمتع بنسيم الصباح حُلمي الأثير..

- واسمح لي، تاليًا، عزيزي الأصلع بتحضير فنجان قهوتك المفضل.

- ما هذه الأريحيَّات؟ أين غضب السُّجناء الحقيقيين وتبرُّمهم.

- لم أعد غاضبًا، فقد تعادلنا 1 - 1، كما في كرة القدم.

- حقيقة، فكرت في مقترحاتك المدهشة، ولدي الحماس والرغبة لتنفيذها.

- هذا أعظم قرار اتخذته بعد عودتك من جزيرتك الفردوسية. ألم تصبح ملكًا بعد؟

- لا تسخر من أحلامي الصَّغيرة. دعنا فيما نحن فيه الآن، ولا تنبش ماضيًا ولّى إلى غير رجعة، وإلاّ فإن نتيجة المباراة النهائية ستتغير لصالحي قبل نهاية الشوط الأخير.

- سمعًا وطاعة عزيزي الأصلع.

- هه. ما رأيك في سيرتها الذاتية؟

- تقصد من؟

- هذه التي أقحمت نفسها بسيرة ذاتية غامضة..

- غامضة وواضحة ومتفذلكة بعض الشيء، كما أنها لا تخلو من الادعاء.

- هكذا النساء دائمًا، لكنها ضالّتنا التي نبحث عنها، وتفي بشروطنا ومواصفاتنا.

- ذكية، حالمة، شاعرية، واقعية، عاشقة، واسمها كما أفصحت عنه بكل وثوق: تفاحة!

- عِزّ الطلب. أليس كذلك؟..

- هل أنت من أوحى لها بتقديم سيرتها الموجزة؟

- إطلاقًا، عزيزي الأصلع. هبطت علينا من سماواتها التي لم تُفصح عنها بعد.

- ما أدهشني أنها مستعدة للتعاون معنا، لكنها تقول إن بالإمكان اعتبارها مؤقتًا شخصية مدرجة في جدول أعمالنا. وهي عبارة تثير القلق.

- مربط الفرس أنها عاشقة.

- ومن المعشوق يا ترى؟

- هذا سِرّ لن أفصح عنه.

- أتعرفه؟

- وأعرف اسمه أيضًا. هل غابت عن بالك قدرات حُلمك الأثير؟

- أتحرَّق شوقًا لمعرفة اسمه.

- اسمه سهل، لكنني لن أخبرك به.
- ها قد عدت للتخابث. أين تفاهمنا على التعاون لنسيان جراح الماضي؟
- ما زال التعاون قائمًا.
- إذًا أخبرني باسمه.
- لن أخبرك باسمه حتى تفكَّ أسري.
- تعرف تمامًا أنني لا أستطيع المغامرة بذلك.
- أتفهَّم ذلك، ولا أطالبك إلاّ بحريَّة مشروطة.
- يا لك من حُلم داهية. يبدو أنك لم تقدِّم لي تلك الاقتراحات مجانًا.
- اقتراحاتي مفيدة لكلينا. ها أنتذا قد تعافيت بعد العودة من فردوسك المزعوم، وأنا تراجعت عما اعتبرتَهُ أنت مضايقات، ولم يبق سوى أن نكون صديقين حقيقيَّين دون أن تكدر صفوهما، حالِمًا وحُلمًا، معادلة السجان والسجين.
- لا تُراوغ. ماذا تريد بالضبط؟
- أن نستعيد علاقتنا الأولى. أن تفتح علبتي كل صباح، وأن نروي معًا أفكارنا وحكاياتنا بينما تشرب قهوتك المفضلة بمعيتي آمنًا مطمئنًا في بيتك، دون مغامرات خرقاء لا تليق بمكانتك. هذا ما أريده باختصار.
- كما تشاء، لكن علينا تدريب نفسينا على أسلوب ثقة متبادل بمعايير صداقية نحترمها معًا دون التفكير بخيانات مستقبلية. ولتكن شخصية تفاحة وعشيقها بداية موفقة لمشروعنا المشترك.
- اتفقنا، ولنتصافح عزيزي الأصلع.

- بعد أن تخبرني باسم عشيقها. ألسنا شُركاء؟
- اسمه: المسمار.
- المسمار؟ . . وهل أنت من اختاره لها؟ ومن سماه بهذا الاسم؟
- إطلاقًا. بكل بساطة، هي تفاحة وهو مسمارها.
- وكيف عرفت اسمه؟
- تلك أسرار حلمك الحبيس في علبته الفضية.
- لا مانع عندي في أن تحتفظ بأسرارك، شرط ألاّ تنقلب عليَّ حين أفتح علبتك.
- هي واقعة في غرامه، لكنهما لا يستطيعان اللقاء لظروف ليس هذا أوان الكشف عنها. ونحن نقدم لهما مسرحًا مجانيًّا يقدمان على خشبته أفضل ما لديهما. وسيستطيعان في بيئتنا الحُلمية التغلب على تلك الظروف.
- هذا خبر مفرح يا حلمي الأثير.
- ألا ترى أننا حققنا تقدمًا نسبيًّا في عملنا، وتلقائيًّا خطونا الخطوة الأولى؟
- بعثورنا على شريكين عاشقين؟
- ليس هذا فحسب، بل لأننا أدرنا، لأول مرة حوارًا مباشرًا بيننا.
- كأننا شخصيتان حقيقيتان في صلب عمل روائي.
- بالضبط. ولكن على كل منا أن يدَّخر طاقاته للفصل الخاص به.
- لا مانع لديّ، شرط أن يكون الفصل القادم لي.
- ليكُن، عزيزي الأصلع، هدية أمنحك إياها عن طيب خاطر.
- يا لدهائك.

الفصل السَّادس

وفاءً لتصالحنا واتفاقنا، كنت أعني تمامًا ما قلته في حوارنا حول هذا الفصل: «ليكن هدية أمنحك إياها عن طيب خاطر».
لكنك لم تتردد في استمراء وقاحة ردودك حين أنهيت حوارنا بكلمة قاسية: «يا لدهائك».

قد تبدو، لمن لا يفهم طبيعتك، أنها صيغة مديح، لكنها مُختتم ينمُّ عن سوء طويَّة تجاه شفافية حُلم حبيس مثلي. كلمة جرحتني بعد أن أعدتني إلى علبتي فور انتهاء الحوار. كلمة ما كان ينبغي لك، احترامًا، أن تختتم بها حوارنا الرائع. يبدو أنك لم تبرأ من حالة اضطرابك واستيهاماتك التي جعلتك تعتقد أنك صرت بالفعل ملكًا على جزيرة، وبدوري لن أبخل عليك بخزيني من الأعذار لأسامحك المرة تلو المرة، لأنك قاسيت كثيرًا مما صنَّفتهُ في مُتلازمة نواحك الدائم اعتداءً سافرًا مني على خصوصياتك، ومخططاتك لحياة جديدة بعد تقاعدك.

لن أبخل عليك بالأعذار، وسأسامحك كما كنت أفعل دائمًا، لكنني -خلافًا لوعدي الذي قطعته- سأتولى كتابة هذا الفصل بنفسي، عقابًا على تسرُّعك بتلفظ تلك الكلمة. وتسهيلاً لإيجادك مدخلاً مقنعًا بنتائجه التي ستنبني على المقدمات المُسوَّدة في هذا

الفصل؛ حين تشرع في كتابة الفصل اللاحق لنناقش، تاليًا، خلاصة أفكارنا التي ستقودنا إلى لحمة المرحلة التالية وسداها.

ولنعد لموضوعنا، ولو تكرارًا إثر تكرار. وادلُ بدولك في الوقت المُناسب والفصل المُناسب.

قبلِ كل شيء، لا أعتقد أن مداخلة تفاحة عبثية، على قِصرها، فهي أقرب لبطاقة تعريف. لذلك فإن استثمارها مفيد لكلينا، وأرى أن التركيز على توظيف قصَّة حب متوهج بين عاشقين اثنين فحسب أجدى من إهدار جهودنا في إدارة عشر شخصيات عاطلة عن العمل في عملنا، لو وُفِّقنا في اختيار تلك الشخصيات بمعايير صارمة تضمن لنا عدم انتمائها لنقابات متطرفة ترى فينا (من وجهة نظرها بالطبع) مثالاً ساطعًا لأرباب العمل الفاسدين.

أليس كذلك؟

ماذا نفعل بعشرة أشخاص قد يثيرون مللنا وملل القراء؟ . . ماذا نفعل بهم؟ وأصلاً ما حاجتنا إليهم؟ علينا أن نكون واقعيين بخصوص هذه المسألة بالذات. لأننا لن نكون قادرين على تحمل أعباء كلفتهم المادية والمعنوية والنفسية التي ستقع على كاهلنا، لا سيما إن أوقعتنا حظوظنا العاثرة في التعامل مع محدودي الخبرة في مضمار كهذا المضمار الذي يعوزه التخصص والاحتراف، سيبدو ذلك مُملاً ومكررًا وغير مقنع للقارئ الفطن.

حكايات ومواضيع كتلك وجدوا لها حلولاً أسهل في أيامنا هذه، أسهل وأمتع بكثير من ضنى إتقان سردها في روايات شائقة. إنهم يصنعون منها أفلامًا تحتفي بالطبيعة والحياة والتاريخ في تقليد متقن يفوق وهج الحياة ذاتها بكافة الإمكانات والجماليات التي يتيحها الفن السابع، دون إهمال لأدق التفاصيل؛ ابتداء من اختيار

عشرات الأبطال وتجييش آلاف الأشخاص الذين يقومون بأدوار الكومبارس وصولاً إلى اختيار الحصون والأحصنة والصحارى والجبال وظلمات البحار وإشراقة شموس سواحلها وناطحات السحاب المناسبة لتصوير تلك المشاهد. لذلك أعتقد أنك لن تخالفني الرأي في أن العودة لإعادة إنتاج الحبكة الروائيَّة التقليدية دون رؤية خلاقة أمر مُمل حقًّا، وقد عفا عليه الزمن الرِّوائي نفسه.

لذلك دعنا من تجشم ذاك العناء، ولنطور حكاية هذين العشيقين. لأنها موضوعة، على قِدمها، لا نهاية لطرائق معالجتها بنجاح لافت في الرِّوايات كما في الأفلام. دعنا نفكر، إذًا، في عائلة صغيرة مكونة من الأب وزوجته وأطفالهما الثلاثة (ربما يكونان تفاحة ومسمارها)، وربما توسعنا في الفكرة لإعادة اختراع جَدَّة حكيمة، شرط أن تترك عمَّتك العجوز في قريتها البائسة، ليس لأنني لا أحبها كما أفصحت لك من قبل، بل لسبب آخر يبدو أنك لم تفكر فيه قط؛ لأنها عجوز واقعية حتى النخاع. ونحن بحاجة لواحدة من اختراعنا على شاكلة تفاحة. وكما هي الحياة، كما هي الحياة عزيزي الأصلع، ستكثر المشاحنات في روايتنا بين الزوج (وليكُن المسمار، إن تيقَّنا من أهليَّته للمشاركة). لكنه مسمار سنكتشف، مع توالي الفصول، أنه لم يكن يربح من منجرته الصغيرة في القرية عدا فتات يبدِّده في الحانة، وبين زوجته (تفاحة)، أقصد عشيقته السابقة (لاحظ أن موضوع العشق لانهائي، وبرغم ذلك لن نضطر لإطالته كما قد يفعل الآخرون، فقد تزوجا بسرعة!).

وكما هي الحياة، كما هي الحياة في الواقع والرِّوايات على حد سواء، ستتفاقم مشاكلهما بعد الزواج وستكثر مشاحنات ومتطلبات أطفالهما، ولهذا مخاطره الجمة؛ إذ سيتوجب علينا القيام بواجبنا

الأخلاقي والمهني لحلها والتخفيف من آثارها السلبية في عملنا.
هل لديك الوقت للاستيقاظ مبكرًا لإيصال أطفالهم الثلاثة إلى مدارسهم عندما لا يصحو المسمار من سُكْره وعربدته الدائمين؟ أو عندما تمرض تفاحة التي أجزم أنها لن تضطر للبحث عن مرض حقيقي يهدد حياتها، لأنها لن تعدم وسيلة للتمارض بسرعة صاروخية عندما تستشعر طيبتك واستعدادك المرح لاصطحاب أطفالها إلى مدرسة القرية أو في نزهات قصيرة ستصيبك حتمًا بالملل بعد فترة قصيرة من تنطعك للقيام بتلك المهمة، برغم حبك للأطفال وولعك برعايتهم. لكن الأدهى من تمارضها أنها ربما ضربت عصفورين بحجر واحد، عزيزي الأصلع، حين تروق لها اللعبة وتكرس وقتها الفائض لملاقاة عشيق جديد، سيشاعُ، ابتداء من هذا الفصل، أن ابنها الثالث من صُلبه بعد أن ملت إدمان مسمارها على الكُحول، وقضاء وقته في غيبوبة دائمة آناء الليل وأطراف النهار. وبالطبع لن تتوانى قرائح عجائز القرية في تأكيد خيانتها غير المؤكدة للمسمار.

ومن هو بخبرتك لن تفوته تلميحات العجائز غير البريئة (لاحظ التكاثر التلقائي لعجائز القرية)، رغم انشغالك الدائم في تلك الفترة للقيام بواجباتك تجاه العائلة السعيدة جدًّا بخدماتك المجانية حتى الإنهاك الذي سينخر جسدك لتكون أنت -وليس تفاحة- عرضة لمرض عضال، ظننت أنك دائمًا بمنجى منه.

وكمن سبق له مشاهدة شريط الأحداث مُسرَّعًا على الشاشة، فإنني لا أبالغ إن اضطررت لوضعك في قلب الصورة القاتمة وأفصحت لك -وفاء لصَداقتنا- عن المصير الذي ستؤول إليه حين تموت ببطء بسبب الإنهاك الذي ستصاب به لتفانيك في تقديم

خدماتك الجليلة لأطفال تفاحة الشرعيين وغير الشرعيين. وبدورهم -كعائلة حقيرة في تخوم القرية التي تدور فيها الأحداث- لن يبخلوا عليك بدموع تماسيح سيتعمَّدون الإكثار منها في لقطات مُقرَّبة بعد تقطيعهم لشرائح البصل في كواليس المشهد، لكنهم سينسون بعد فترة حداد أقصر من الأفلام الوثائقية تضحياتك الكبرى بمن فيهم صديقك السينمائي الذي لن يفكر حتى في ضرورة إنتاج فيلم وثائقي قصير عن حياتك القصيرة وتضحياتك، لولا أن صديقك الآخر؛ وهو نحات مغمور (نسينا الإشارة إليه في الفصول السابقة)، سينبري لينحت لك، بإخلاص نادر، تمثالاً في إحدى ساحات المدينة (مرة أخرى، لاحظ سهولة الانتقال من قرية عجائز إلى مدينة متعددة الساحات!)، ليتجمع حوله العشاق الجُدد الذين سيتأمَّلون بكامل حيويتهم، في اللوحة الرخامية تحت قدمي تمثالك الرخاميتين، تاريخ ميلادك وتاريخ مماتك بالطبع!

وهذه لن تكون نهايتك المكلَّلة بتمثال رخاميٍّ أصلع، لأنك لن تسلَمَ مستقبلاً من طلاب علم الاجتماع وطلاب الفنون الحديثة وطلاب كلية الآداب الذين لن يتوانوا جميعهم، على اختلاف تخصصاتهم، في الإشارة إلى «عدم إخلاص الأصلع الذي يتوسط تمثاله أشهر ساحات المدينة لصديقه النحات المغمور الذي لم يُشر إليه في جملة واحدة من روايته المحتشدة، كيوم حشر مصغر على الشاشة، بأحداث تافهة عن عائلة تنتمي لقرية عجائز في أقصى المعمورة احتضنها ووهبها حياته، لكنها لم تتوان في قتله إنهاكًا في آخر المطاف».

نهاية مأساوية لا أرتضيها لك، كما لا تحبذها أنت مصيرًا تَناضَجَ قبل أوانه.

فلا أنت، ولا أنا من المُتسرِّعين في تسمين بقرة أحداث تنتهي بنهايات مأساوية، لذلك دعنا نعود إلى سابق عهدنا، إلى عذريَّة تفاحة ونقاء سريرة مسمارها الذي لم نعرف شيئًا من ملامح شخصيته الحقيقية (قبل أن يتزوجا وينجبا وتخونه وتمرض أنت لتموت في ريعان شبابك دونما هدف). أقصد دعنا نعود إليهما رجلًا وامرأة عاشقين فحسب، دون إعطائهما فرصة التداعي لتكوين عائلة تافهة تقتلك قبل نهاية هذا الفصل، لتُحرَم أمجادًا نتوخاها من رِوايتنا هذه.

وإذا اتفقنا على ما اقترحته في الفقرة السابقة وأعدنا تسلسل الأحداث إلى مسار آمن لا تستشعر فيه خطرًا على حياتك العزيزة عليّ وعليك، فإننا نكون قد تجاوزنا عقبة كأداء. عندها نستطيع الاحتفال باستراحة قصيرة ننتظرهما فيها للعودة بروح العاشق والمعشوق، تمامًا كما في روايات الحب الإنسانية التي جسدت أنصع نماذج التضحية في سبيل حب خالد لا يفنى، لنواصل بعد استراحة المُحاربين تلك عملنا الدؤوب. ودائمًا دائمًا لا تقلق، فالكبوات تحدث لكنها ليست مدعاة للانهزام، بل لمواصلة المسعى الذي سيتأسَّس على قاعدة واضحة المعالم، تكون بمقتضاها أنت وتفاحة ومسمارها الشخصيات الثلاث المحورية. أما حلمك الأثير -أنا، بكل تواضع- فسيكتفي بالظهور لمامًا، وحين تدعو الحاجة فقط. لأنني لا أطمح لأن أكون شخصية رابعة تظهر كل فصلين أو ثلاثة، ليتسنى لي تكريس وقتي وطاقاتي للقيام بدوري الطبيعي الذي تعرفه: حلمًا يزور الأبطال الثلاثة عندما ينامون بعد يوم عمل شاق في ورشة الرِّواية ليناقش مشاكلهم ويخفف عنهم آلامهم ويسليهم، إن دعت الحاجة، باصطحابهم في رحلات حلمية ممتعة إلى ديزني لاند أو تاج محل أو إحدى ساحات الفردوس الذي تنتظره أحلامُ

الجميع. لا تقل لي إنك تطمح للقيام بدور الشخصية المحورية، لأنها فكرة كلاسيكية عفا عليها الزمن. ستقتسمون الأدوار ثلاثتكم بالتساوي قدر المستطاع، وعندما نقترب من الثلث الأخير أو الربع الأخير (وفقًا لما تمليه الأحداث) سأصعِّد دورك تدريجًا كقمر منير في ليل الأحداث ليتلاشيا تفاحةً ومسمارًا كغمامة حبهما الزائل، وبذات التدرُّج.

هل تعرف؟.. الآن خطرت لي فكرة بديعة. سأقترح عليك - وحُلمك الأثير أبو الاقتراحات، كما ترى- القيام بدور سكِّير حكيم يُصلح ذات البَين بين الفتاة وعشيقها، كي لا يعودا للتفكير بالزواج، على حين غرة، لتنتهي الأحداث بمصرعك كما حدث في المرة السابقة. أعتقد أنه دور مناسب لك، فذاكرتك التي بدأت تضعف - لتراكم ملايين الأرقام والحسابات الصَّدئة في تجاويفها- لن تُمكِّنك ذاكرتك من قراءة الملاحم والتراجيديات الكبرى، فكيف بحفظها؟ لا سيما أنك ولوعٌ -كلما تقدم بك العمر- بعادة المحافظة على لمعان صلعتك، أكثر من ولعك بلمعان ما يتوجب أن تخفيه في تلافيفها.

لا تحملْ مداعبتي لصلعتك الرائعة على محمل الجد، ولا تحمِّلها ما لا تحتمل من تأويلات سلبية، فقد وردت في ذهني عَرَضًا ولم أشأ إخفاءها عنك - وإلاّ، وإلاّ ما كنتُ صديقك الوفي وحلمك الأثير.

أليس كذلك؟

لا بأس. قد يبدو لك دور سكِّير حكيم غريبًا بعض الشيء، ولا يتفق كثيرًا مع ملامح شخصيتك الحقيقية، لكنه اختبار لا بد منه

لإثبات قدرتك على أداء أدوار متنوعة تقنع بها القراء، كما أنه دور ذو خصائص فريدة ستكتشفها بنفسك كلما تعمقت في أدائه. لكن السكِّير، حكيمًا كان أم لم يكن، في حاجة ماسة إلى حانة، فكيف بسكِّير حكيم مثلك لن يتوانى في اختيار حانة تليق به وبمكانته؟ لذلك عليك -لو راقت لك هذه المِهنة- أن تبحث عن نجَّار بارع يصنع لنا -لك، تحديدًا- حانة صغيرة تكون أنت حكيمها، عِوضًا عن المسمار الذي طلَّق مهنة النجارة، بعد أن أضحى سكِّيرًا لا يُبالي بخيانة زوجته التي ولدت طفلاً ليس من صُلبه.

لكنني -حفاظًا على حياتك الغالية- ألغيت مشروع تلك العائلة التافهة. نعم. ألغيته برمَّته، لأنني أحبك كما تحبُّني أنت. ولا تنس، لا تنس عزيزي الأصلع، حقيقة أخرى؛ فقد كان المسمار سكِّيرًا تافهًا، ولم يكن حكيمًا البتة، ولا يُستفاد منه حتى في حبكة روائيَّة فاشلة. فكما شاهدت بنفسك، كان صاحبنا متهورًا أكثر مما ينبغي. ولم يكن يتوانى في جرح أصابعه كلما شرد ذهنه في أتون الخيانة، ورغم انشغالك برعاية أطفاله الثلاثة (تذكَّر: اللذين من صُلبه والذي ليس من صُلبه)، كنت تصطحبه إلى المستشفى لتلقي العلاج على حسابنا.

تلك أزمة خرجنا منها سالمين، بسلامتك أنت قبل كل شيء. لذلك، إن بدا لك سيناريو الأحداث المُقترح ملائمًا، سيكون من الأجدى لنا جميعًا أن تبحث عن نجار بارع في تخوم الواقع الواقعي، فالنجارون الذين نحاول ابتكارهم، كما يبدو، سكِّيرون أبديُّون. وهؤلاء لا يُعتمد عليهم ليكونوا أعضاء صالحين وفاعلين لتشييد ما نرويه (هل لاحظت أننا بدأنا نفهم أصول اللعبة، تماماً كما بدأنا نراكم التجارب؟).

بالطبع لا أتحدث عن نجار طارئ على المهنة، بل نجار مشهود له بالبراعة في قرية جديدة سيتوجَّبُ علينا ابتكارها كي يُشيِّد النجار الواقعي حانة خشبية حقيقية تليق بك سكِّيرًا حكيمًا ذا صلعة فخمة وربَّما لحية صينية تجتذب الزبائن الذين سيتحلقون حول حلقات حكمتك التي ستحكُم زوايا تلك الحانة. فزبائنها لن يتوانوا في إمدادنا -إمدادك، تحديدًا- بحكايات لا حصر لها، ربما ضمَّنا المفيد منها في بعض الفصول. لكن عليك ألا تُسرف في الشرب وتنسى مهمتك الحقيقية. عليك أن تكون حكيمًا بما فيه الكفاية، وسكِّيرًا يشرب دون إفراط كما يشرب الحكماء، لنحظى بالحكايات التي سنرفد بها عملنا كي نتخطى عقبة الفصول التمهيدية. بعدها ستكون حُرًّا طليقًا تستطيع -دون توجيهاتي، بالطبع- اختيار الدور الذي تود القيام به في الواقع أو في حدود ما نرويه، كأن تصبح نادلاً (وهي مهنة لا ينصح بها بعض رؤساء الرِّوايات المخلوعين) يقدم الطعام والشراب للزبائن في بلدة نائية لم يسمع بها أحد، لا في الحياة الواقعية ولا في الرِّوايات.

لكنني أتفكَّر الآن في أمر آخر يقلقني أكثر من سواه.

إذا ما وجدت وظيفةً أخرى -أيًّا كانت تلك الوظيفة- في الحياة الواقعية أو في روايتنا هذه.. هل ستطاوعك نفسك لتتركني وحيدًا مع عاشقين خطيرين على شاكلة تفاحة الفاسدة ومسمارها الزنيم؟ هل ستجعلهما يستفردان بي لحياكة مؤامراتهما كي يكون حلمك الأثير ضحيتهما الثانية؟.. برغم أنني محاصر أصلاً في علبتي الفضية؟

تعرف جيدًا أنني لن أستطيع احتمال ذلك، تعرف ذلك جيدًا.

ثم إنني حلمك الأثير، وعليك -بل واجبك- المحافظة على حياتي، حياة سجينك الذي لا حول له ولا قوة. ألا تخاف أن يخطر في بالهما أنني أتجسس عليهما، وعندها قد يفكران باغتيالي؟ هل تحتمل فكرة اغتيال حُلم؟ ليس أي حلم كان، وإنما حُلمك أنت بالذات عزيزي الأصلع.. حلمك الذي سجنته طويلاً في علبة فضية بحجَّة المحافظة عليه؟..

لا أظن أنك ستحتمل رؤيتي مضرجًا في دمي لو تركتني وحيداً.

أعرف أن تفاحة لن تقتلني بنفسها، لكنها تستطيع الإيعاز لمسمارها بقتلي إن شاءت ذلك. وأنت لا تعرف من يكون المسمار، وما الذي قد يفعله إرضاء لها ولنزواتها الشيطانية.

هل ستعرِّضني لمصير كهذا؟ متناسيًا أنني من أنقذك من موت محقق بسرعة تصرفي لإنقاذك في آخر لحظة قبل أن يجف صلصال تمثال صديقك النحَّات، حين أعدت مجرى الأحداث إلى ما قبل زواجهما وإنجابهما.

ألا تردّ لي ذلك الجميل؟ ألستَ مدينًا لي بحياتك الثانية على هذه الصفحات؟

فإذا كنت لا ترى، حتى الآن، ما سيحدث لي في قادم الأيام، فإنني أرى مصيري وأستشرفه اليوم قبل الغد، لو تركتني وحيدًا بصحبتهما. وأنت تعرف تمامًا أنني لن أستطيع مواصلة حياتي حُلمًا دون وجودك قربي. لذلك أرجوك وأتوسل إليك ألا تتركني وحيدًا بين عاشقين على وشك الزواج مرة أخرى لتكرار محاولتهما السابقة. تغدَّ بهما قبل أن يتعشيا بي.

تغَدَّ بالمسمار، وإن سارعت وجعلته فطورك الإنكليزي

الدسم، فتلك ذروة لم يبلغها حكماء الهند ولا حكماء الصين ولا حُكماء حانات القرى الخشبية. هذه ليست واحدة من مبالغاتي، لأنني على يقين أنها ستوحي له بقتلي إن تركتني وحيدًا. أعرف ذلك، وأعرف ما تخطط له تلك التفاحة الفاسدة. تلك التي تنتظر بفارغ الصبر اختلافنا وافتراقنا، في أحد الفصول، لتستحوذ هي على كل شيء، وسترى صحَّة ما أقوله لاحقًا وستتأكد منه بنفسك.

لقد أعدت التفكّر فيما قالته، ولا أحسبها هيِّنة وساذجة بالقدر الذي ظنناه في غمرة فرحنا بالعثور على شخصيتين ملائمتين للعمل في مشروعنا. ولك أن تتذكر، عزيزي الأصلع، أنها سارعت إلى كتابة فصل سيرتها الذاتية وأدخلته عنوة بين الفصل الذي دعوتك فيه للتصالح والفصل الذي تحاورنا فيه وجهًا لوجه؟ دون استشارتنا - ألا ترى في ذلك علامة؟

لا تتركني وحيدًا، ولا تطمئن إلى المسمار لأنه سيفعل أي شيء تطلبه منه تلك العاهرة. يكفي أن تهمس، وهي بين أحضانه، في أذنيه الصغيرتين بهذه الجملة:

«مُسيميري، إن كنت بالفعل تحبني اقتل حُلم الأصلع».

الفصل السَّابع

سبحان الله، سبحان الله!

دونما خجل يسلبني أولويَّة كتابة الفصل الخاص بي، عقابًا على امتداحي وتقديري لأفكاره النيِّرة بمفردة: «يا لدهائك»، مانحًا خطأه وخطيئته تبريرًا رمزيًّا، في متوالية سرده، حين غلف عقابه لي بحالة اضطرابي ليوجد مدخلاً مقنعًا بنتائجه التي ستنبني عليها مقدماته التي جشم نفسه عناء تسويدها في الفصل الذي اتفقنا، تراتبًا، أن يكون من نصيبي. لينتهي إلى سخرية واضحة بجعلي حكيمًا في حانة عليه البحث عن نجار واقعي لبنائها، قبل أن يصرفني لأكون حُرًّا طليقًا ليقيِّدني بابتزاز عاطفي رخيص. ابتزاز معطوف على وهم احتمال اغتياله إن تركته وحيدًا، ليصل في نهاية أحبولته إلى هدفه الخفي:

دعوتي، صراحة، لارتكاب جريمة قتل!

لقد فكرتُ في كل الاحتمالات عندما وُفقت، بمساعدة عمَّتي العجوز، إلى فكرة المحافظة عليه في علبة فضية لكبح إيذائه لي وإلحاحه عليّ بروايته، بالأحرى رواية كوابيسه المؤرِّقة للآخرين.

لم أكن راغبًا في القيام بدور السجان الذي جثم على صدري

بعد أن تمكنت من تحجيمه وحبسه في تلك العلبة، وحين أثقل عليّ الشعور بالذنب التجأت إلى الرُّقية التي تطايرت أمامي بجملتها السِّحرية التي فككت شيفرتها، وكان بمستطاعي الاستفادة من خدماتها الجليلة لإقصائه نهائيًا من حياتي. لكنني آثرت التريُّث عن التمادي في استخدام منافعها التي كانت في متناول يدي، لا سيما حين سارع إلى طرح فكرة المصالحة المبنية على أسس التكافؤ والثقة المتبادلة ضمن الشروط التي اتفقنا عليها للقيام بعمل مشترك نبتدعه معًا من باب التسلية، وعدم إهدار طاقاتنا فيما لا طائل منه.

لست ناكرًا للجميل، ولن يكون بمقدوري تجاهل ما منحني إياه من خبرات وما ألهمني من أفكار. لكن ذلك لا يعني السماح له بالتطاول عليّ وعلى الأدوار التي يتوجب أو لا يتجوب عليَّ تأديتها، كما لو كان مخرج فيلم لا يُناقش في اختياراته. ليطلب مني، أخيرًا، وبوقاحة بُطِّنت بابتزاز عاطفي أن أرتكب جريمة قتل.

لم سمحت له بالتطاول عليّ منذ البداية؟ ألم أكن سيد الموقف؟ كيف ساءت الأمور لحظة انفراجها؟.. لتكون المحصلة الدراماتيكية قبولي، ضمنًا، بارتكاب تلك الجريمة. لقد صرت على دراية كافية بأساليبه المراوغة ودهائه الذي لم أخطئ في توصيفه به، رغم أنني عنيت، فيما عنيت، البُعدَ الإيجابي لصفة الدهاء التي أغضبته دونما مبرر. وما لا يعرفه في الغالب هو أنني أستكنه سلفًا تبريره الجاهز لو بحثت الأمر معه وجهًا لوجه، ليردَّ عليّ بكليشيهات ردوده التي حفظتها عن ظهر قلب:

«عزيزي، عزيزي الأصلع سيحدث هذا في الرِّواية فقط، وليس في الواقع. أنت تضخم الأمور أكثر من اللازم، ويبدو أنك تنسى أن

الشخصية التي كلفتك بقتلها ليست واقعية، ستقتلها فقط لحماية حلمك الأثير. لماذا تخلط بين الواقعي والمتخيل؟ ستقتل المُتخيل لا الواقعي. وعليك ألاّ تنسى أنها شخصية تخلَّقت عرضًا من ضلع تفاحة، ويحق لنا التخلص منها بالقتل أو بأية وسيلة أخرى. ولو كنتَ مُنصفًا لانتبهت إلى أنني لم أطلب منك قتل تفاحة، رغم أنها غريمتي، بل مسمارها الذي يهدد وجودي في علبتي الفضية».

هذا بالضبط ما سيرد به لو كنت من السذاجة لبحث الأمر معه. وهو رد جامع مانع لن أجد في جعبتي ما أفحمه به، رغم أنني وحدي من سيتوجب عليه، عمليًا ارتكاب جريمة قتل، مهما كانت الأعذار المُساقة لتبريرها. فجريمة القتل جريمة قتل، ولا يوجد ما يُبرر التملص منها أخلاقيًا بتلك الحجة أو بسواها من الحجج، في الواقع كما في الرِّوايات.

لم يطلبْ مني ذلك المطلب الصعب إلا لهدف مضمر لا أستطيع سبر أغواره. لكن السؤال الذي علي ألا أكف عن ترديده على نفسي:

أصلاً؛ ما الذي جعلني أسقط في فخاخه وأحابيله لتصديق سيناريو الرِّواية الطويلة ذات الكلفة العالية التي لم تعد روايتنا فقط، بل احتشدت صفحاتها برئيس خُلعَ في ربيع فصلين، وعائلة تافهة تقتلني وأطفال أبرياء يتوجب علي اصطحابهم إلى المدارس والمتنزهات، وصديق نحات أكرم ذكراي بعد مماتي بتمثال في إحدى ساحات المدينة التي اضطر لاختلاقها عنوةً من أطلال قرية صغيرة، ليتيح لي ملاحظة براعته في سهولة الانتقال من قرية عجائز إلى مدينة مُتعددة الساحات!

ما الذي دعاني لتصديق إيحاءاته (وما ضمَّنه بين أقواسه التبريرية) التي انجَررتُ وراءها كنعجة منقادة إلى المسلخ؟ ما الذي جعلني أصدق كل ذلك؟ لم لا أفكر في الأسباب التي دعته لاختلاق ذلك السيناريو المُتقن؟ أليس الخوف من قضاء حياته في علبته الفضية هو ما دفعه لابتكار الفتاة وعشيقها؟ . . ومن ثم، رويدًا رويدًا، دفعي لقتل العشيق بحجة حمايته من اغتياله؟ وما أدراني بصحة ادعائه حين قدمت تفاحة نفسها بنفسها، دون مقدمات، في سيرة ذاتية مُلغزة، هكذا دونما مناسبة، ودونما اتفاق سري بينهما؟ . .

والأدهى والأمرّ أنه وجد فيّ الاستعداد لتصديق ذلك السيناريو تخاذلاً واستسلامًا، رغم امتلاكي لسلاح كان في يدي منذ البداية:

جملتي اللذيذة، جملتي التي لا تُسرق كتيجان الملوك.

ألم يكن حلمي الأثير هو من أوحى لي بكل تلك الأفكار؟ هل انسياقي لوهم كتابة رواية هو ما دفعني إلى حمى الهذيان بامتلاك جزيرة؛ لم يلبث أن استغله بفكرة الرُّواة المُساعدين الذين قد ينظمون أنفسهم في نقابة عمالية ينتخبون لها رئيسًا لن يتوانى، بعد فقرات معدودة، أن يصبح رئيس دولة علينا الإطاحة به؟

ما شأني وتلك الأفكار بكافة أبعادها السياسية التي لم أشغل نفسي بها طوال حياتي كصيرفيٍّ يسعى لاستقرار الاقتصاد، وليس تلك المؤآمرات السياسية والانقلابات العسكرية التي لا تقود إلاّ لكوارث نحن في غنى عنها.

لست كاتبًا ولن أصبح قاتلاً.

كنتُ وما زلت مجرد أصلع أحب صلعته، واستطاع حمايتها

بتقنيات حبه المبتكرة من تهكم الآخرين عليّ وعليها. صحيح أن فكرة المشاركة في شخصيات رواية قد راقتني بتأثير من حلمي الأثير، لكن عليّ أن أكون أكثر شطارة منه، إن كان لا بد لي من المشاركة فيها. وعليها أن تكون رواية تمثل رؤيتي أنا الأصلع، وليس رؤية حلمي، رغم ادعائه المُراوغ والمُتفذلك بأن دوره لن يتعدى دور شخصية ثانوية ترفه عن الشخصيات الثلاث المحورية، مُفتعلاً هامشيَّة دوره للإيقاع بي حتى أرتكب تلك الجريمة.

على الرّواية أن تمثلني على حقيقتي، لا كما تريد أهواء حلمي الأثير، لأتحدث في فصولها عن نفسي، عن محيطي الذي وُلدت وعشت فيه طفولتي وشبابي، وعن أصدقائي الحقيقيين، لا أولئك الذين دعاني هربي منه إلى التفكير في استحداث جهاز مخابرات لمراقبتهم في فردوسي المزعوم. ولن أتنكر له بالاستغناء عن أفكاره الخلاقة وعن خدماته الجليلة؛ لأنني سأكون في حاجة ماسَّة إلى شخصيات خيالية تثري عملي كالفتاة وعشيقها، شرط أن يكونا ظلالاً لشخصيات حقيقية أستقي تفاصيلها من الحياة التي عشتها. لكن الخطوة الأولى للنجاح هي تطعيم شخصياتي الخيالية بوقائع من حيوات شخصيات تقاسمتُ العيش معها لتكون مصدرًا ثريًا للمُتخيل في رواية الأصلع. فأغلب كُتاب الرّوايات، الذين قرأت لهم، حاولوا دائمًا -وببراعة يحسدون عليها- إخفاء شخصياتهم الحقيقية وتمويهها بتفاصيل خيالية، رغم أن القارئ النبيه يستطيع دائمًا، وبقليل من الجهد استشفاف ما يخفونه في البرزخ الفاصل بين الواقعي والمتخيل. فالحياة الحقيقية لتلك الشخوص هي ما تُكوِّنُ بصراعها المحبوك جيدًا أرضية متخيلة لرواية يقرأها قارئ حقيقي يستطيع في النهاية تقييم براعة كاتبها من فشله.

كيف يمكن لي المشاركة في تأليف رواية من حوار ثنائي مبعثر في فصول متباعدة، بيني وبين حلمي الأثير؟ ثم من فكر في كتابة رواية أصلاً؟ أنا أم هو؟.. ألم تكن الفكرة في صيغتها البريئة أبسط من كل ذلك التعقيد؟ ألم يكن عليّ المحافظة عليه في علبته تلك، إن لم أكن قادرًا على روايته؟ ما الذي جعل من فكرة روايته للآخرين فجأة مشروع رواية مكتوبة؟ رواية بفصول مرقمة وتفاحات وحانات مثبتة بمسامير حكماء ونحّاتي تماثيل مخلصين لي بعد وفاتي ورؤساء مخلوعين وانقلابات عسكرية وحفلات يخوت وعجائز حكيمات ومخرجي أفلام وثائقية قصيرة وجرائم قتل لا وجود لأية مبررات فنية أو واقعية لارتكابها.

لم القبول بكل هذا واستساغته اعتقادًا أنه لبنة صالحة لمعمار رواية حقيقية تُقرأ وتخلدني بعد مماتي؟ ولمَ قبلت بهذا الاسم الذي أسبغه علي حلمي الأثير؟ لم لا يكون لي -في الرّواية- اسم حقيقي مثل الجميع يشف عني ويدل عليّ، على بلدي، ديانتي وطبقتي الاجتماعية. «الأصلع» كنية لمجهول، وأنا لست مجهولاً على الأقل بالنسبة لنفسي، راويًا كنت أم مرويًا. لا بد لي من اسم حقيقي يقنعني ويقنع القراء.

لا بد من وشم حقيقي إن كان لا بد من أثر لاحق.

ثم إنني الوحيد بين كل الصُّلع في العالم الذي تفاخر إلى أبعد الحدود بصلعته. قد يفعل البعض ذلك، لكنهم في العمق يخجلون من رؤوسهم الصلعاء. وكنت الوحيد الذي أحب صلعته بكل صدق، دون أية عقد مخفية، وحُلمي على علم بتلك الحقيقة،

وللأسف استغلها واستثمرها في مناداتي بها لأنه كان يعرف، منذ البداية، أنها نقطة ضعفي المحببة، وهذا صحيح إلى آخر الشوط. لكنها صلعة تخصني وحدي، لا بصفتها كنية يُعمِّمها حضورًا وغيابًا، تقديرًا أو سخرية، حلمي الذي -للأسف- لم يعد أثيرًا بعد توالي حماقاته التي لم تعد تُحتمل.

عليّ التفكير بمعزل عنه، سواء في حياتي العامة التي عشتها بصورة طبيعية كغالبية الناس أو في مشروع الرِّواية (الذي إن تحقق، ربما سأهديه إليه، عرفانًا له بشراكة الفكرة). ألا يكفيه عرفان بالجميل كهذا العرفان؟.. أما أن أجعله الرأس المدبر وشريكي الأثير في التخطيط لأحداث الرِّواية وانتقاء شخوصها الفاعلة والخاملة، فضلاً عن دفعهم إلى مصائر غامضة، بتأثير منه، فذلك ما لن أفعله بعد اليوم. سيكون الفشل ذريعًا ولن أبيع نسخةً واحدة -لو تراجعتُ عن نشرها في موقع إلكتروني للكُتَّاب الهواة- وقرَّرت طباعتها ونشرها في إحدى دور النشر المُحترمة.

سأخطط وحدي لكل شيء كما فعلت في السابق؛ عندما قدت خطوات حياتي الناجحة بعصامية وبالطريقة التي أردت، وإن تعرضت -لا سمح الله- للفشل فسأكون وحدي المسؤول والملوم. أما إن كان النجاح من نصيبي فستعود ثماره إليّ وحدي. وعندها، عندها لن ينسى قرائي الأعزاء حلمي الأثير، بل سيتذكرونه من الإهداء الذي سيتصدر كتابي، كتاب الأصلع.

ما حاجةُ حلمي إلى وضع اسمه على الغلاف جنبًا إلى جنب مع اسمي أو كُنيتي.

كُنيتي وحدها تكفي: الأصلع. وبفضلها، بفضل غرابتها اللافتة بين أسماء الكُتاب، بفضل شجاعتي في اختيارها دون سواها اسمًا

أدبيًا لامعًا كصلعتي سأصبح مؤلفًا مرموقًا لا يستهان به بين كتاب الرِّوايات. وتلك ضربة معلم! ضربة معلم موفقة لم يهتد إليها حتى الشاعر علي أحمد سعيد الذي أساء إلى نفسه عندما اختار اسم أدونيس. الاسم الذي جلب عليه مصائب واتهامات لم يستطع التخلص منها في ردوده على خصومه، كما في ترفعه عن الرد عليهم، لأن قراءه عابوا عليه ترك اسمه العربي في الوقت الذي يكتب إبداعه بلغتهم العربية، متناسين محاسن أسطورة أدونيس التي -خطأً- خمَّن أدونيس استحسانهم إيَّاها.

لن أكرر خطأ علي أحمد سعيد.

بفضل كُنيتي، بفضلها سأكون الكائن المحسوس -لا الشخصية الروائيَّة-، ذاك الذي سيتوجب عليه مواجهة الصحفيين والنقاد وبرامج الإذاعة والتلفزيون والمترجمين الذين سيتنافسون على ترجمة روايتي إلى لغات أخرى وتوقيع العقود مع دور النشر واستلام الشيكات وإيداعها واحدًا إثر آخر في حسابي البنكي.

حساب الكاتب اللامع هذه المرَّة، لا حساب الصَّراف.

ومن يدري، ربما تطلب الأمر توظيف سكرتيرة خاصة تُرتب مواعيدي مع الصحفيين، وحجز تذاكر السفر والغرف المطلة على الخلجان والبحار في البلدان التي سأكون ضيف شرفٍ على جمعياتها الأدبية وجامعاتها التي ستدعوني لإلقاء محاضرات مدفوعة الأجر، عرفانًا بنجاحي الأدبي منقطع النظير.

وبدوري لن أبخل عليهم حين يسألونني عن سبب اختياري هذا الاسم الغريب -الذي سيبدو لهم منفرًا ولا يشجع على اعتماده اسمًا أدبيًا- لن أبخل عليهم بتدبيج أسطورة مماثلة لأدونيس سيتعيَّن عليّ

تلفيقها لأرويها عليهم في لقاءاتي وحواراتي حتى يترسخ الاسم ويُتداول ويشيع، نكاية بحلمي الأثير.

ووحده اسمي الأدبي، وحده الضامن لتمتعي بنجاحي الخاص، وعليه سيكون اعتمادي أولاً وأخيرًا. أما إن بقيت أسيرًا لحلمي الأسير في علبته، وأفكاره الجهنمية فلن يطول الوقت حتى أبلغ هاويات سيقتادني عنوةً إليها:

قضاء المتبقي من حياتي في زنزانة بأحد السجون بتهمة فضيحة مهينة أخلاقيًا لن يتوانى حلمي، الذي لم يعد أثيرًا، في تلفيقها حين يغريني -لضرورات المجد الأدبي- بتعاطي الحشيش بمعية تفاحة ومسمارها في فصل لاحق، لينزوي في علبته بعد أن يتبرَّع بخبريَّة تعاطينا نحن الثلاثة لمادة ممنوعة في ظل القوانين الصارمة لحكومةِ نسخةٍ مُنقحةٍ من حكومات جنرالاته، ربما هيأ لها فصلاً خاصًا كي يقوم بانقلاب عسكري ناجح، هذه المرَّة، نكاية بي وبنجاح اسمي في هذه الرّواية وما سيليها من روايات أزمع كتابتها.

هذا السيناريو محتمل ولا أستبعد حدوثه، فمثله لن يتورع عن اختراع المزيد من الأعذار وحجج التملص حين أرسلُ له رسالة استعطاف من السِّجن أطالبه فيها بالتوسط لدى الجنرال الجديد للعفو عني، لأنه ببساطة لن يوصل رسالتي إلى الجنرال، كي يستمرئ اللعبة حين يحرف مسار الأحداث ليقنع القراء، في فصول لاحقة، أنني قاتل محترف ومتعاط للمخدرات -وفقًا لدوري المخطط له منذ البداية، بعد أن فشلتُ في القيام بدور سكِّير مُحترم وحكيم.

هذا ما سيقوله، مُبرِّرًا الأمر بحكمة وبمصير محتوم:

تلك خيارات الأصلع، وذاك مصيره الرّوائي والواقعي.

ومن يدري، من يدري، قد لا يكتفي بعقوبة السجن حين يفكر في تنقيح مخططه النهائي بعد تنصيب الجنرال حاكمًا لإرضائه؛ حين يجعل من حادثة شنقي علنًا إثر صدور الحكم مفاجأته الكبرى في الفصل الأخير، فصله الذي سيتفنن في تشويق قارئي للوصول به إلى الصفحة الأخيرة منه، حيث سيكون المشهد احتفاليًّا كما كان دائمًا في جمهوريات الموز: حلمي الأثير والجنرال، بعد حادثة شنقي علنًا، يحتفلان معًا بمناسبة انتهاء حقبة الرئيس المخلوع في حفلة اليخت الفاره، كما بتتمَّة الأحداث الروائيَّة التي انتهت بحادثة شنق الأصلع، قاتل المسمار ببرودة دم متعاطي مخدرات، المتآمر على العهد الزاهر لجنرالنا المحبوب، وتلفيق تهمة الخيانة العظمى، في محاكم عسكرية مرتجلة، سيكون أسهل من ارتجال تهمة تبريريةٍ مُضافة:

استمرار الأصلع في ولائه للرَّئيس المخلوع.

الفصل الثَّامِن

محظوظة أنا، محظوظة أنا فعلاً. محظوظة ومحظوظة لأنني فتاة لعوب بالفعل.

أقولُ هذا بتكرار مقصود، رغم أنني لم أمِلْ يوماً إلى ما توحيه الدلالة القاموسية الضيقة للصِّفة، ولا إلى ما قد تثيره من فنتازيا إيروتيكيَّة، بل أتقصَّد وأتصيَّد ظلال معانيها اللامتناهية في مطلق الكلمات، حين أتيحت لي فرصة البوح بما لم أستطع البوح به من مشاعر وأحاسيس، كما سأبوح بها في هذا الفصل الخاص بي وحدي من رواية هذين المخبولين اللذين تركتهما يُثرثران ويتصارعان كدِيكَة التِّيبت.

لقد وهبتهما أكثر مما يستحقان، ولم أحصل على ما أستحقه للقيام بدور قيادي ربما عاد بالفائدة عليهما في نهاية المطاف. لذلك سأنتقم لكينونتي التي شاءا أن تكون هامشية، وحسباها كينونة عابرة يستطيعان التصرف بها كما يريدان. إنها الطريقة المُثلى والوحيدة لرواية نفسي بنفسي لنفسي قبل كل شيء، ولقارئي العزيز، رغم أنها طريقة، في العُمق، لا تعني لي شيئًا ملموسًا عدا اعتبارها وسيلة عبور مريحة من برزخ كينونة لبرزخ كينونة آخر يمكنني من استعادة

روح مسماري الخجول بروحه الشريدة أبدًا عن جسدي وشهوانيته الطافحة، روحه الشريدة عن شبابي الذي نذرته له وحده، كما نذرت أحلامي التي لم أهب وردة قرنفلتها الرَّطبة لأحد كما وهبتها لمسمار أحلامه القاحلة.

ما ذنبي إن كان عشقي له كبيرًا؟ وما ذنبي إن كان اسمه الحقيقي المسمار بكل ما يوحيه، في قاموسهما الضيق، من دلالة خاطئة يُضاعفانها تلقائيًّا حين يُربط اسمه بما يوحيه اسمي من علامات لا تدل إلاّ على تفاحة ناضجة حان أوان قطافها إيروتيكيًّا، إن لم تسقط تلقائيًّا كما سقطت تفاحة مُلهمي إسحاق نيوتن.

هو مسماري، وأنا تفاحته، وليكن ما يكون.

أنا تفاحته، وتلك بداهة روائيَّة لن أسمح لأحد سواي بروايتها لقارئي العزيز. قارئي الذي وعدته بالإفصاح له رويدًا رويدًا في الفصول التي سأتمكن من اقتناص كتابتها عن حياتي المديدة طولاً وعرضًا، حياتي المُزدوجة قِصرًا وطولاً -كما وصفتها في سيرتي الذاتية المقتضبة-، ليعرف ما لم يعرفه أحد عن تفاحة وأوار غرامها بمسمارها الخجول.

لا أنسى ذلك الوعد، ولن يخيفني أن أفصح له بمكنوناتي داخل الرِّواية أو خارجها؛ لأن حياتي المزدوجة وهبتني سماوات السُّمو على ترَّهات الملوك والرؤساء المخلوعين، ووزارات إعلامهم الكئيبة، ورقبائها الأغبياء، واقعيين كانوا في مكاتبهم المُملَّلة أم مجرد شخصيات روائيَّة، لأنني لا أميز، حقيقةً، بين الأمرين بسبب الإفراط في ممارسة المزايا التي أتاحتها لي حياتي

المزدوجة. حياتي المُغَيَّبة تلك التي سأفصح عن أسرارها -وهذا وعد قاطع- في فصل سِرِّي لن يتمكن من قراءته سوى اثنين: مسماري الخجول وقارئي العزيز، ولكن بإسهاب وإفصاح، عكس ما كان عليه الحال في بعض الجمل التي استغلقت على الأصلع وحلمه في سيرتي الذاتية المقتضبة.

ففي كلتا الحياتين -هذه وتلك المُغيَّبة- التقيت كثيرين، داعبت كثيرين، واضطررت لمعاشرة كثيرين؛ كُرهًا بعض الوقت، طواعية -أو برغبة منقوصة- معظم الأوقات. وبرغم ذلك، برغم لذاذة ذلك لم يأسرني أيٌّ منهم، بعض الوقت أو كل الوقت، مع أن بعضهم كان وسيمًا إلى درجة لا تقاوم بالنسبة لفتاة لعوب مثلي. فتاة لم تخجل من السُّفور تعبيرًا عن شهوانيتها الطافحة بكل ما لديها من أسلحة الإغراء والإغواء، لأسباب ستتكشف، لاحقًا، لقارئي الصَّبور.

ففتاة على شاكلتي، حُرَّة، جميلة ومتطلبة لا يُشاكلها أحد؛ تمكنتْ من ممارسة سحرها على كثيرين بالتجاهل مرة، بنظرة ثاقبة مرات لا تتكرر إلاّ بعد أن تجعلهم يتوددون إليها بعسل الكلام وحليبه؛ ابتداء من السَّاحر القديم حتى شبح آخر رئيس أطيح به على هذه الصفحات. من بدايات الحلم الأثير حتى نهايات أصلعه الأخرق. من شغف قارئي العابر حتى شغف قارئي العزيز؛ أعترف الآن بأنني لم أتولَّه ولم أذب ولهًا واشتياقًا وحبًّا كما تولهت به واشتقت إليه وأحببته. هو، هو دون سواه ذلك المسمار، رغم خوضي لمغامرات جنسية مثلية في شبابي مع بعض صديقاتي. بيد أنني لن أترك مسماري المحبوب وقارئي العزيز في حيرة من أمرهما وأمري، لأنها كانت -إن كان لا بد من توصيفها- مجرد مغامرات

رائعة مارستها معهن، ولن أفصح أكثر من ذلك اتقاء لفضح السريَّة التي اكتنفتها، ولأنه موضوع في بلادنا لا يُحبذ التطرق إليه حتى في الرِّوايات التي تأمل النجاة من مقص الرَّقيب.

مع ذلك لن أخذل قارئي العزيز بتقية الإيجاز، لأتركه وحيدًا يُكمل المشهد پورنوغرافيًّا، دون أن تسعفه كلمات الوصف. فقد كنت في السَّرير بارعة أكثر من البراعة ذاتها في أداء دور فحولة كانت رفيقاتي يفتقدنه بسبب الأوضاع الاجتماعية التي تصعِّب عليهن ممارسة الجنس بحريَّة، ودون رقيب، مع نظرائهن الذكور. كُنَّ يائسات حقًّا، وكنتُ أمتعهن حين أقوم بذلك الدَّور أو الدَّور الآخر. ولا أنكر، لا أنكر أنني كنت أستمتع بممارسة دوري الفحولي إلى أقصى ورقة توت في جزيرة السُّلحفاة أو في الفردوس نفسه، حيث استمتعت حتى الغيبوبة في أدنى جُزر الهذيان الجسدي بكرم ذوباني كالزبدة سواء معهن أو في بذخ عطائي اللامُتناهي بين أذرع رجال وهبتهم طوعًا -ورغمًا عني، أحيانًا- لبَّ تفاحتي ولُبابها.

لكنني برغم تلك العلاقات الحميمة مع النساء والرجال، وبرغم ما أكسبتنيه من معرفة بقوة الدافع الجنسي -شاحن الحياة التوربينيِّ المُزدوج-، شاحنها الضَّاغط بسلاسته لدى الجنسين؛ لم أسمح لأحد بولوج سويداء قلبي وبويضاته عدا مسماري الخجول، مسماري الصامت، مسماري البريء، مسماري المتلعثم حين تخونه لثغة اللغة أمام الزبائن في المطعم البحري الذي يعمل فيه، ولا يعرف حتى كيف ينتقي مفردات جملة أو عبارة تجول في ذهنه الصَّغير، ذهنه الأصغر من رأس مسمار، حين يحاول جاهدًا التعبير عن أحاسيسه نحوي ومشاعره تجاهي، فضلاً عن كيفية انتقاء

العبارات المؤثرة التي يحاول إتقانها في مخيض فشله الآسر والرائع حين يمزج حليب الكلام بزعتر فراشات عسله العبيط توددًا وتقربًا إليّ.

أعترف، وأعترف بسقوطي رغمًا عني، بكل الرضى، وبكل الرضى في حبائل حُبه. حُبه الذي دلتني عليه حواسي الفريدة، حواسي التي جعلتني أستشعر أنه هو الآخر أحبَّني بمجرَّد تجلِّيَّ أمامه عدة مرات في المطعم البحري.

لكنه، للأسف، لم يكن يُتقن التعبير عن حبه لي.. لا بالكلمات فصيحة ودارجة، لا بالقُبل، لا بالمداعبات الحُلمية ولا حتى بالتمارين الجسدية والرُّوحية التي بات لزامًا علينا ممارستها طقسًا غير متحقق في تخوم الواقع. لأنني حاولت ذلك مرارًا وتكرارًا، حاولت ذلك. لكن الإفلات من تكرار مرَّات محاولاتي، مرَّات ومرَّات، كان رد فعله الغريزيّ الوحيد. في حين كان طموحي أبعد من ذلك، وأكثر تطرفًا. فقد كنت أطمح إلى تمرين التمرين ذاته صعودًا به إلى ذُرا الرغبات، ذراها الطافحة، ذراها التي لن تتمكن من بلوغها وحدها تفاحةٌ دون مسمارها الخجول.

لقد أردته دائمًا، كما أردته دائمًا ليكون معي خطوة بخطوة، لكنه دائمًا يصل قبلي، ودائمًا يكون عليّ الانتظار طويلاً بجسد توَّاق إلى ذُرا صعَّدتها لهاثًا، من قبل، مع أخريات وآخرين، ورائحة قرنفلتي الورديَّة تتبدَّد وحيدة في خياشيم الرياح. ودائمًا، للأسف دائمًا، كان يتعين علي الوصول وحيدةً، وحيدة بقدم لذةٍ واحدة.

لقد أردته، كما أردته وأردته أن يكون معي، وعليّ استعادته إليّ بأية وسيلة متاحة لهزيمة شروده الدائم وخجله الذي لا تُحتمل رقَّته. لا أنكر أنه هو أيضًا له مشاعره وملاحظاته التي يبوح بها

والتي لا يبوح، كما لا أنكر ما استبطنه عبر التخاطر. فقد كنت أعرف ما يمكن أن يدفعه إليه ذلك الخجل من استهجان أخلاقي ساذج لشبقي الجنسي العارم بمازوخيته الطافحة وساديَّته التي تطفو رغمًا عني على وسادتنا الخالية من تناغم إيقاع فرَّ بجناحيه كلما اقترب منه أريجُ تفاحتي. لا أنكر تلك الحقيقة، لكن علي ألاّ أضيعه بأي ثمن، وإلاّ فما معنى هذا الحب الذي يفتت ذرات جسدي في روحه، تمامًا كما هو العكس صحيح ودقيق وقاطع ككلماتي هذه في قلبه، حين تجلَّيتُ لهُ مرَّاتٍ قلائل في المطعم البحري، ذلك النادل البسيط، ذلك النادل الخجول.

روحي مُلكه وروحه ملكي، لكن جسدينا لم يستطيعا، بعدُ، الوصول إلى ذروة الإيقاع المبتغى والمشتهى في تموّج وسادة ليالينا وشموس نهاراتنا المفقودة لأسباب ستتجلى، كما وعدت قارئي العزيز، لاحقًا. وبالتأكيد فإن من حق قارئي العزيز، وواجبي تجاهه أن يكون في قلب الصُّورة، لا في تخومها. ليكون على يقين تام بأن ما جعلني أتصادف وأتقاطع ومشاريع الأصلع وحلمه الأثير؛ لأصير أيقونة عملهما الأنثى، ليس سوى واحدة من مُحاولات استعادة مسماري الخجول في بيئة حُلمية تمكِّن كلينا من الالتقاء بصورة طبيعية كما التقى، كما يلتقي وكما سيلتقي ويلتقي عاشقان فرَّقهما ترابُ الواقع وجمعتهما زهرة الكلمات.

وربما، ربما كانت رياحي وخماسيني التي هبَّت على الأصلع وحلمه الأثير لمشاركتهما فصول ما يدعيان أنه روايتهما، ربما كانت علاجًا ناجعًا وسُلمًا يصَّاعد بهما معًا للوصول إلى انسجام منشود لإيقاعهما الذي لم يضبطا ساعتيه على زمن واحد، زمن خالد في الأبدية كما في برزخ الأيام ولياليها. وبمشاركتي لهما

أحداث فصولهما، بمساهمتي المتواضعة -وقليلاً ما أتواضع، قارئي العزيز-؛ ربما استطعت استعادته إليّ جسدًا وروحًا ومسمارًا يمزق، في وحشة الليالي الطوال، وسادتي الخالية إلاّ من خياله.

أعرف أننا سنكون رهينة أحداث ستعصف بنا في بوتقة المَرويّ، ولن يكون ثمة مجال حيوي لأي تحفظ قد يفرضه الواقع عليهما. لكنني عازمة على تحرير مسماري من خجله وشروده الدائم لتهدأ بوتقة أخرى ما زال أوارها دفاقًا في امتزاج صهير بُركان حُبي العذريّ وشهوانيتي المُتقدة، لو تطلبت الأحداث ذلك: أحداث استعادته مسمارًا إلى تفاحته المُتجسِّدة في حياتها الواقعية، طازجةً ويانعة كتفاحة مُلهِمي نيوتن، خارج ما طفق يرويه الأصلع وحلمه الأثير بعد استحواذهما على فصلٍ كتبه، كما يبدو، كاتبٌ مّا على لسانٍ سارد لم يظهر بعد لاستكمال فصله اليتيم طمأنة لقارئ ينتظر بفارغ الصبر استكمال أحداث ذلك الفصل، أو في الأقل ليُفنِّدَ الأصلع وحلمه ويُحاججهما فيما آل إليه المسرد الروائي الذي تشابك وتعقد بانضمامي إليه.

في كل الأحوال -عاد الرَّاوي الأصلي، أم لم يعد- سأستعيده مسمارًا لن يكلّ أو يملّ من قضم تفاحته المُشتهاة. سأستعيده ليستعيدني هو دون خوف أو هلع من أصفاد الأسر التي كبلتنا بها اشتراطات واقع واقعيّ لا يكف عن المبالغة في حماقات واقعيته.

وإذا كان لا بد من إنصاف صغير لا أرى غضاضة في البوح به، فإن الأصلع وحلمه الأثير ليسا ذينك المتعجرفين كما اعتقدتُ في البداية، لأنهما اختارانا -بعد أن صادفتهما، قارئي العزيز- لمشاركتهما ما يعتقدان أنه عملهما الروائي، طالبين مني مدًّ يد العون لهما للرقيّ بمسرد أحداثهما المُتعثر في نظر قارئ أضاع

بوصلته بين ما كان يرويه راوي الفصل الأول، وما تداعيا في روايته تباعًا، لكنني لا أنظر للمسألة من وجهة النظر تلك لأسباب وجيهة، سيسمح لي قارئي العزيز بإيضاحها له:

بعد تجاهل الأصلع وحلمه الأثير لما كان يرويه راوي الفصل الأول؛ كان بإمكانهما الاستعانة بشخصيات أخرى، لكن ذلك سيعني بالنسبة لي ضياع فرصة ذهبية لا تتكرر في حياتي الثانية؛ فرصة اللقاء بمسماري المُسمَّر طيفه أمام عيني ليل نهار. وليكن ما يكون في نهاية المطاف؛ ليفترض الأصلع افتراضاته وليتشاور بشأنها مع حلمه الأثير، وليتخوف حلمه الأثير مني قدر ما شاء له الخوف في عُلبته.

ما شأني أنا؟ وما همَّني إن كنا أنا ومسماري الخجول مجرد افتراض فضفاض يتهادى في مخيلتهما؟.. ألن أحقق بمساندتهما غير المقصودة لبَّ ما أصبو إليه؟ ألن أقترب من محبوبي لأتمكن من تجاوز تلك العلاقة الصعبة؟ تلك التي لم أستطع الفكاك من سحرها، كما لم أستطع تفادي استمرارها وديمومتها في مفازة اشتراطاتها الواقعية؟

لم لا أقنع حبيبي بالمشاركة في رواية الأحداث، وحاجة الأصلع وحلمه الأثير إلينا شخصيتين تحلمان حُلمًا آخر في روايتهما، حلمًا يوازي حلمهما ليغتني عملهما بالعناصر التي يفتقدانها حالمًا وحُلمًا؟ حينئذ، حينئذ فقط سيقتنعان ويوافقان ربما على مشاركتنا مشروعهما هذا بالعمل من داخل الحلم لتقويض الحواجز والأسوار التي لم يفتأ واقعنا الصغير في رفعها حاجزًا إثر حاجز. هكذا، سيتكامل انسجامًا ما كنا جميعًا نصبو إليه.

على صعيد آخر، هل سيكون الأصلع وحلمه مستعدين للتعاون

لو عرفا بما يدور في بالي: أي حلم حُلمهما المسرود من زاوية أخرى؟.. لم لا أتحول وأكون كائنًا حلميًّا يتحول، بفعل الزمن، إلى كائن واقعي كالأصلع تمامًا؟ - إن كان شخصية واقعية، كما ادعى.

لم لا تنحو الأحداث منحى آخر غير الذي يخططان له؟

فإذا ما كان عليّ المشاركة في أحداث رواية لا علاقة لي بها أصلًا، فلا أقلّ من كسب معركة الفوز بمسماري.

لم لا تلعب، إذًا، تفاحة لعبتها التي لن تضر أحدًا في واقع محسوس أو حلم ممسوس.

الفصل التَّاسِع

تردَّدت وتردَّدت أكثر من مرَّة، ولأكثر من سبب مِهنيٍّ وأخلاقي قبل قراري كتابة هذا الفصل، بيد أنني لن أراعي تسلسل السرد الذي ألِفه واعتاده قارئ الأصلع وحلمه الأثير.

سأكون حاسمًا ودقيقًا، صريحًا وصارمًا فيما أزمعت القيام به، بعد تردد طال، دونما اضطرار لمراعاة مشاعر الرُّواة وقرائهم حتى تنجلي الحقيقة كما سيتوجب عليها أن تنجلي وتتوهَّج، فيما بعد، تحت شموس فصول التنقيح.

لقد تابعتُ ما يحدث على هذه الصفحات منذ البداية؛ وبدا لي غريبًا ما حدث من تحييد تام وتجاهل مقصود لما سرده الرَّاوي المجهول (حتى الآن) في فصله الأول بعد دحض مَسرَده برواية الأصلع وحلمه. وعليه، فإن استباق الأحداث المرويَّة، من كلا الطرفين، بروايةٍ أخرى، روايةٍ نقيض ليست من شِيمي ولا أخلاقياتي التي ربَّيتُ نفسي عليها؛ بيد أن الثنائي الذي حتمًا ألفه القارئ، لفكاهته ولكثرة اعتياده التناوب على فصول لا تمتُّ لأي نسق روائي مُترابط بصلة، مهما بُولغ في تأكيد محورية شخوصه في محاولة إقناع يائسة، لا جدوى منها حتى في تبرير ظهور أو اختلاق الأصلع وحُلمه لشخصية تفاحة ومسمارها الخجول، بعد تغييب

قسري لراوي الفصل الأول وبطله. فالأمر برمَّته، في نظري، أقرب ما يكون لتمرُّد شخصيات كاتب وتنافسها في صراعها الدؤوب لبلوغ حظوة ما، على حساب شخصيات مُؤسِّسة هي من كان عليها أن تكون الشخصيات المحورية.

بطبيعة الحال؛ لن أتنكر لبراعة الأصلع وحلمه في التآمر على ما كان يسرده الرَّاوي في فصله الافتتاحي، لتحدث مفاجأة انزياح سردي، إن لم أقل بتر وقطع لتسلسل الأحداث المرويَّة في إطار التدوير وورشة السَّرد. وقد كان الأصلع وحلمه من البراعة بمكان لإلهاء قارئهما المُفترض -كما يُسميانه- بحضورهما اللافت حقًا، لينسى مع تطور الأحداث مصير البطل الأساسي.

وما جعل لعبتهما خلاقة بامتياز توصلهما لإقناع القارئ بفكرة تقبل شخصية تفاحة التي شاكستهما بسيرتها الذاتية تقصدًا منها للبذخ في تزكية حضور إيروتيكي صارخ قد يمكنها من أن تنسج، هي الأخرى، قماشة روايتها بروِيّة مفتعلة، تمهيدًا لإقناع القارئ بعقدة روائيَّة وحلٍّ يبرِّر حدثًا لم يحدث، حقيقةً، ضمن اشتراطات الواقع الروائي واحتمالاته المفتوحة تناصًا أو تلاصًا أو استطرادًا يتداخلُ فيه الأول والتالي.

الأمر، إذًا، لعبة مكشوفة. ولأنه كذلك، ربما كان من الأجدى لقارئهما المفترض أن يعود بهما إلى أُسِّ اشتغالهما الخادع حين حاصراه في قلعة حصرهما لموضوع الدِّلالة اللغوية للأحلام ضمن حيز أضيق من فسحة الضيق ذاتها، فالأصلع وحلمه اختزلا المفهوم الشائع لأحلام المنامات وابتسراه في صيغ حلمية تبادلاها معا، حالمًا وحُلمًا مخلومًا، دونما توضيح لقارئهما المفترض، قارئهما الذي -كما افتراضاه- افترضا أيضًا سذاجته المطبوعة منذ

اختلاق هذه المخطوطة التي تورط في الاهتمام بها وقراءتها، ليصدق واهمًا لعبة الحالم وحلمه المؤرق، ناهيك عن كيفية تخلص الأصلع من حلمه، ليصدق القارئ إمكانية استنباط حلول سحرية من صندوق عمّة الأصلع؛ لينتهي حلمه المُشاكس حبيسًا في علبة فضية.

وبغض النظر عن مدى تصديق قارئهما المفترض لفرضيَّتهما التي فيما لو تآلف وإيَّاها خيالاً في الواقع، أو واقعًا مُتخيلاً لتعثر كقارئ -أضحى الآن واقعيًا- في كلتا محاولتيه، بيد أنها فرضية غير صحيحة، على صحَّتها قصصًا مسرودًا لعدة أسباب؛ لن يكون آخرها ولا أولها حصر خصيصة الأحلام في ثنائية هي من التبسيط المُخلّ بحيث لا يمكن لقارئ واقعيًّا كان أم مفترضًا تقبلها على علاتها، لو تنبه إلى منهج تحليل مبسط لهيولى الأحلام التي ربما بادرتْ بطرْق مخيلته تباعًا وإلى ما لانهاية، ابتداء من أحلام اليقظة وصولاً حتى شفير الكوابيس الحقيقية.

لذا أستطيع القول، إن ثمة خصيصتين لطبيعة الإفصاح: كتمان مفضوح واعتراف مُضمر في المُقابل؛ بيد أنني لا أريد الإفصاح عن شخصيتي في الوقت الرَّاهن، لأنني ببساطة دخيل أشبه بمن يهبط على بياض هذه الصفحات هبوطًا اضطراريًّا بمظلة، دخيل استمرأ هبوطًا اضطراريًّا غير مهذب، وبالتأكيد لم يكن متوقعًا في دائرة الذائقة البريئة لقارئ سنفترض، سلفًا، أنه اجتاز فيافي الفصول السابقة بأمان.

لكنني سأفترض -مع ذلك- أنه قارئ نبيه يستطيع استقراء الشواهد من أحلامه الخاصة، لو قام بعملية استرجاع لذكرى كوابيسه المرعبة حد سقوطه في هاويات لم يعتقد بنجاته منها، كما

لن تفوته حتمًا تلك الدغدغة الحلمية التي لن يتمكن من تحاشيها، دغدغة أحلامه اللذيذة حد نسيانها أحيانًا، حد تذكرها لحظة بلوغه ذُراها الجنسية احتلامًا تامًا في شرشف السَّرير ووسادته الخالية.

لنبسِّط الأمر، إذًا. وليكُن أكثر بساطة من صواميل تعقيده في ورشة الكلمات هذه.

ثمة أشكال ومضامين لا عدّ ولا حصر لها لو حاولنا حصر الأحلام التي يمكنها أن تراود أيًا منا: أنا، على سبيل المثال، الأصلع وحلمه الأثير، تفاحة ومسمارها، قارئي -إن شئنا الدِّقة، في هذا الفصل- وقارئ الرُّواة السابقين فيما سيلي من فصول، خارج اختزال الأصلع وحلمه لتلك الأحلام، ومحاولة تأويلها، عنوةً، في أضيق معنى قاموسي تتيحه اللغة: أحلام النائمين، فحسب.

تلك مصيدة وتهافت لغوي خادع في محاولة صَدوقٍ وكذوب في الآن ذاته؛ فالعلاقة جذرية وجدلية وتبادلية بين الحلم والواقع. حلم يصبح واقعًا، بينما يندثر واقع معاش في غياهب أحلام وأحلام، وهكذا دواليك إلى ما لانهاية.

لا أريد الخوض في التنظير، برغم كونه مهنتي الحقيقية في قلب الواقع الواقعي، لكنني لن أتنازل ولن أتغاضى -مهما بالغتُ في تواضعي- عما لا حصر له من أحلام الجماعات وأحلام الأفراد، على اختلافها وائتلافها، مع فرق واحد: نقاط تقاطعها وخطوط توازيها، والأمثلة في مسبحة الزاهد والعابث لا تُعد ولا تُحصى.

فكما يحلم الأفراد أحلامهم فإن الجماعات تحلم أحلامها أيضًا

وترفع عقيرتها لتحقيق تلك الأحلام تحويلاً لماهيتها الحلمية إلى واقع واقعي محسوس وملموس، ضمن شرط حُريتها الذي غالبًا ما يتحقق بمجرد اجتيازها مرحلة الحلم إلى مرحلة تحقيقه وتجاوزه إلى حلم آخر في رايات نضال تلك الجماعات، تخلصًا من كابوس دكتاتورها الضئيل.

وكما تحلم الجماعات أحلامها يحلم الأفراد أحلامهم تصعيدًا لواقعهم إلى كمال أحلامهم أو تحقيقًا لما وراء خبزة أحلامهم، حتى تراها أعينهم وتلمسها أيديهم لتنام على وسادتها الواقعية رؤوسهم التي طالما حلمت بها سواء في قصورهم الفارهة أو في بيوتهم الصفيح، في شموس صحاراهم كما في أدغال غاباتهم.

تلك ثنائيات سيتوجب عليَّ كبح استرسالي لعدم الخوض في بداهاتها، بيد أن عليَّ تذكير الحالمين، ممن يقرأون الكلمات ويتمعنون في ظِلال معانيها؛ بأن الحيوانات لا تفتأ، هي الأخرى، تستحم في برك أحلامها المُوازية لسواحل أحلامنا، مثلما حلمت فصائل الطيور بخفقان الأجنحة لترفرف فيما بعد من قارة إلى أخرى، برغم أن القطط -في أدبيات بيوتنا الضيِّقة- لا تحلم عادةً إلاّ بفأر البيت. وفي المقابل، فإن الثنائيات ومقابلاتها المنعكسة في مرايا لعبة التذكُّر؛ لن تتوقف عن استمراء حبال اللعبة بالأحرى لذاذة أحبولتها؛ لأن فأر السفن البُخارية القديمة، تلك التي لم نعد نرى رومانسيتها إلا في الأفلام، حتمًا سيذكرنا فأر السفينة غير الرُّومانسي بأنه لم يحلم إلا بقطعة من الجبن المُملح. والجبنة المبهَّرة بالتوابل لن تحلم بأفواه فئران بطبيعة الحال، ولا بنَهَم ملاحدة، بل بالخلود في ماهيّتها الأولى حليبًا طازجًا في ضرع بقرة. نعم، بقرة تحلم، هي الأخرى، بتقويض حلم الأصلع

وشركة أحلامهما المُتحدة فيما وراء البحار، إن نجت تلك البقرة من فيضان أحلام مُحتمل على هذه الصفحات، سوداء كانت أو صفراء لا شِيَة فيها، ستحلم وتحلم تلك البقرة، كعادة أي بقرة حلوب، بحقل شاسع من العشب والعشب، وإن غفلتْ عن ريشة ڤان غوخ الذي حلم بذات الحقل، لكن بعد اصفراره النسبي في غالبية النسخ المزورة عن لوحة عباد الشمس.

لكن ما لن يعرفه كلٌ من الأصلع وحلمه الأثير هو أن نهاية الفيلم الوثائقي عن ڤان غوخ لم تنته بعبارة: *The End* لسبب أبسط من تسبيب البساطة ذاتها في اليابان؛ فالسّادة الأقحاح تويوتا آند كومباني حلموا في بياض شاشة أكيرا كيراساوا بالرمادي الخالص، كما حلموا في سوادها الذي انتهى إليه الرماد، بآخرِ يَنٍّ في مهب الأرض، لا ليحظوا برماد الأبيض والأسود في أفلام الأسود والأبيض، بل ليحظوا في مزاد كريستي بمزية استنساخ عذر أقبح من ذنب للمزايدة على لوحة لڤان غوخ، لم يلبث أن نافسهم عليها بضراوة شيخ عربي مجهول آثر عدم الإفصاح عن مَهوى قبيلته.

لذلك كان طيف الدكتاتور بطبيعته المُثلى، وفي صيغه المتعددة، حالمًا كبيرًا لم يجد غضاضة في الاستعانة بالرَّب لإدارة شؤون أبديَّته الأرضية الصغيرة، كما يجب أن تدار دراماتيكيًّا من قبل الطغاة. وعادة ما كان مِكيافللي أميرهم ورسولهم الأمين، رغم إخفاقه هذه المرة. لكن الشاعر، كعادته، كان سباقًا إلى الحلم بما وراء عريشة الدكتاتور، تلك التي لم تُتح حتى لحُطام فيلسوف أن يحلم بتحقيق يوتوبيا الشاعر، رغم معرفته المسبقة -كمعرفة الرَّب ومِكيافللي والدكتاتور- أنها لن تتحقق بشروط الشاعر على هذه البسيطة، بساطة وجود الله على هذه الأرض وتلك السماء. بيد أن

للسماء رأيًا آخر في المسألة؛ لأنها في عليائها تحلم بما جففته الشمس من أحلام الأرضيين تضامنًا غير معلن مع البحر الذي سبق له أن ادعى في واحدة من أشهر مقولاته إنه يُمثل حِسابيًا ثلاثة أرباع اليابسة. الأرضيون، بدورهم، لا يدحضون فرضيته الحالمة تلك، برغم أن رائد الفضاء نيل آرمسترونغ رأى، بأم عينيه، رُبعها الخالي وثلاثة أرباعها الزرقاء في ليلة قمرية سوداء عام 1969 لأول مرَّة منذ بدايات الخليقة.

لا بأس، لا باس. البحر يدَّعي أنه ثلاثة أرباع اليابسة. الأرضيّون يدحضون فرضيته الحالمة تلك ليحلموا في رُبع أرضهم الخالي من ثلاثة أرباع بحار الشاعر سان جون پيرس بمحاولة العُواء حين تعييهم الحيلة في قلب المضمار. فالبُداة، بداهةً، لا يحلمون في الصحراء إلاّ بناقة سَبوق، قبل تفكير الشاعر سان جون پيرس بإضافة زهرة، فَغثٌ في الرمال، إلى قاموسه الشعري.

لذلك سيبدو كُلٌّ من الأصلع وحلمه الأثير مُحقًّا في طموحه اليائس لقارئ مُفترض، فهنري ميشو نفسه سبقهما وحلم في «إكوادور 1929» بقارئ وقارئة حين أعلنها صراحة ودون مُواربة:

«لا تعتبروني ميتًا، لأن الصحف ستعلن رحيلي. سأحاول أن أبدو أكثر تواضعًا مما أنا عليه الآن. وسيكون هذا ضروريًا، أعتمد عليك أنت، أيها القارئ، أنت الذي ستقرؤني يومًا ما، وعليكِ أنتِ أيتها القارئة. لا تتركني وحيدًا مع الأموات، كجندي على الجبهة لم يعد يتسلم رسائل. اخترني من بينهم، اخترني بسبب قلقي الكبير ورغبتي الشديدة. وعندها كلمني، أرجوك، فأنا أعتمد على ذلك».

واستطرادًا على ذات المنوال، فإن المصابين بڤيروس نقص

المناعة المكتسبة يحلمون بعقار شاف من انتظار كابوس الموت.

ت. س. إليوت لم يحلم بذلك العقار حتى في منتجع الأرض اليباب، لأنها يباب كملوكها الحالمين بأن يصبحوا شعبيين بالفعل أكثر مما كانوا يهتفون في مقهى السيد الرئيس، واحدًا واحدًا، على ضفاف خريف البطريرك: من أنتم؟..

من أنتم أيها الأوغاد؟ تحومون هنا حول المقهى الرئاسي الشعبي الذي لا يقدم سوى القهوة المُدرَّة لحليب أبقار طازج حين تسهو قرون الثيران، في أميركا اللاتينية، عن المزايا الشعبية للدساتير الوضعية في مشيخات نفط مزينة ببخور يعبق في رحلات الطائرات الخاصة بجُمل متسارعة: «طوّل الله عمرك يا طويل العمر». برغم أن طويل العمر سيتقاصر عمره، لا لأن عمره قصير، بل لأنه يريده أن يطول ويطول، برغم مشيئة الله الذي يتركَّعُ له خمس مرات في التلفزيون الرسمي ليقتدي به العاطلون عن العمل في مباخر مشيخته، عوضًا عن اقتدائهم، حين يتعلمون القراءة، بشُلل العاطلين عن العمل في كولومبيا، كما على ضفاف مرآة الأبدية حين يفلس الفردوس الموعود ويفكرون ساعتها، بجدِّيةِ ديكِ سقّاع، في الحُلم بمهن شريفة مهما تدنى أجرها الأرضي اعتمادًا على وعد سماوي، ليس في بخور مقاهي مشيخة طويلة العمر ذاك، بل في واحد من مقاهي غابرييل غارسيا ماركيز المتناثرة حولهم كأوراق الكوكا في مرآة الطبيعة والأحلام التي لن تستطيع أحلامُهم تفاديها، بعد مللهم من تلك الطبعات الشعبية لروايات ماركيز، بيد أن المهن الأخرى لن تتوانى في تعطيل مضخات أحلامهم تايوانيّة الصنع، لأنها استبقت أفكار طويل العمر لتحلم، دون إذنه، بجيش آخر من العاطلين عن العمل في روايات نجيب

محفوظ الذي لم يمانع الإيحاءَ لعواطلية الجمَّالية أن يصلحوا تلك المضخة مجانًا للإكثار من فوائد مشروع الألف كتاب، لأن فقراء مومبي -تضامنًا مع فقراء القاهرة- يحلمون أيضًا بحياة المهراجات في أحلامهم الموازية التي قد تحققها لهم بوليوود جمهورية الرَّيس المُبارك. والحقيقة التي لن يتمكن من نكرانها أو التنكر لها حتى الأخوين تاڤياني في أمجاد شاشة غاربة، هي أن الجد الأول لطويل العمر كان حكيمًا ومُحقًّا حين قال، ذات مرَّة، للإنكليز:

على الشعب ألا يتعلم سوى الفاتحة ليفتتح بها صلواته الخمس، ولا شيء غير ذلك، وتعلمها سماعًا وحفظ الفاتحة أفضل بكثير من تعلمها قراءة. أنتم علمتم الهنود، فماذا كان مصيركم؟.. لقد طردوكم من دُرة تاج الإمبراطورية، أولئك الرعاع الهنود. كيف تنصحونني بافتتاح مدارس. لن أكرِّر حماقتكم تلك في مشيختي، لن أكرِّرها. نعم، قد أوافق على بناء مستشفى جديد يخفف من وفيات حمى الملاريا، لأن المقابر بدأت في اكتساح قمم الجبال لكثرة الموتى في بلادي. بيد أن بومبي التي حلمت باستعادة اسمها القديم: «مومبي» استعادته في السنوات الأخيرة، ولم يُرض ذلك طويل العُمر الجديد في إحدى زياراته للهند؛ فعاتب رئيسها المُنتخب على سماحه بتضييع اسمها الكولونيالي العتيد، اسمها الذي ألفته أذناه في أيام الإنكليز الخوالي.

لكن ما لم يعرفه الأصلع وحلمه الأثير أن إمبراطورية اليابان، لم تحلم بعقار الڤياغرا، بل حلمت بإكسير آخر، إكسير أحلام لا ينضب (أكثر مما قننته لها الولايات المتحدة) بعد الحرب العالمية الثانية، بينما الصين تقهقه من طيزها الضيِّق لتدقق بتؤدَة في وثيقة حلم منشوريا قبل استخدام حق النقض: الڤيتو. برتولوتشي لم

يعترض حتى في أفلامه الجسورة على أحلام الصين، لكنه استطاع تحقيق آخر أحلامه بتصوير فيلم «الامبراطور الأخير» في قلب المدينة المُحرَّمة، دون أن يستشير مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة التي لم تعد وجاهتها الورقيَّة في حاجة ماسة لاستخدام حق الڤيتو، بعد إعادة تدويره مناديل مراحيض كلما أدخلت مؤخرتها الكبيرة جُغرافيًّا في مرحاض مجلس الأمن - تماشيًا وسياساتها الصديقة للبيئة في صندوق الحادي من إبريل لأكذوبة الإمبريالية في أروقة هيئة الأمم المتحدة، بعلبة كبريتها الزجاجية الشهيرة في نيويورك لم تعد تحلم بشيء، بعد حادثة 11 سبتمبر، سوى بتكرارها تواطؤًا مع الأصلع وحلمه الأثير، قبل أن يحلم الشيطان باغتيال آخر حواء حلمت بتاء تأنيث إضافية في اللغات الحية والميتة قد تسمح -بعد فوات الأوان- باستصدار قرار أممي بتأنيث العالم.

لذلك لم تحلم روما القديمة بأوڤيدها المنسي، بل ببقايا المصنفات المحفوظة في مكتبة الإسكندرية. الإسكندرية، على الضفة الأخرى، لن تحلم بفيلم سينمائي عنها، كَمانْ وكَمانْ، بعد انقضاض شاهين الموت على يوسف شاهين. وليس من باب تهافت التهافت، أن الطاعون لم يحلم في أفلام شاهين بألبير كامو غريبًا في وهران. لأن روما القديمة لم تعد تحلم، والإسكندرية لم تعد تصطاد السمك البُنّي حتى في سياسة المسلسلات المصرية الفرعونية الحكيمة، لكن طهران تحلم -مع ذلك، وبرغم كُلِّ ذلك- بعشق آباد، دون التخلي عن عشقها لسلاح نووي رابض تحت تخت جمشيد، لا لأن أدولف هتلر حلم، ذات مرة، بشنب صدَّام حسين في مُناسبات أمميّة تعمّد الرَّفيق ستالين تجاهلها سَلَفًا حتى في

لحظات استمنائه السينمائية في كرملين مآخير الغفوة البلشفية، برومانسية الواقع الواقع في الواقعة، لتبدأ شهرزاد باستخدام تقنية عُلب الدُّمى الروسية المُتداخلة في الحكايات التي أنقذت عنقها رمزيًّا وواقعيًّا من سيف شهريار البتّار، دون أن تعلم بأهمية سبقها الرِّوائي. وهذا ما لم ينتبه إليه للأسف، في غمرة شططه، حُلم الأصلع في حواره، برغم حديث تفاحة عن مسمارها وتهيئته للظهور على مسرح الأحداث في فصول لاحقة، كما يبدو.

لكنني ما زلت أستغرب من حُلم يُفترض فيه الكياسة والحِلْم. ويبدو أن أحدهما أو كلاهما لم يقرأ بعد أهم دليل للروائي الشاب، وفي حالتهما الخاصة؛ أهم دليل للشخصيات التي تغتصب أدوارها عنوةً دون رضا المُؤلف أو شخصياته أو رُواته - وأقصد بذلك كتاب: «**رسائل إلى روائي شاب**»، فهو كتاب ثمين لمن يحاول الشغل في ورشة روائيَّة، لأنه بمثابة دليل توضيحي، لمن يريد أن يُصبح روائيًّا بالفعل، تطرق فيه مؤلفه الأكثر شهرة من محاولة التعريف به، ماريو بارغاس يوسا، لعدة عناصر أساسية في مبادئ الكتابة الروائيَّة؛ منها على سبيل المثال: القدرة على الإقناع، مُستوى الواقع، الزمن، المكان، النقلات والقفزات النوعية، العلبة الصينية، والمعلومة المُخبّأة، أو القصّ مع الإغفال.

في مكان ما، يروي إرنست هيمنغواي أنه خطر له فجأة، في بداياته الأدبية، بينما هو يكتب قصة، أن يحذف الواقعة الرئيسية فيها: شَنْقَ بطلها لنفسه. ويقول هيمنغواي -في فصل المعلومة المُخبَّأة- إنه اكتشف بهذه الطريقة وسيلة قصصيةِ أكثرَ من استخدامها في قصصه ورواياته التالية. وبالفعل، ليس من المُبالغة

القول إن أفضل قصص هيمنغواي تغص بمواقف صمت ذات مغزى، ومعلومات مكتومة بقدرة راوٍ ماكر يتدبر أموره، لكي تكون المعلومات التي يصمت عنها، مع ذلك، بليغة ومستثيرة لمخيلة القارئ بحيث يتوجب على هذا الأخير، أن يملأ تلك الفجوات في القصة، بفرضيات وتخمينات من حصاده بالذات.

فمن أجل تزويد رواية بـ«القدرة على الإقناع»، لا بد من سرد قصتها بطريقة تستفيد إلى أقصى الحدود، من المعايشات المُضمرة في الحكاية وشخصياتها، وتتمكن من أن تنقل إلى القارئ، وهمًا باستقلاليتها عن العالم الواقعي الذي يوجد فيه من يقرؤها. فقدرة رواية ما على الإقناع، تكون أكبر، كلما بدت لنا أكثر استقلالية وسيادة؛ حين يوحي لنا كل ما يحدث فيها أنه يحدث بموجب آلية داخلية لهذا التخييل الروائي، وليس بقسر تعسفي، تفرضه إرادة خارجية. عندما تشعرنا رواية ما -يستطرد يوسّا في رسالته-، بأنها مكتفية بذاتها، وبأنها قد انعتقت عن الواقع الواقعي، وأنها تتضمن في ذاتها، كل ما تحتاج إليه لكي تحيا، فإنها تكون قد وصلت إلى أقصى قدرة على الإقناع. وعندئذ، تتمكَّن من إغواء قارئيها، وجعلهم يُصدِّقون ما ترويه لهم.

وإن سمح لي الأصلع وحلمه الأثير؛ سأذكِّرهما بوسيلة أخرى يستفيد منها الرُّواة لتزويد قصصهم بالقدرة على الإقناع، هي ما يمكننا تسميته «العلبة الصينية» أو الدُّمية الروسية (ماتريوشكا)، أوردها ماريو بارغاس يوسّا في فصل من السهل تخمين مقاصده لمن يعنيهم الأمر من المُتآمرين على هذه المخطوطة ومؤلفها المجهول، حتى الآن.

مم تتألف تلك الدُّمية؟

من بناء قصة على طريقة تلك العلبة الفُلكلورية التي تتضمن أشكالاً مُماثلة لها، وأصغر منها حجماً، في مُتوالية تمتد، أحيانًا، إلى ما هو مُتناهٍ في الصِّغر. ومع ذلك، فإن بناء من هذا النوع، حيث تتولد من القصة الرئيسية، قصص أخرى فرعية، لا يمكن أن يكون أمرًا ميكانيكيًا (وإن كان ذلك هو ما يحدث في أحيان كثيرة)، كي تكون الوسيلة فعالة. فهذه الوسيلة يكون لها مفعول خلاق عندما يؤدي إدخال بناء كهذا، في القصة المُتخيلة، إلى نتيجة ذات مغزى -السِّحر، الغموض، التعقيد- في مضمون القصَّة. وتبدو بالتالي ضرورية، ليس كمجرد تجاوُر، وإنما كتكامُل أو تحالف عناصر ذات مفعول مختلط ومتبادل فيما بينها جميعاً، (وهو ما حاولتُ فعلهُ بنجاح قليل وفشل أكبر في هذا الفصل).

ويستطرد بارغاس يوسّا قائلاً -فيما يخص ألف ليلة وليلة، على سبيل المثال-، إن بناء العُلب الصِّينية (وهو ما أخفقتُ فيه، ونجح فيه الأصلع وحلمه النَّديد) لمُجمل الحكايات العربية الشهيرة التي صارت، منذ أن اكتُشفت وتُرجمت إلى الإنكليزية والفرنسية، مُتعة أوروبا وبهجتها. تلك أمثلة عابرة من كتاب يوسّا أوردتها عن قصد، ليشحذ القراء مشارطهم النقدية، وهم في منتصف هذه الورشة الروائيَّة، قبل أن يقرروا -أو لا يقرروا- بلوغ نهاياتها.

لذلك لم يتوان أكيرا كيراساوا -لو أننا فكرنا في إخراج علبةٍ روسيَّةٍ من بطن أمِّها-، في الظهور خلف الشاشة، في تطفل مُهين للتقاليد اليابانية، ليحلم ساخِرًا ببُوذا الصغير، رغم أن أتباعه في التيبت لم يتمكنوا حتى من التمتع بشرب «شاي في الصحراء»، لأن

سيدهارتا كان يعرف أن پول بولز سيموت، في نهاية النهاية، عجوزًا ووحيدًا في طنجة، مع أن الدلاي لاما لم يمانع في منحه، دونما كرم بوذي صادق، لقب «صديق العالم»، ليس في هذه الحياة بالطبع، بل في حياة أخرى أو في قصة قصيرة لم يُعرها حتى جان جينيه التفاتة من مؤخرته، فيما كان يمخر بأسيره العاشق ليالي طنجة الملاح، تحقيقًا لحُلم فلسطيني ذاب في فصّ مُؤخرته، بعد أن سبقه برتولوتشي ليحلم، خارج الشاشة، بصباحات تطوانيَّة أكثر برودة من صباحات الجنة الحالمة بلفائف «كِيفٍ» تساقطت، قبل اشتعالها سيجارةً، من أنامل صديق العالم -في حياته البوذية الأخرى-، قبل أن تحلم بدفء رغيف طازج من فرن قابع في بؤرة الجحيم، لا لأن الجنة كانت قاب قوسين أو أدنى، بل لأن الأصلع وحلمه الأثير لا يعرفان أن قارئهما المفترض ليس ساذجًا، بل حالمٌ كبير سيكتشف حقيقتهما على حقيقتها -لو واصل المشاركة في تنقيح المخطوطة- حتى يكتشف، في النهايات، أن إرنست هيمنغواي شخصيًا ما زال -كما كان في هافانا- عجوزًا سكّيرًا لا يُشق له غبار حتى في الأبديَّة بعد انتحاره.

وتلك معلومة مُخبَّأة تعمَّدتُ كشفها خيانةً مُبكِّرة لمُقترحات يُوسًا لروائيِّه الشاب، وعليهما استثمار غلَّتها لإنتاج فصول لاحقة، عوضًا عن إغراء السُّكر -على طريقة هيمنغواي- في جُزر الأصلع الفردوسية التي بتنا نعرف ألاّ حدود جغرافية واقعية لها، عدا تلك الواقعة وراء بحار التَّخييل. فالكلمات وحدها الكلمات أشبه بزورق يُمكِّنها من اجتياز الكلمات نفسها، أو كما قال بُوذا للبهيكهو: «حتى هذه الرُّؤية النقيَّة جدًّا والواضحة جدًّا، إذا ارتبطتم بها والتصقتم بها وأحببتموها واحتفظتم بها كأنها كنز، عندئذ لا تكونون

قد فهمتم أن التعاليم إنما هي أشبه بزورق صُنع لتجتازوا عليه، لا لكي تلتصقوا به».

لذلك كان ظهوري المباغت، في هذا الفصل، أشبه بذلك الطوف، بُوذيِّ الأرومة، ذلك الطوف البسيط الذي صُنع للاجتياز لا لحمله ولا للتمسك به.

فـ«المعنى لم يسبق الحُلم، الحلم هو من سبق المعنى: إذًا فالطريقة المُثلى لقراءة الحكاية هي أن تدع المخيِّلة تجرفك. وفوق ذلك، ليس كألغاز سريَّة بحاجة إلى حلٍّ لشيفرتها، فقد قتل الكافكاويُّون كافكا بإصرارهم على تشفيره»، كما قال ميلان كونديرا.

لا بأس إذًا، ما زال الزورق مُنتظرًا، كعادته الأبدية، على ضفة الكلمات.

ما زال مُنتظرًا تكرار الكلمات، دون أخطاء قدر المُستطاع. ولأن الرَّاوي يروي ما يرويه أحيانًا، دونما التفات لأهمية إقناع قارئه حتى بفكرة حفيد يُوسّا النقديِّ أو قِرده النَّحويِّ، لكنها فكرة قدر ما يحاول الحفيدُ استمالة الرُّواة الآخرين لتبنيها، أجد نفسي مرغمًا، ولأسباب تافهة، على نسفها في هذا الفصل. لذلك فإن السؤال الذي لا بد من طرحه: هل وصل الرُّواة الذين أقحموا أنفسهم في هذا العمل، لشروط بارغاس يوسّا، في القدرة على الإقناع، بمن فيهم راوي هذا الفصل الذي يعتقد، بحكم خبرته النقدية، أنهُ خلخل بهبوطه المظليِّ ذاك التوازن المنشود في مُحكم عمل سرديّ؟..

سؤال ما زال بحاجة إلى إجابة أكثر جذرية، ففي نظري أن

راوي الفصل الأول، أوصل القارئ إلى ذلك الإقناع، لولا تلك الإطالة العِلميَّة المُملَّة حول رحلة بطله مع حلمه في بواطن عقله المُستحاثي، حيث يستعرض الحقب الجيولوجية منذ ما قبل بدء الخليقة، أي منذ اللحظة التي لو فكَّر الرَّب مليًّا فيها، لتراجع في الغالب، عن فكرة خلق الكون برمَّته، ليستريح في الأيام الستة، وليس فقط في عُطلة الأسبوع.

ولو أن الأصلع وحلمه الأثير، لو أنهما كانا قابلين للعِظة لاتعظا بدرس زوانغ تْسَه الذي حلم، في ليلة صينية قرب النهر، أنه فراشة. ولم يعرف عندما استيقظ إذا كان رجلاً حلم بأنه فراشة، أم فراشة تحلم الآن بأنها رجل، بيد أنهما لم يكترثا، للأسف، لتأمل تلك العِظة القابلة لأكثر من مَفرَش تأويل. والأنكى من ذلك، لو أنهما انكبّا على موسوعة صينية مجهولة، وليست متداولة، لعرفا واستنتجا بعد بحث مُضنٍ في تلك الموسوعة؛ إذا ما كان أحدهما فراشة تحلم برجل أصلع أم أن العكس هو الصحيح!

وتلك أضحوكة صينيَّة المَشرَب على القارئ (واقعيًّا كان، أم مفترضًا) أن يضحك منها في مرايا الأحلام قبل تصاعدي به لمُرتقى أبعد مما خمَّنه عن هشاشتي، حين أوحيت له، عن قصد، بأنني مجرد هبَّاط أودية بمظلات اعتاد أصحابُها، سلفًا، فكرة الانتحار الأدبي.

بالرغم من كُلِّ ذلك؛ لن أجازف بمُختتم انتحاري، لأنني أفضل الاحتفاظ به -إن كان لا بُد- معلومة مُخبَّأة للمُستقبل، لذلك سأنهي هذا الفصل بهدوء، وعلى طريقتي الخاصة، رأفة بالأصلع وحُلمه الأثير، لا نكايةً بهما بكل تأكيد، فقد صارا رفيقي درب، شئتُ أم أبيت.

لذلك فإن طريقتي الأبسط من البساطة ذاتها، طريقتي التي لا تريد التضييق عليهما باعتماد مصاعب اللغة التحليلية لجون ويلكينز (1614-1672) الذي أهملته، للأسف، الموسوعة البريطانية برغم أنه كان مُديرًا لإحدى كُليات أوكسفورد، والسكرتير الأول لجمعيَّة لندن المَلكيَّة، فضلاً عن اهتماماته التي لا تنحصر في علم اللاهوت وترجمة الكتابات السريَّة بعد فكِّ شيفراتها، ليصل إلى مُقترح لغة عالمية تستند إلى نظام تصنيفيٍّ مُشفَّر استقى خلاصته من تصنيفٍ عشوائي مختصر وطريف لمملكة الحيوان وجده ويلكينز في موسوعة صينيَّة نادرة، لا أرى غضاضة في إعادة اقتباسه:

1. تلك المملوكة للإمبراطور.
2. تلك المُحنَّطة.
3. تلك المُدرَّبة.
4. الخنازير الرَّضيعة.
5. عرائس البحر.
6. تلك الخرافيَّة.
7. الكلاب الضالة.
8. تلك المُدرجة في هذا التصنيف.
9. تلك المسعورة.
10. تلك التي لا تُحصى ولا تُعدّ...
11. تلك المرسومة بريشةٍ رفيعةٍ من شَعر جَمَل.
12. إلخ...
13. تلك التي كسرت للتوّ دورق ماء.
14. تلك التي تبدو من بعيد كالذُّباب.

ولعَمري، هو تصنيف بديع وشامل ويدعو للتأمل مرارًا وتكرارًا، أتمنى أن يُفكِّر الأصلع وحلمه فيه مليًّا قبل العودة للعبة البينغ-بونغ: تبادل كتابة فصول سيمل منها قارئهما المُفترض، كما ملَّت منها سلفًا جمهرة القراء الواقعيين.

ختامًا، إن كان لا بد من ختام، يروق لي التأكيد أنني لم ولن أعتبر نفسي «شخصيةً راوية» (رغم إسهامي بكتابة هذا الفصل)، وفقًا لدرجات المَلَكة الروائيَّة التي قدمها وحدَّدها بارغاس يوسّا بأريحية وسخاء في رسائله إلى روائيِّه الشاب. لذلك سأكون سخيًّا، ولن أبخل، بدوري، على من أصبحوا زملائي ورفقاء درب في هذا العمل، بفقرة أقتبسها من الرسالة الثامنة من رسائل يوسّا، وهي بعنوان «النقلات والقفزات النوعية»، حيث يقول مخاطبًا الروائي الشاب، الروائي المُنسلخ من شرنقة افتراضه تهيؤًا للدخول في مرحلة كينونة واقعية طالما صبونا إليها لبلوغ فردوس إمتاع ومُؤانسة في هذه المخطوطة:

«استخدمتُ، مرات عديدة، تعبير النَّقلات لكي أشير إلى بعض الانتقالات التي تحدث في العمل السَّردي، دون أن أتوقف، لأشرح بالتفصيل اللازم، هذه الوسيلة، كثيرة التواتر في القصص المُتخيلة. سأفعل ذلك الآن، لأصف هذا الإجراء، وهو أحد أقدم الأساليب التي يستفيد منها الكُتّاب في ترتيب قصصهم. «النقلة» هي كل تبدّل تتعرض له أي واحدة من وجهات النظر (الرُّؤى) المُشار إليها آنفًا. ولهذا فإنه من الممكن أن تكون هناك نقلات مكانية، أو زمانية، أو في مُستوى الواقع، حسب التبدلات التي تطرأ على هذه الأنساق الثلاثة: المكان، الزمان، ومستوى الواقع.

كثيرًا ما يكون هناك في الرّواية، ولا سيما في رواية القرن العشرين، عِدّة رُواة؛ أحيانًا عدة رواة-شخصيات، كما هي الحال في «بينما أرقد مُحتضرة» لفوكنر، وأحيانًا راوٍ كُلّي المعرفة ومن خارج ما يُروى، وراوٍ أو عدة رُواة-شخصيات كما في «أوليسيس» لجيمس جويس. حسن. في كل مرة يتبدل فيها المُنظور المكاني للقصة، لأن الرّاوي تحرك من المكان (نلحظ ذلك في انتقال الضمير النحوي من «هُو» [الغائب] إلى «أنا» [المُتكلم]، أو من «أنا» إلى «هو»، أو تنقلات أخرى)، تكون قد حدثت نقلة مكانية. وقد تكون هذه النقلات كثيرة في بعض الرّوايات، وقليلة في روايات أخرى. أما فائدتها أو ضررها فلا يمكن تبيُّنه إلا من النتائج، أي من تأثير هذه النقلات على قدرة القصة على الإقناع، تعزيزها أو ضعضعتها. فعندما تكون النقلات المكانية فعالة، تتوصل إلى منح القصة منظورًا مختلفًا، متنوعًا، وكُليًّا وشموليًّا أيضًا (وهو ما يحسم أمر هذا الوهم بالاستقلالية عن العالم الواقعي). وإذا لم تكن النقلات فعَّالة، يمكن للنتيجة أن تكون اضطرابًا وفوضى: إذ يشعر القارئ بأنه تائه في هذه القفزات المفاجئة والتعسفية، في المنظور الذي تروى له القصة من خلاله».

بدوري، آمل وآمل ألاّ أكون بنقلتي المُفاجئة، في هذا الفصل، مصدر إزعاج للقارئ أو لرُواة-شخصيات هذا العمل. وفي الختام، ختام هذا الفصل، أو هذه النقلة (التي، حتمًا، لن تصل حدَّ توصيفها بالقفزة النوعية)، سيكون من المُناسب طأطأة المُتخيَّل عودةً بأرجوحته إلى دكَّةِ الواقع الواقعي الأصلب من خوذة الصَّلابة، الواقع الذي أضحى ضبابيًّا ومعدومًا في الحياة العامة، لدرجة أننا

نحاول تلمسه، قدر المُستطاع، ما سمح الوقت لنا بذلك، وسمح اتساع شاشة الرُّؤية، في الحديقة الخلفية للأفلام.

أستعيد، في هذه السَّانحة، تذكير قارئي هذه المخطوطة النمطيَّين: الواقعي والمُفترض، بأنني لم أفصح، بعد، عن هويَّتي، أو مهنتي الواقعية حتى اللحظة، بيد أنَّ التكهُّن بهما مُمكن -لو امتلك أحدهما أقل ما لدى أغاثا كريستي من مهارات في اكتشاف الدوافع التي قد تؤدي، أو قد لا تؤدي لارتكاب جريمة ما-، ربما لكثرة اقتباساتي من كتاب بارغاس يُوسّا، الذي أشعر حياله بالخجل. لأنني أسهمتُ -بطريقة مّا- إما في الإساءة إليه، أو في لفت الأنظار نحوه، وفي الحالتين هو في غنى عن مُكابدة عناء هذه وتلك، فقد نال مؤخرًا، وعن استحقاق، جائزة نوبل. وهي جائزة -إن سمح لي يُوسّا المُعلم- قد تُصبحُ رغم شهرتها «معلومةً مُخبَّأة» في أحد فصول هذه المخطوطة، بعد اكتمال تنقيحها في فصل لن أكون كاتبه بالتأكيد، لكنني أعتقد أنهُ قد يكون مُفاجأة لطيفة قد تُرضي صاحب «حفلة التَّيس» وقرَّاء هذه المخطوطة بعد تنقيحها النهائي. عسى، وعسى أن يكون اللهُ، في المُختتم والمُفتتح، دائمًا وأبدًا من وراء القصد.

الفصل العاشر

- ترى من يكون هذا الذي أتى بحذافير الدنيا وأحلامها؟

- لا أعرف. لكن تداعي أسلوبه الخطير وخلطه المقصود للحابل بالنابل يؤرقانني، وأخاف أن يُجهِض هذا الملعون مشروعنا برمته، فهو -كما ترى- ساردٌ سيّال.

- هذا صحيح. ويبدو أنه يعرف عنا ما لم نعرفه عن بعضنا بعضًا، كأنه كان ملازمًا لنا في حواراتنا منذ البداية. والمعضلة الحقيقية أن تفاحة ومسمارها لم يعودا معضلتينا الوحيدتين، لقد جدَّ جديد يا حلمي الأثير.

- هل لديك القدرة للتعامل مع هذا الدخيل؟

- يعتمد الأمر على مدى تعاونك معي. عفوًا، أقصد تعاوننا معًا.

- تعرف أنني دائمًا في خدمتك، برغم أخطائك التي لا تمل من تكرارها.

- إنه راوٍ عليم بكل شيء، كأنه عميل سِري. هل تظنه من شعبة CIA المخطوطات الرّوائية التي ما زالت قيد التنقيح؟

- يا لدعاباتك السخيفة!

- إذًا من يكون حُلمي الأثير؟

- ليس مهمًّا من يكون. كل ما علينا فعله هو التكاتف للعمل

معًا بمعزل عن تأثير تشويشه المتقصَّد لإحباطنا، وإلا سأعود لبياتي الشتوي في علبتي الأثيرة، إثر النزهات المشروطة والحوارات التي لم تثمر شيئا سوى عدم امتثالك لما أراه وأستشرفه ببصيرتي الحُلمية، مما أدى لخلل في العلاقة أفسح المجال لمداخلة غريبة وعجيبة لهذا الدخيل الذي حشد فيها الأول والتالي.

- لينتهي، في نهاية فصله المُقحم، إلى ذلك التصنيف الغرائبي لمملكة الحيوان؟

- تلك واحدة من ألاعيبه الذكية التي ذكرها، قصدًا وتعمدًا، في نهاية فصله المُقحم. فالتصنيف الذي أورده وحرَّفه ونسبه، بلوذعيَّة السُّميدع، لموسوعة صينيَّة، هو في حقيقته تصنيف سبق لبورخيس أن أورده في مقالة قصصية له بعنوان: «**اللغة التحليلية لجون ويلكينز**»، ونسبه بتسلسله الغريب إلى موسوعة صينية زائفة. ولو تفكرت فيه لاكتشفت أنه تصنيف سخيف لا يعبأ بأي مبدأ علمي أو منطقي للاستبعاد والإدراج، ولا يُولي أهمية للضفيرة المنطقية لكافة مجموعات وأجناس وأنواع الحيوانات، فضلاً عن أنه تصنيف، في فقرته الثامنة، يُبالغ لدرجة أنه يُدرجُ نفسه داخل التصنيف. وتلك مثلبة، كما هي لعبة بورخيسية معتادة، كان عليك الاستفادة منها، عزيزي الأصلع، كما استفاد منها نقاد بورخيس الذين وصلوا إلى مثل هذه الإستنتاجات، عوضًا عن قراءة الرّوايات الغرامية الساذجة - إن أردت أن تكون كفؤًا بالفعل لمواجهة هذا الدخيل الذي أورد ذلك التصنيف، عَرضًا، كمعلومة مُخبأة لنا نحن أيها الفطِن.

- إذن نحن في ورطة حقيقية لم نحسب لها حسابًا، وعلينا عدم إضاعة الوقت، بل التركيز على الأولويات المُلحة لاستنباط حلول مناسبة.

- أوافقك على ذلك، من حيث المبدأ. لكن يبدو أنك تنسى أنني لست سوى حُلم حبيس لم يبلغ به اليأس ليسلّم بالأمر ويعتقد مثلك أنه في ورطة بالفعل!

- يا لسخافتك. دعك من تذكيري بهذه المسألة. إنها جزءٌ من تاريخنا الذي واريناه التراب، ولا يحتمل نقاش التوّ والساعة.

- يحتمله مادمت أسيرك.

- المُهم بمَ تنصحني الآن؟

- في رأيي المتواضع، كل ما تستطيع القيام به -أقصد ما نستيطع القيام به معًا-، هو العودة من جديد لتقنية الإكثار من شخصيات هذه الورشة الرِّوائية، حتى يتسنى لقارئنا نسيان هذا الدخيل علينا وعلى شخصياتنا التي ابتكرنا، مسامير كانت أم تفاحات كان دائمًا بمقدورنا السَّيطرة عليها.

- لكنه فضح مخططنا، ولن يقتنع أي قارئ بما سنفعل بعد الآن حتى لو عدنا، مثلًا، إلى تطوير فكرة العجوز الحكيمة التي أهملناها في سياقنا الروائي، ولم نعطها المكانة التي تستحقها عجوز حكيمة لن تبخل علينا ببعض النصائح المفيدة.

- لم لا تستبصر بحكمتها إذن؟ لم تستخف بشخصياتك الروائيَّة المهمة وتفسح المجال لشخصيات لا أهمية لها إطلاقًا. لا أقصد تفاحة ومسمارها، بل ألمّح إلى عدم تقديرك للأمور وتأويل عواقبها لاحقًا، تمامًا كما حبستني طويلًا في هذه العلبة.

- أنا آسف، حلمي الأثير، آسف. يبدو أنني لا أستحق حتى لقب الأصلع.

- بالعكس. أنت الأصلع، وذلك امتياز عليك ألا تتنازل عنه بمثل هذه السهولة.

- أشكر تدليلك الدائم لصلعتي. لكنني أتساءل من نسمي هذا الدخيل؟

- لا أعرف. لكن إن أردت مساعدة فوريَّة تنقذك من المأزق، أقترح أن ندعوه: الخامس.

- لماذا الخامس؟

- خامسهم كلبهم!

- ونحن أهل الكهف. ها ها ها هه...

- أعجبتك؟

- يعجبني حلمي الأثير عندما يكون مرحًا رائق المزاج.

- هذا الإطراء ليس في محله، ولست في مزاج رائق لتقبله الآن.

- أنت محق، فقد يسيطر بآرائه، هذا الوغد الخامس، على أحداث روايتنا.

- لا تخف على حلمك الأثير، لا تخف. سأتكفل بالأمر.

- كيف؟

- ما رأيك لو خذلت كل توقعاتك باقتراح ستحكُّ صلعتك لو سمعته.

- وما اقتراحك هذه المرة؟

- ببساطة، نعرض عليه القيام بدور شخصية العمل المحوريَّة!

- ماذا؟ بدلاً من طرده ضربًا بأحذيتنا تريد منا أن نجعله شخصية محورية؟

- نعم، عزيزي الأصلع. وإلاّ فشل مشروعنا.

- ولِمَ كل هذا العناء؟ لِمَ لا نغتاله ببساطة؟

- عزيزي الأصلع، الخامس ليس شخصية من ابتكارنا حتى

يتسنى لنا اغتياله أو إفساح المجال له لمشاركتنا بناء هذه الرِّواية، كما سبق لنا أن فعلنا مع كلٍّ من تفاحة ومسمارها.

- حيَّرتني يا مُحيِّر الصُّلع. ماذا نفعل به إذًا؟..

- نستدرجه، بحكمة، للمشاركة معنا دون أن يشعر، لنستله خارج العمل كما تُستلُّ الشعرة من العجين.

- آآآه..

- هي فكرة تبدو -على غرابتها في مُخيخك القابع تحت صلعتك الرائعة- الأكثر قبولاً وعقلانية بين سواها. أليس كذلك؟

- بصراحة لن أبالغ في امتداح عقلانيتها، لكنني لن أتوانى في التصريح بأنها فكرة، في ظروفنا الراهنة، تبدو لا بأس بها، برغم المخاطر التي تنطوي عليها.

- على مستوى آخر، ما رأيك لو ضاعفنا جهودنا التي ستصب ضد هذا الخامس - أي اقتراح نوع من الهُدنة الموازية مع كل من تفاحة ومسمارها الغاضبين، وذلك لاستمالتهما إلى صفنا، إن أوحينا لهما بخطر الخامس المُحدق بهما أيضًا؟

- هناك مخاطر جمَّة في هذه التوليفة. لكن لا بأس إن كنت ترى أن الوضع حرج إلى هذا الحد. أقصد لا بأس في تحليل الخلاصات التي ستوصل إليها معًا إذا ما طوّرنا شخصيتيهما وجعلنا منهما شريكين في الواقع الرِّوائي لا في أحلامهما. فربما ساعدانا على التخلص من كابوس هذا الخامس البغيض.

- عظيم. وفي هذه الحالة، لديّ فكرة أخرى جهنميَّة.

- كُلِّي آذان صاغية.

- لنؤكد، قبل كل شيء، ضرورة اتفاقنا على صيغة احترام لاسمه: الخامس. فقد يُعجَبُ بذلك، وقد يشعر بأهمية مُفتقدَة في

البُعد الخامس الذي لا نعرفه من غياهب شخصيَّته وخماسين رياحها.

- رغم تفلسفك التأويلي هذا، لكنك ستعذرني إن خالفتك الرأي واعتبرته كلبًا أجرب لا يستحق أيّ صيغة احترام، كما أنني لا أعتقد أنه سيبتلع طُعم الاسم.

- ما أدراك؟ دعنا نجرب الفكرة، فربما راقته التسمية. لكنه سيشترط علينا ما لا قِبَلَ لنا به أنا وأنت. فهو موسوعي وطاقاته التعبيرية عالية كما ترى. وطاقاتنا -إن كانت لك عينان تحت صلعتك- محدودة فيما لو قورنت بأسلوبه الساحر. وجُلُّ تخوفي أن ينجرّ قراؤنا تلهفًا لما يلمح به لهم من وعود بنهايات شائقة، كما فعلت تفاحة التي وعدت قارئها بالبوح عن أشياء لن نتمكن من معرفتها في فصل سرّي.

- هناك أمر آخر، حلمي الأثير، لم ننتبه له.

- ما هو عزيزي الأصلع؟

- حقق لنا، بصفته الخامس، فكرة التوازن خلال ترددنا بين سبع أو عشر شخصيات لا داعي لها، وبيننا نحن الأربعة كأقلية لا يُعتد بها لكتابة رواية، لتكون المحصلة عدد شخصيات متوازن ومعقول، أي بعدد أصابع اليد الخمس، وقد أتى لنا بأمثلة مفيدة من نصائح بارغاس يوسّا إلى الرّوائي الشاب، هذا فضلاً عن كونه نقيضًا لنا بشخصيته وأسلوبه وموسوعيته. ألم تر استرساله العجيب بين أرض وسماء، شرق وغرب، شمال وجنوب، فوق وتحت، مما يُقال وما لا يقالُ في فصله العجيب ذاك؟

- رأيت ذلك كلَّهُ وسمعته، لكنه نهر جارف، لا أعتقد أنه يصبُّ في بحر مُبتغانا.

- هل تلمِّح إلى أنه ربما يحاول سرقة ورشتنا الروائية؟

- لا، لا. لمْ أقلْ ذلك تحديدًا؛ لكنه يعرف تمامًا ماذا يفعل هذا الخامس. وعلينا الاصطفاف معًا، رغم خلافاتنا، في طابور راسخ منضبط سنحشد فيه التفاحة والمسمار وأولادهما، إن كان لا بد من الإسراع في تزويجهما وجعلهما ينجبان فريق كرة قدم يصلح لملء طابورنا الخامس.

- تستظرف نفسك!

- دعنا في الأهم عزيزي الأصلع. لنجتذبه إلى فخنا بإعطائه فرصة مشاركتنا عملنا هذا، وربما إيهامه بإسناد دور البطولة المطلقة إليه حتى ينخدع بضعفنا النسبي، أي خلافاتنا التي علينا البصق عليها.

- يا لك من داهية لا يُبارى. لأنه -إلى جانب حساباتك الصائبة- سيضفي علينا تلقائيًّا مشروعيَّة نحن -وفقًا لنظامنا السَّردي المُتبع- في أمسِّ الحاجة إليها، ناهيك عن امتياز آخر.

- وما ذلك الإمتياز؟

- تكريس مصداقية نقلتنا القادمة من برزخ الحُلم إلى برزخ الواقع، إذا ما كان هدفنا النهائي قارئًا واقعيًّا، إن كان لا بد من استثمار نظريته التي سرَّبها إلينا: «القدرة على الإقناع»، أقصد نظريته التي انتحلها من ماريو بارغاس يوسّا.

- أحسنت عزيزي الأصلع، أحسنت. بدأت تفهمني، وها قد وصلت أخيرًا إلى ما كنت أهدف إليه: قارئ من شحم ولحم وعظم، لن نكون في حاجة إلى افتراضه، لأن الخامس تجشَّم عناء المهمة وجعله واقعيًّا بالفعل.

الفصل الحادي عشر

سمَّيتُماني الخامس، وهو اسم لا بأس به. ولن يضيرني القبول به مؤقتًا، على هذه الصفحات، لسبب وجيه:

لا اسم لي في قلب الحقيقة الروائيَّة الكاذبة، ولن أتباهى باسم منقوش على صفحات الرِّوايات لأكون الضحية رقم واحد لفشل هذا العمل الذي تدَّعيان، دون حسٍّ أخلاقيّ، أنه روايتكما بالفعل. لكنه عمل، في حدود ملامحه المرسومة، قد يرقى لأن يكون مسودة كان بالإمكان تنقيحها لتسويقه عملاً أدبيًّا حقيقيًّا يرقى للجنس الأدبي الذي تطمحان وتتنافسان على كتابته، لولا تعسفكما ونفاقكما وعدم التفاتكما لأبسط معايير الاشتغال على ورشة عمل أدبي تتوسلان عبره النجاح.

لن أطيل عليكما، ولن أوبِّخكما، كما فعلت في الفصل التاسع، الفصل الذي أدهشكما وفاجأكما بأسلوبه المختلف جذريًّا عن أساليبكما التي تعلمان أن تكرارها فصلاً إثر آخر لن يقودكما إلى برِّ أمان حتى تفيقا من سكرة الفخر بكمال ما أنجزتماه، فضلاً عن تحوير مسار الأحداث التي آلت إلى ما آلت إليه، بسبب شططكما الذي أوحى لكما أنني عدو إنجازكما اللدود، لتتباريا في البحث عن أنجع السبل لتحييد حضور الرقم الصعب في اللعبة: **الخامس**، لأنه

بحضوره المُباغت جعل فرائصكما ترتعد، حين تغيرت قواعد اللعبة في فصلي الذي -كما أرعبكما- كان صدمة لكما بأسلوبه المختلف، حتى لقارئكما المفترض، قارئكما الذي ربما لن يتقبله بارتياح، لسبب لن تعدما وجاهة فهمه: هيمنتكما المطلقة على مجرى الأحداث، واعتياده أسلوبكما الذي لا أنكر بعض عناصر الإمتاع فيه. لكن المؤسف، هو أنكما فضحتما رُعبكما من الرقم الصَّعب في المُعادلة. فبالرغم من نجاحكما النسبي في حواراتكما الطريفة والظريفة، إلى جانب محاولاتكما تخليق شخصيات روائيَّة، لكن موقفي واضح وحاسم. لن أكون شريكًا في أدواركما الانتهازية لأكون شيخ هذا العمل بلا مُنازع، لأنني بكلٍّ تبسيط سردي مُتاح - وحتى لا أطيل على القارئ الواقعي وقارئكما المُفترض-، اطلعت سلفًا على خطوط عرض لعبتكما وطولها من البداية إلى النهاية.

لكنني سأحاول -مع ذلك- إنقاذ ماء وجهيكما أمام قارئكما المُفترض حتى لا يتعاظم المأزق الذي مرَّغتما وجهيكما فيه. ولا هدف لي من عملية الإنقاذ سوى مساعدتكما وإرشادكما للعودة إلى لبِّ المعضلة التي تتحاشيان التفكير فيها. ولبُّها ومفتاحها ليس الخامس الذي سبق له أن أرسل لكما إشارات ضمنية فهمتماها خطأ، حين ظننتما أن الحل هو في إغرائي لقبول القيام بدور رئيس.

لنعد للجذور، قبل الدخول في متاهة التفاصيل:

نحن لا نعرف، بعد، هوية الكاتب -بعد أن تخلصتما من راويه المُعتمد في الفصل الأول-، لكنني لا أمانع في اللعب معكما إمتاعًا لقارئكما المفترض. ولعبتي، ببساطة شديدة، ستكون في صيغة مقترحات مفتوحة على عدة احتمالات.

1- أقرب كاتب لهذا العمل ليس الخامس، بل من سيعثر على مسوداته النهائية ليتمتع هو -لا الخامس- بحق نشره باسمه الخاص، إعفاءً لكما من تبعات ما سيغدو فشلاً ذريعًا أو نجاحًا خاصًين به هو وحده دون سواه. وفي هذه الحالة سيكون وحده المستفيد من حقوق طبعه ورقيًا في إحدى دور النشر. وعليه فإنه سيكون أقرب من يحق له التمتع بالحقوق التي تمنحها له أسبقية حصوله على المخطوطة.

2- إن كنتما حسني النية، وترغبان فعلاً بالتخلص من آثار مأزقكما، فعليكما التخلي عن أوهامكما السابقة والإقرار، أولاً، بضرورة وجود كاتب ما لهذا العمل، ثم الإقرار بأننا جميعًا -أي أنتم جميعًا بحواراتكم وملامحكم المسرودة وصراعاتكم لستم سوى شخوصه التي أعطاها فرصة تخليق نفسها ليكون هو اللاعب الأخير إتقانًا لفن اللعبة إلى حد إيهامكم وإيهام قارئكم المفترض بحقيقة وجودكم الواقعي أو حتى نفي وجوده. أليست تلك هي خلاصات بارغاس يوسّا في رسائله إلى روائيِّ الشاب؟

ستلاحظان تعمدي استخدام صيغة الجمع، لأنني أتحدث عنِّي، عنكما وعن تفاحة ومسمارها. بيد أنكما لستما من أصحاب النوايا الحسنة، وأكاد أجزم أن الأصلع المتملق هو شيخ مُنتهزي الفرص بلا مُنازع. ودليلي على اتهامه بذلك هو اقتناصه فرصة غياب راو عن شخصيته التي تركها الكاتب وحيدة في عراء الفصل الأول بتواطؤ واضح من حلم شخصية الرّاوي الذي أضحى فجأة، ودون توضيح مقنع، حلمَ الأصلع، برغم أنها مسألة من المُبكر الجزم بحدوثها في الوقت الراهن. فلربما ظهر الرَّاوي أو مُنقح

المخطوطة الأصل مُطالبًا بحقوقه أو مفندًا أسباب غيابه، وسماحه للأصلع بتوثيق روايته وتثبيتها، عوضًا عن رواية الكاتب الأصلية؛ تلك التي تتحدث عن جيولوجي، وليس عن مُحاسب أصلع ما فتئ ينفي باستشراس ما سبق للرَّاوي أن سرده صادقًا كان أم كاذبًا فيما رواه.

من الواضح أن المساق السردي قد حكم نفسه بنفسه الآن، كما يحدث في روايات كثيرة ضد رغبة الكاتب نفسه، ويبدو أنكما تعبير واضح لذلك المساق، في غياب راو يتحكم بشخصياته، وكاتب ما زلنا نبحث عنه. ولكما عِبرة تاريخية في اعترافات كُتاب أفصحوا خلالها عن تلك القوة السحرية التي تمتلكها شخوص قصصهم ورواياتهم واحتيالها عليهم وعلى مخططهم القصصي أو الروائي (مثلما فعلتما) لتحدِّد هي مسار حياتها المسرود، مع أو ضد رغبة الكاتب الذي يجد نفسه أسير تلك القوة المجهولة التي تحجِّمه، وتجعل منه مجرد أداة تنفذ إرادتها ومصائرها كما ترغب هي، لا كما كان يرغب كاتب العمل.

ثمة حقيقة أخرى أود لفت انتباهكما إليها في هذا السياق الذي أوقعتماني فيه؛ هي أن ما يهم القارئ الواقعي، في نهاية المطاف، هو انجذابه للعمل الروائي في حد ذاته (أو عدم انجذابه إليه)، لا شخص كاتبه كائنًا من كان ذاك الكاتب، وتلك نصيحة «ماريو بارغاسيَّة» عليكُما تثمينها. فالقراء العاديون ينجذبون في العادة إلى رواية لكاتب معروف ببراعته ليدفعوا نقودهم ثمنًا لها وهم مطمئنون إلى عوالمها الساحرة، كما إلى جودتها الفنية بقدرتها على الإقناع،

سواء كان ذلك الكاتب ممن قرأوا له رواية قبل المغامرة باقتناء عمل جديد له أم اكتفوا بالوثوق في ترحيب النقاد بأولى رواياته، وبه كاتبًا جديدًا على ساحة النشر، فضلاً عن كونهم، في بعض الأحايين، يطمئنون لآراء أصدقاء سبق لهم قراءة أعمال كاتب لم تتح لهم الفرصة للتعرف إليه في أعمال سابقة. لكن حسَّهم الفطري بفشل آخر أعماله -إن لم يكن مُقنعًا، أو ليس في مستوى أعماله السابقة- سيتسرب إلى أنوفهم بسرعة البرق، ويجعلهم يُبدون آراء ما كانوا ليفصحوا عنها لولا إمتاع الإقناع ومؤانسته، تانِكَ الخصيصتان اللتان سيبحث عنهما قارئ عمله الجديد. وربما كان باولو كويلهو خير مثال في «الخيميائي»، بيضة الديك تلك قياسًا إلى بُيوضِ دجاجاته الأخرى، عفوًا أقصد رواياته الأخرى!

ويبدو لي أنكما في «عملكما» هذا تحاولان النقيض الصَّعب على حُلم أسير وأصلعه المجهول، ناهيكما عن تغييب عنصرين أساسيين من عناصر الرِّواية: زمانها ومكانها. لذا فإن انسحاب الجميع من هذا العمل، إقرارًا بأنهم مجرد شخصيات مكتوبة أو محلومة فقط، هو الإمكانية الوحيدة لإعطائه فرصة قراءته وذيوعه وتصديقه بنجاحه أو فشله على حدٍّ سواء، لو قرَّر من سينسبه لنفسه -أو من سينتحله- نشره باسمه.

ولكما أن تتساءلا:

كم عدد الأعمال الأدبية من مسرحيات وروايات وملاحم شعرية لم تلاق صدى في زمن كتابتها؟ لكن إعادة تقييمها وإعادة الاعتبار لكتابها تلُوفِيتا في أزمان لاحقة. وأضحت تلك الأعمال بعد موت كُتابها بمئات السنين تُحفًا أدبية لا تطالها مطرقةٌ أو إزميلُ نسيان.

لذلك فإنني سأقترح على الجميع ألاّ يضطلع أي منا بارتكاب حماقات كالتي ارتكبتماها وشارككما إياها كل من تفاحة، المسمار والخامس، المُتورِّط رغمًا عن أنفه. لأن كاتب هذا العمل المجهول هو من سيتمتع تلقائيًا بمزيَّة وضع اسمه على غلاف الرِّواية، بصفته الكاتب الحقيقي لها، حتى تُعرف بين القراء الواقعيين باسمه هو فقط، فضلاً عن استئثاره بمزية كونه كاتبًا واقعيًّا لينقدَهُ، فيما بعد، هذا الناقد أو ذاك استحسانًا أو انتقاصًا، كما سينقدُهُ -بطبيعة الحال- هذا الناشرُ أو ذاك ما يستحقه مِن مُقابل مادي نظير نشره لهذه الرِّواية -أقصد هذه الورشة الروائية- إن كان شجاعًا بما فيه الكفاية لتحمُّلِ تبعات نشر ما سيجعل قارئه الواقعي يعتقد أنه كتبها حقًّا، بالتوازي مع اعتقادنا الواهم، اعتقادنا الذي علينا ترسيخه صُعدًا، بأننا لا أكثر من شخصيات روائيَّة من ابتكاره.

لنترك الكاتب، إذًا، يواجه الحقيقة وحده بكل تبعاتها الواقعية، ونحن كشخصيات روائيَّة مسرودة- سنكون بمنأى عن مصيره ومصير روايته. ومرة أخرى، مرة أخرى هي مسألة ليست يسيرة كما قد تظنان. فالأمر لم يعد سهلاً كما كان في الماضي، فثمة قوانين لحماية الملكية الفكرية سيعاقب وفقها إذا ما اعتُبر نشره لهذا العمل باسمه الشخصي انتحالاً سافرًا لفكرة هي من بنات أفكار شخصيَّاته، في حالة استطعتما إثبات تلك الحقوق في الواقع الواقعي. فالمعضلة التي سيواجهها؛ هي أنه شخصية واقعية ملموسة تحاسبها القوانين أو لا تحاسبها في دعاوى ضد شخصيات واقعية مماثلة تمتلك مثله بطاقات تعريف وجوازات سفر وسجلات عقارية -إن كان ملاكًا-، فضلاً عن سجلات في دوائر أجهزة الأمن والمخابرات ووزارات الداخلية، وفقًا لقوانين البلد التي قد ينتمي إليها الكاتب، في حين

لا نمتلك نحن الخمسة ورقة واحدة من تلك الأوراق الثبوتية، لو اتفقنا على محاولة فضح انتحاله هو لعملنا هذا، من داخل العمل، إن لم نُسلِّم بحقيقة أنه كاتبه بالفعل.

بطبيعة الحال لا أتحدث، هنا، عن الكاتب الذي سيوجد اسمه على غلاف العمل بعد نشره (وهذه ملحوظة للقارئ الواقعي، وليست لكُما)، بل أتحدث عن الكاتب الآخر، مُخلِّق راويه في الفصل الأول، ومُخلِّقِكما، ومُخلِّق تفاحة ومسمارها - إن كنتم جميعكم من بنات أفكاره، وهو ما آمل ظهوره قريبًا، ليفنِّد لنا ما يحدث على هذه الصفحات. كاتبه الذي قد يكونُ مُبتدئًا في كتابة الروايات، أو كاتبًا مُحترفًا أنجز كتابة الكثير من القصص القصيرة أو الروايات، إن كان ذا خبرة. وهذا سيقودنا لتخمين أنه كاتبٌ مُسِن، وربما كاتب معروف في بلاده أو خارجها.

من يدري فتلك احتمالات لا نستطيع الجزم بها الآن...

وعودةً إليه؛ أي كاتب هذا العمل، كاتبه المجهول حتى الآن، إن قرَّرتما الاستمرار في ادعاء أنه سرق عملكما هذا؛ يؤسفني القول أن قضية كهذه خاسرة سلفًا. خاسرة حتى قبل دخولنا محكمة قد تحاول، عبر قوانينها إنصافنا. لأنها كما أعتقد، وكما يجب عليكما أن تعتقدا، لن تنحاز إلينا بل إليه في حيثيات حكمها بصفته «كاتبًا واقعيًا» محسوسًا من شحم ولحم ودم يمتلك بطاقة شخصية وجواز سفر يُعرِّفان به، وبعنوان سكناه خلافنا نحن الذين لا نمتلك لأية هويّة تعريف سوى ما ورد في فصول هذه الصفحات. وهو أمر مهما بالغنا في تصديقه أو محاولة جعله مقنعًا

وواقعيًا في محكمةٍ سردية، فإن محكمة واقعية لن تحمله على محمل الجد.

نحن خاسرون في نهاية المطاف، وتلك حقيقة عليَّ وعليكما الاعتراف بها.

لكن الأهم من ذلك الاعتراف، هو أن عليكما القبول والرضا بما ستؤول إليه أحداث هذه الرِّواية. وهذا لا يعني فشلكما البتة. فهو، قبل كل شيء، نجاح سيثمِّنه القارئ الصَّبور. القارئ الذي لم يتكاسل، وسعى بجهد للوصول معنا حتى هذه الصفحة، رغم الفجوات الواضحة في تاريخانية السرد التي اتسمت بها الفصول المُؤسِّسة، إذا ما استرشدنا، مرةً أخرى، بكتاب بارغاس الدَّليل في غابة الكتابة المُتشعبة.

لا بأس. قد نبدو فاشلين أمام قارئ لا يُسامح، لكننا قد ننجح جميعًا لو كان الكاتبُ بعيد نظر، واقتادنا إلى نهاية تليق به، بنا وبقرائه الواقعيين، قرائه الشغوفين لمتابعته حتى النهاية.

ختامًا، تحياتي لكُما، لتفاحة ولمسمارها الخجول.

التنقيح

الفصل الثَّاني عشر

ربما لا تُدرك في معطف خجَلك الفضفاض أنك أنتَ، دون سواك، وتد هذا العمل ومسماره العتيد، وبدونك لن يستقيم كما لن تستقيم حياتي ومشاريعي المستقبلية على هذه الصفحات بمعيَّة الأصلع وحلمه أو من دونهما. ربما لا تُدرك تلك الحقيقة الساطعة؛ بيد أنني وطدت العزم على أن تكون ذا شأن ومكانة - ليس الآن، ولكن في الوقت المناسب- هنا على هذه الصَّفحات، كما كنتَ دائمًا وأبدًا في قلب حياتي.

ولأنك ذو شأن ومكانة دائمًا وأبدًا، فإنني لا أريد منك وضعي في سلة واحدة مع الأصلع وحلمه. ثمة تفاصيل لا تعرفها أنت، وبالطبع لا يعرفها الأصلع، ولن يرقى لمعرفتها حتى حلمه الأثير. تفاصيل فضلت كتمانها عنك، كما فعلت دائمًا. لكنني أرى أن الوقت قد حان للبوح بها لك؛ حتى لا تظل أسير اعتقادك بأنني واحدة من بنات حوار الأصلع وحلمه الأثير، بل فتاة حُرَّة لكنها شريدة مثلك تمامًا. وإن كان ثمة فرق بيننا فهو أنني مثقلة بتاريخ سرِّي لا يعرف عنه أحد شيئًا، وهو ما قرَّرت البوح به لك. أما ما جمعني بهما، وأوحى لك بأنني قد أكون من بنات حوارهما، فهو أمر أغرب من المصادفة، وأكثر غرابة من التقاطعات التي ترسمها

الحياة لمصائر من يحيونها ويفنونها بشاعرية حالمة، أو بقسوة ظالمة تستجيب لسلطانها تلك المصائر.

بيد أن حياتي كانت وما زالت مزيجًا فريدًا من تقاطعات نادرة الحدوث في الحياة والممات الشائعيْن، على حد سواء. تقاطعات جعلتني ألتقي في هيولى أحلامي مصادفة حُلمَ الأصلع الحبيس في علبته الفضية، وهي صدفة نادرة الحدوث في الواقع.

قد تبدو المسألة بالغة التعقيد بالنسبة إليك، لكنني لا أجد جُملاً وعبارات أسهل لشرح ذلك التعقيد وتبسيطه. لذلك يمكنك الاكتفاء بمحاولة إدراك الخطوط العامة لتلك التقاطعات، دونما حاجة بك للتعمق في محاولة استكناه أبعادها الظاهرة والخفية، لأنها محاولة ستقودك حتمًا إلى هاوية ملل أربأ بك حُبًّا أن تجد طريقها إليك، لأنني في حاجة للحفاظ على طاقات تركيزك لمتابعة سيرة حياتي الغريبة والعجيبة، ليس أثناء تقاطعها مؤخرًا وحُلمَ الأصلع، ولا أثناء نفاذي بحساسيتي وتجاربي إلى لبِّ المأزق الذي يعانيه كل منهما، فضلاً عن استشعاري لرغبتهما معًا في محاولة تخليق حياة روائيَّة قدر ما هي حالمة، لكنها مُفتقَدَة ضمن الشروط التي وضعا نفسيهما، إن لم أقل وجدا نفسيهما أسيرين لها. حياة يستعيران عبر ما ستمنحهما إياه نوعًا من التوازن المفتقد في حياتيهما الطبيعيتين، حالمًا وحلمًا محلومًا، في اللحظة التي تقاطعت حياتي المضطربة -على مستوى آخر- وحياتاهما ليصير مأزقهما الوجودي مسرحًا لا ينقصه سوى وجودي فيه للتعبير عن كينونتي التواقة للعثور على مسرح كذاك الذي أتاحته لي تلك التقاطعات الفريدة.

أدرك تمامًا أن المسألة ما زالت بالغة التعقيد بالنسبة لك، ومحاولة شرحها يزيدها تعقيدًا في الغالب. لكنها مقدمة ضرورية لفهم كينونتي في إطارها الصحيح -والمُعقَّد أيضًا- كي لا تظل أسير اعتقاد خاطئ بأنني واحدة من بنات حوار الأصلع وحلمه الأثير، بل حبيبتك الحُرة والشريدة مثلك تمامًا، لولا حياتي السابقة التي لا تعرف عنها شيئاً. حياتي المُثقلة -كما ألمحت لك، دون ادعاء- بتاريخ سرّي لا يعرف أحد شيئًا عنه.

وهو ما سأبوح به لأول مرة لك وحدك، ولك وحدك دون سواك.

فتفاحتك التي يحسدك ويحسدها الحاسدون على حُبك وحُبها لك مسحورة «مُغيّبة» تلاشت حياتها الواقعية منذ أمد بعيد بموتها ودفنها كما يُدفن الموتى، بيد أن حياتي استمرت في عالم غير منظور، عالم خارج سيطرة الواقع المعروف بنواميسه وأطُر قوانينه؛ سنين طوالاً استمرت، بعد رحيلي، دون أن يعرف أهلي ولا عشيرتي شيئًا عن تلك الحياة المديدة التي عشتها شابة دون أن أشيخ.

قد يبدو لك الأمر غريبًا، وقد لا تصدِّقه، لكنها الحقيقة الحُلوة والمُرة في آن.

ودونك حكايتي:

قبل نحو سبعين سنة ولدتُ في بلدة صغيرة غالبية ساكنيها زُرَّاع بُسطاء يؤمنون بالكرامات كما بالخرافات والخوارق. ولم يكن مستغربًا شيوع السِّحر وذيوعه فيها، لأنه حقيقة معاشة وخرافة يصدقها الناس لسبب بسيط: كثرة السَّحرة القاطنين في تلك البلدة.

المُدهش أن أولئك السَّحرة لم يكونوا مختلفين في مظهرهم

عن سكان البلدة العاديين، ولا يتميزون عنهم بسلوك يثير الرِّيبة والشكوك. لأنهم، بكل بساطة، كانوا أشخاصًا عاديين يعيشون حياتهم النهارية مثل سائر الناس، لكن الجميع يخشاهم لاعتقادهم بقدراتهم السحرية، وإيمانهم بامتلاكهم لحياة سرية تنشط دورتها في الليالي الطويلة، وما تلك الحياة العادية التي يمارسونها في وضح النهار سوى غطاء لتلك الحياة الأخرى غير المنظورة. لذلك لم يكن غريبًا في بلدتي، يا مسماري الحبيب، حين يتوفى أحدهم فجأة في شرخ الشباب أو حتى بعد مرض عارض أن يتفكر الجميع في طبيعة الميتة التي اقتنصت حياته.

هل مات مسحورًا أم استجابة لطلب اليد الإلهية؟..

لأن «المُغيَّب» متوفى لا يعتبر في حكم الأموات ولا حيًّا يَحتكم إلى تمظهرات الحياة الطبيعية. وأهل بلدتنا كانوا يؤمنون أن كريماتهم وشبانهم الذين يتوفون فجأة، أو إثر إشارات غير منظورة، لم يموتوا ميتة ربِّهم، بحكم تجاربهم السَّابقة وتجارب أسلافهم المرويَّة أبًا عن جد. فهم يدركون، بحكم توارثهم لتلك التجارب، أن جسد فقيدهم المُمدَّد في صحن البيت، بلا حول ولا قوة، بين عويلهم ونواحهم وبحثهم عن القطن والأقمشة البيضاء التي عليهم أن يكفنوا بها فقيدهم الغالي قبل توديعه إلى مثواه الأخير، يدركون أن ذلك الجسد المُمدَّد مجرد جذع لنخلة هرمة في آخر البلدة يتراءى لهم أنه فقيدهم الغالي.

لكنهم رغم تلك الحقيقة الفاقعة التي كانوا يؤمنون بها، لم يكونوا قادرين على الجزم بصحة ظنونهم أن فقيدهم مُغيَّبٌ مسحور

بالفعل، لأنهم في الوقت ذاته يؤمنون بالرَّب وبمشيئته التي لا راد لها حين تكيد كيدها للساحر وترفع روح جثة فقيدهم -إن كانت تلك جثته- لتستريح قرب بارئها في قيلولات الأعالي.

وفي بلدتي، في بلدتي كانوا يغسلون جذع النخلة ذاك وفق طقوسهم المُعتادة، ويكفنونه ويتلون الصلوات عليه، لأن ذلك الجذع يتراءى أمام أعينهم جثة طازجة، إن لم يجزم بعض الدَّهاقنة أنه جذع نخلة بالفعل أو جذع شجرة موز، إمعانًا من الساحر في التمويه أو تسهيلاً لعمليته الجراحية بين حرارة الجسد وبرودة الجثة، لكنه أمر حتى أولئك الدَّهاقنة لم يستطيعوا تأكيده دائمًا.

لذلك اعتادوا التسليم بالأمر، كما في كل مرة، ليتناوبوا على حمل جنازة فقيدهم أو فقيدتهم إلى المقبرة، جاهرين بصلواتهم في دروب البلدة إلى العليِّ القدير، بينما يتمتمون بصلوات أخرى يعتقدون أنها من وسوسة الشيطان، مُتمنِّين أن تصل أذن الساحر الذي قد يكون حاضرًا في ركب الجنازة، علَّه يتعطف للتخفيف من معاناة فقيدهم المسحور في العوالم التي سيتوجب على فقيدهم الاستعداد لها والتعايش وفق نواميسها وقوانينها التي لا يعرفون عنها شيئًا، بذات القدر من ضآلة يقينهم لو كان الفقيد مسحورًا تماهيًا وصيرورة مصيره لو كان ميتًا ميتة ربِّه؛ ليحيا فردوسه أو جحيمه وفق العدالة الإلهية التي آمنوا بها. وبرغم كثرة الإشارات التي لا يمل فقهاء بلدتي من تلاوتها على عامة المؤمنين البُسطاء، وغالبيتهم من الجُهَّال؛ بيد أنه لم تكن هناك علامات واضحة تؤكد ما يقولونه إثر كلِّ حادث وفاة مشكوك في أنها تلبية وخضوع لنداء الرَّب، عدا علامة لن يستطيعوا فيما بعد إنكارها:

ظهور الظلِّ الشبحيِّ للرَّاحل، حين يلتقيه الزرّاع وسُقاة الليل

طيفًا هائمًا بلحمه وشحمه، لتأكيد حضوره حيًّا بعد مرور شهرين أو ثلاثة أشهر على وفاته ودفنه. وهو أمر لا يلبث أن يجعل الإشاعات تنتشر حول حياته الأخرى كمُغيَّب مسحور في كنف السَّاحر. لكنها -في آخر الأمر- تظل تكهنات لا سبيل لإثبات صحتها في البلدة للتأكد أن آخر من افتقدته بلدتهم هو من يزور المرابع في الليالي زيارات مغلفة بغموض الرُّواة الذين يدَّعون في إشاعاتهم، أو رواياتهم الصَّادقة، أنهم رأوه بالفعل.

لكن تلك الحكايات التي تشيع كالنار في هشيم زرعهم لا تلبث أن تنحسر بفعل الزمن دونما تمحيص أو رغبة في التأكد من صحتها، لا سيما حين تنشغل البلدة، في دورات الفصول، بعرس أو بعيد من الأعياد؛ لتعود الحكايات عن الساحر والمُغيّب المسحور للظهور من جديد، حين تختار يد الرَّب أو يد الساحر فقيدًا جديدًا ليكون أضحية وقربانًا لواحدة من صيغتي الموت الشائعتين في البلدة:

السَّرمدي أو المؤقت.

قد ترى ما أرويه غريبًا وخياليًّا ولا يمكنك تصديقه، لكنه حقيقة لا مراء في حدوثها، ففي بلدتي كانوا يصدقونها ويكذبونها، كما كانوا يجهرون بصلواتهم للرَّب في عليائه، مثلما يتمتمون بصلوات كتومة تستجدي السَّاحر الرأفة بجذع النخلة الرَّمزي، بالأحرى فقيدهم الذي واروه التراب للتَّو.

أسرد لك هذه الحكاية التي تبدو خرافية في هذا الزمن الذي تعيش أنت فيه، لتتعرَّف إلى محبوبتك أكثر فأكثر، ولتدرك أسباب

نشأتي التي لم تكن يومًا روائيَّة تخيُّلية وعفو خاطر الأصلع وحلمه. فبدورهما لا أكثر ولا أقل من شخصيتين روائيتين لكاتب ما، مهما بالغا في غرور أمجادهما الأدبية. أسردها لك على غرابة وقعها وصعوبة تصديقها، لأنني مُغيَّبة يا حبيبي من رأسي حتى أخمص قدمي. نعم، مُغيبة انتقاني، في عز شبابي آنذاك، ساحرُ البلدة لأكون خليلته رغمًا عني في الكهوف التي فرَّ بجسدي إليها في اللحظة التي كان أهلي يبكون فيها على وفاتي معطِّرين مكفِّنين جذع النخلة الذي ظنوه فقيدتهم الغالية بشحمها ولحمها البارد: تفاحة.

* * *

كنت أعرفه جيدًا، ولا أنسى نظراته الشهوانية القابضة للروح. نظراته التي كان يعرف كيف يسمِّرها، يا مسماري العزيز، من فوق لحيته الشعثاء حين يزور أبي، لا ليشرب القهوة بل ليزرع الخوف في نفسي. لكنه كان يعرف أنه لا يستطيع الزواج بي، رغم أن عادة زواج شيَّاب ببنات بالكاد بلغن سِنَّ الرُّشد كانت شائعة ومقبولة اجتماعيًّا آنذاك. وحقيقة أنني مخطوبة لأحد أبناء عمومتي في حياتي السابقة، قبل سبعين عامًا، لم تفته بطبيعة الحال.

باختصار كان واحدًا من أولئك السَّحرة، وكان أهل البلدة في غيابه يدعونه السَّاحر برغم أنهم جميعًا لم يكونوا متيقنين من تلك الحقيقة، لكن الحديث الهامس يتجاهلها زعمًا غامضًا دون إثبات. وآنذاك، أي قبل سبعين عاماً، كنت أقترب من ربيعي الخامس عشر، وكان جمالي الفريد حديث بلدتنا الصغيرة. وكان العشرات من شبابها يتودَّدون إليّ ويتقرَّبون من أبي أملاً في أن أكون من

نصيب أحدهم، لكنني فهمت من أحاديث النساء والفتيات أنني مخطوبة عُرفًا لأحد أبناء عمومتي، برغم أنه لم يتقدم لخطبتي بعد. كنت أقترب من ربيعي الخامس عشر وكان معدل زيارات السَّاحر لأبي وتقربه منه يزدادان باطِّراد في تلك الفترة.

لم أُشعِر نفسي بخطر زياراته في البداية، برغم إحساسي الفطري بما كانت تخفيه نظراته. وأول مرة استشعرت فيها الخطر على حياتي كان في سابع زيارة له، عندما وضع عينيه مباشرة في عينيَّ أثناء قيامي بواجب الضيافة قائلاً لأبي، بينما كان يُسمِّر نظراته في وجهي البريء:

«لقد كبُرتْ البنت، وصارت عروسة».

نظراته كانت ثاقبة، ولم أستطع تجاهل مطلبها الخفيّ، لكنني كتمت الأمر ولم أخبر به أحدًا، لأنني كنت صغيرة، ولم أصدق الحكايات التي شاعت عنه. فهو رجل كبير في السِّن وذو مقام بين أفراد البلدة بحكم منزلته الاجتماعية وتديُّنه الظاهري ومشاركته الفعالة في تدبير أمور الناس وحسناته التي يُقدِّرها الفقراء، فضلاً عن ميلي، في البداية، لتفسير نظراته إلى رغبته فيَّ ليخطبني وأكون زوجته، فقد كان ذلك شائعًا في تلك الأوقات. لكنَّ قلبي كان يقول لي شيئًا آخر كلما أتيتُ بالتمر والقهوة إلى المجلس، ففي تلك الأيام لم تكن البنت الصغيرة تختبئ حتى تتأكد خطبتها، وتُلزَم بلبس كسوة الرَّأس بطريقة معينة.

كانت سمعته النهارية صافية وبيضاء تتلألأ كشمس النهار، لكن سمعته الليلية سوداء كالليل الكالح، ولم تكن هناك من وسيلة متاحة

لإثبات صحة الشائعات التي تدور حوله، برغم أن أكثر من شاهد تحدث عن ملاقاته في الليل أمواتًا يدورون حول بيوت ذويهم ومزارعهم متحدثين عن الساحر الذي سلبهم حياتهم في عز شبابهم. لكن أحدًا لم يأخذ تلك الشائعات على محمل الجد، كما لم يكذبها أحد بالحجَّة والبرهان، برغم ما تُوسوِسُه لهم نفوسهم من شكوك. وهذا اللبس كان واحدًا من مصادر قوته النهارية ضد شائعة قواه الليلية. وكانت، في نفس الوقت، مصدر قوة خفي يُعطي زخمًا لتلك القوى الليلية التي يخشاها الجميع ويزعمون في السِّر أنه صاحبها.

بالطبع هناك شائعات في البلدة حول آخرين تقول إنهم ربما كانوا سحرة مثله، لكنها لم تكن بقوة الشائعات التي تدور حول الساحر الذي ما إن يدور حديث في أحد المجالس ترد فيه مفردة الساحر، إلاّ وكان هو، دون سواه، المقصود ضمنًا بذلك التلميح.

لا أريد الإطالة عليك بحكايتي الغريبة التي دعاني لسرد وقائعها سببان:

ترسيخ معرفتك بي وبأسراري، ومحو الراسخ من اعتقادك أنني من بنات أفكار الأصلع وحلمه، فما حدث لي قبيل بلوغي السادسة عشرة بشهرين تقريبًا أمر لم يكن في الحسبان، إثر زيارة السَّاحر لبيتنا ودعوته لنا جميعًا لتناول الطعام في بيته بعد عشرة أيام ابتهاجًا -كما تعلَّل- بعثور أبي على ماء وفير في البئر التي كان أبي يحفرها في مزرعته آنذاك، وكاد أن يتوقف يائسًا من الاستمرار في تعميقها بعد جهد ومال بذلهما دون الوصول إلى طبقة المياه الغائرة. وهي بادرة حُسن نيّة لم يفوِّت الساحر استغلالها، ولم يكن أمام أبي

المسكين سوى تثمينها والموافقة على تلبية الدعوة في غمرة فرحه بالعثور على كنز ماء يفي بحاجته وحاجة جيرانه.

لكن ما حدث في تلك المناسبة الكارثية هو ما قلب حياتي وما بعد حياتي رأسًا على عقب، فبعد أن تناول المدعوُّون حصصهم من لحم ذبيحة الساحر، ناداني وناولني قطعة حلوى ادعى أنها تزيد البنات الحليوات حلاوة، وتجعل الخُطاب يتقاطرون لخطب ودِّهن. وقد تناولت تلك الحلوى إثر إصراره الذي بدا لي مريبًا وبريئًا في آن، وهي ريبة أعدتها لتوجسِّي من نظراته القوية في زياراته السابقة لنا، لكنني استسلمت لبراءة احتفاله المُحتفي بأبي الفرِح بعثوره على الماء بعد سنين، لا سيما أن أبي الغافل عن نواياه شجعني على تناولها قائلاً:

لا ترفضي هدايا عمِّك الطيِّب.

تناولتُ حلوى الساحر وركضت لاهية مع رفيقاتي في حوش بيته لأتعثر بحصاة، أثناء لعبي معهن، مما أدى، وكأن الأمر مصادفة، لإصابتي بجرح طفيف في إبهام قدمي اليُسرى. لم أكترث للجرح الطفيف، ولم أعِر غسله وتنظيفه اهتمامًا طوال لعبنا ولهونا في حوش بيته، لكنني لاحظت في اليوم التالي تورم الأصبع. ومرة أخرى، لم أولِ الأمر أهمية ظنًّا مني أنه سيشفى من تلقاء ذاته. بيد أنه جرح تغلغل حتى العظم في أصبعي التي تورَّمت وتقيحت؛ مما حدا بجدتي إلى تضميده بخلطة من الأعشاب والكُركم والرماد. لكنها خلطة لم تجد نفعًا ولم تخفف من الآلام التي سببها ذلك الجُرح.

كان القيح يزداد يومًا إثر آخر، فلم تجد العائلة بدًّا من اتخاذ قرار لا تلجأ إليه في حالة كتلك الحالة: ضرورة استدعاء طبيب شعبي مشهور لعلاجي بعد أن نهشتني الحمى ودخلت في غيبوبة لم

يصدق حتى المُعالج أنها ناتجة عن الجرح الذي تسبب في تورم قدمي اليُسرى حتى صرت عاجزة عن الحركة أعاني السهر والآلام التي استشرَتْ لاحقًا حتى الرُّكبة.

ولن أطيل عليك: فبعد معاناة استمرت أربع عشرة ليلة وظهيرة أخيرة قضيتها في مُعترك الآلام التي سبَّبها لي ذلك الجُرح في بيت الساحر، ولم يستطع أي دواء شفاءها قضيتُ نحبي في عز ظهيرة اليوم الخامس عشر.

ولن أعيد عليك تفاصيل مشهد، قد لا تُصدِّقه لكنك تستطيع تخيُّله:

وَلوَلَ أهلي وبكوا بعد أن فارقت الرُّوح جثتي التي لم تكن، بالفعل، سوى جذع نخلة بينما كان الساحر يفرّ بي لحظة موتي إلى أحد كهوفه في الجبال، حيث يحتفظ بقطيع من أسراه المُغيَّبين، أو «المغايبة» كما كنا ندعوهم.

كنت أراه قادمًا بجذع النخلة لحظة موتي ليسرقني دون أن يلحظ أهلي استبداله لبدني بذلك الجذع الذي رأيته، بعين روحي المرفرفة، بينما كان أهلي يبكون حول جذع النخلة (بديل بدني)، ظنًّا منهم أنه فقيدتهم الغالية تفاحة.

كنت أصرخ لكنه صراخ الميِّت/الحَيّ لا تسمعه آذان الأحياء خلال طيران جسده بعيدًا عن البلدة نحو الجبال، حيث حط بي أمام كهف كبير وأمرني بالدخول.

وكما يحدث في السُّجون، بمجرد دخولي رحَّبَ أهل الكهف بقدومي، وهنأوني على انضمامي إليهم وانسلاخي من وتيرة الحياة العادية، فرحين بمشاركتي إيَّاهم فردوسهم الجحيمي حيث يحيون جميعًا تحت سيطرة السَّاحر وأتباعه، وبمجرد هبوطي في ذلك

الكهف عاد السَّاحِرُ مُسرعًا إلى القرية للمشاركة في جنازتي، ليذرف الدُّموع مُعزيًا أبي وإخواني في المقبرة، كما في مجلس العزاء.

* * *

تلك الليلة أقام المَغايبة حفلة بمناسبة انضمام ملكة جَمال العالم المُغيَّب إليهم، كما طفقوا ينادونني في ذلك الكهف الكئيب.

رقصوا وغنوا وشربوا ومزقوا بأنيابهم لحوم الغزلان والأرانب التي كان يوفرها لهم معاونوه، بينما كان هو بلحيته الشعثاء جالسًا كالأباطرة على مقعد حجريٍّ عالٍ يُراقب مشاهد الحفلة بين ضبعتين تحرسان مقعده كتماثيل الأسود، في الوقت الذي كانت البلدة بقضها وقضيضها تعود من المقبرة بعد أن وارت الثرى جذع النخلة ليقيموا العزاء لوفاتي بسبب جرح بسيط لا يستدعي انقضاض ملاك الموت على أجمل صبايا البلدة.

الساحر بعد أن استقام العزاء في البلدة وشارك فيه، كان يتلمظ بعد عودته لكهفه، مُنتظرًا وصولي محمولة على صينيَّة كبيرة حملها أربعة من أعوانه السَّحرة الصغار ليضعوني أمامه، بعد أن زينوني وألبسوني زيًّا يليق بالمحفل، بينما كان المغايبة يرقصون كالعبيد فرحًا بشرائح لحم الغزلان والأرانب التي يرمون بقاياها للضباع، رَكُوبة السَّحرة وصديقتهم الخالدة بسبب انصياعها لهم خلافًا لسائر الحيوانات المفترسة التي اعتادت النفور منهم، فالضباع وسيلة مواصلاتهم السريعة وسلاحهم الفعال لمطاردة الطرائد. لذلك كان السحرة سلاح الضباع الذي يكسبها طاقة الصَّعقة التي تمكنها من الاحتيال على أشرس طرائد الفلوات، ولا تمانع -نظير تلك الطاقة المُكتسَبة- أن تكون ركوبتهم في ليالي المحاق ليتلذذوا جميعًا

بنهش لحم تلك الغزلان والأرانب بعد أسبوع أو عشرة أيام من التجويع المُمنهج، طوال فترات غياب الساحر القائد عن أسراه المغايبة ومعاونيه من السحرة الصغار ليتمكن، في القرية، من ممارسة تقية حياته النهارية أمام أهل بلدتي المساكين، أهلها الذين يصدقون حجج غيابه الدائمة بأنه كان في رحلة صيد.

تلك الليلة افترَعَني بشراسة، ساحقًا ماحقًا وردة عذريتي بفظاظة. تلك الليلة، ليلة موتي وانسكاب دموع أهلي وأقربائي وأحبائي على رحيلي. عذريتي التي حافظت عليها مصونة طوال سنوات الشباب رغم فوراني الجنسي العارم ومحاولات أكثر من شاب في خلوات الغروب بين مزرعة أبي ومزارع الجيران، الذين كنت أوصل طبيخ أمي ولبنها الطازج إليهم، طمعًا في تقبيلي وطرحي تحت شجرة لمضاجعتي إن أمكن، أو تلمس نهديَّ البضَّين، لكنها كانت محاولات مراهقة قاومتها باستشراس، برغم الرغبة الجامحة في جوفي المتعطش للذة المُحرمة.

من مقاومتي المبكرة تلك اكتسبت طاقة رفض ما ظننت، في تلك السِّن المبكرة، قدرتي على تطويعها لرفض التعايش وفق قوانين ذلك المجتمع المُغيَّب والمُستعبد في كهفه. لذا كنت له بالمرصاد ليلة إثر ليلة لإفشال مخططات استحواذه عليَّ بالكامل، وهي مهمة شاقة إن لم أقل مستحيلة ضمن شروط الحصار التي فرضها عليّ هو وأتباعه. بيد أنني وجدت مخرجًا للفكاك من سرنمة المغيَّبين في ذلك البرزخ بين الحياة والموت حين أطلعني، في واحدة من لحظات تودُّده وتقربه مني، على كهف خاص لا يدخله سواه كان يحتفظ فيه بمكتبة مليئة بمخطوطات الأقدمين، وسمح لي -بعد ملاحظته اهتمامي بالكتب- بقضاء بعض الوقت في كهف

المكتبة التي أغرمت بها وكانت سلوتي الوحيدة أيام محنتي قبل سبعين عامًا.

انهمكت في قراءة الكتب والمصنفات الزاخرة بعلوم الفلك والطب والكيمياء والخيمياء وسواها من المعارف التي مكنتني من تلمس حجري الكيمياء والخيمياء السِّحريَّين بعد تبحُّري في تلك المصنفات التي هيأتني لامتلاك معرفة ألهمتني، بعد فترة طويلة، طرائق للفكاك منه ومن طلاسم سحره، لأهيم خلال فترات غيابه عن ذلك المعتقل في البراري والمفازات تجريبًا لطقوس الفكاك من السحر بالتموضع في نقاط جغرافية معينة في أوقات معينة تعتمد على دورة القمر الشهرية، لأتمكن من التقاطع، بجسدي وروحي في لحظة زمنية، وعالم مضاد بطبيعته لعالمي الذي وُلدت فيه ولعالمه المسحور في آن، ليتحقق وجودي في صيغة وجود ثالثة.

كان عليَّ تجريب تلك الطقوس مرات ومرات لاقتناص تلك اللحظة الزمنية النادرة فلكيًّا؛ حتى مكنتني من نفسها في الليلة التالية لاكتمال البدر منتصف الشهر السابع بعد رحيلي عن حياتي الأولى في ريعان شبابي، لأتقاطع، من حيث لا أدري، وحلمَ الأصلع الذي يعيش في عالم لاحق زمنيًّا لعالمي القديم. ذاك التقاطع الثمين؛ مكّنني من خلق عالم مُواز لكلا العالمين: عالمي القديم فتاةً لعوبًا بين أهلي وذويّ وعالمي الجديد بين المغايبة، بحيث أستطيع المشي في صراط وسط أتاح لي الامتزاج -دون أن أتجسد كآدمية أو حتى كمُغيَّبة- في هيولى عالم كل من الأصلع وحلمه الأثير.

وهو صراط سرّيٌ مكنني من الاستمرار في إغواء السيطرة على حياتي وفق صيغة جديدة دون أن أخسر ميزات العالمَين، بما في

ذلك عُمري الذي تمكنت من المحافظة عليه ليكون واحدًا وعشرين عامًا مهما طال بي العمر، برغم أن عمري الغابر سبعين سنة، مما تعدُّون هذه الأيام.

لكنني مع ذلك، وفي حالات خاصة أتجسَّدُ فتاةً لا مثيل لجمالها المُرعب. ولو تذكرتَ الفتاة التي زارت مطعمك البحري الذي تعمل نادلاً فيه أكثر من مرَّة، وجلست وحدها تتأملُ انعكاس زرقة البحر في عينيك، الفتاة التي تبدو ثرية بسبب اصطحابها دائمًا لقطة بريَّة نادرة الوجود، تثير بحضورها الفضول، وهي تجلس تحت قدمي تلك الفتاة بخضوع كلب مُستأنس؛ لو تذكرتَ تلك الفتاة التي سمَّرت عينيها في عينيك عدَّة مرَّات، فهي أنا!

هذه حكايتي التي لا تُصدَّق.

حكايتي التي لا أكترث لتصديق القارئ لها، قدر اكتراثي لتصديقك أنت لها يا مسمار حياتي الخجول.

فأنا مثلك جسد شريد وهائم. جسد وجد فيك أنت دون سواك توأمه وتوأمك النقيض. وأحبك في النهار كما في الليل حتى الثمالات التي لا ثمالة بعدها في اللغة تعبيرًا عن كينونة مغيَّبة، لكنها حاضرة لأجلك بفضل تقاطعي وحُلم الأصلع الذي لم أكن واحدة من بنات حواره مع حلمه، كما أخبرتك مرارًا وتكرارًا.

حبيبتك التي اصطفتك من لحم ودم سرِّيين، من لحم ودم مسحورين، فأنا المغيَّبة التي عاشت أسطورة غيبتها عن الواقع دهرًا طويلاً لأنضج روحًا وجسدًا لا يراهما سواك في هذا الحلم الذي حاولتُ جهدي، في تتالي شموسه وأقماره في بواطن الباطن، أن

أتقاطع فيه وإيّاك. علّك تُنسيني آلامي ومُعاناتي خلال الواقع القصير، الواقع القديم جدًّا، الواقع الذي لا يتجاوز ستة عشر عامًا قديمة في الذاكرة، الواقع الذي عشته مع أهلي في بلدتي قبل أن يسحرني ذلك الساحر ويحوّلني إلى مُغنيّة.

قد أبدو لك شابة وجميلة، كما تراءيت وتجسدت لك، فأنا في طبيعتي الفزيولوجية الحالية شابة بالفعل، كما بدوت لك، لكنني عجوز بمقياس يومك هذا. وأعرف أن اعترافاتي السابقة لن تُريحَ كثيرين، لكنه اعتراف عمّا مضى وانحسر قبل سبعين عامًا، فهل سيشفع لي ذلك محاولة ترميم صورتي أمامك؟

لا أعرف، لا أعرف.

هذه حقيقتي، فساعدني في محبتي لك، وحتمًا، حتمًا لن تندم.

أما البُرهان، إن كان لا بد منه، فهو عدم قدرة الأصلع وحلمه على قراءة هذا الفصل، فما سينبني بعده سيكشف لك حقائق لم تعرفها، وحتمًا لن يعرفها الأصلع وحلمه حين يُصبحان طيَّ النسيان بعد استكمال تنقيح المخطوطة.

الفصل الثَّالث عشر

تعاقبت الفصول وتداعت أمام القارئ وفق مشيئة شخصياتها إثر قرار شجاع ومرتجل اتخذته شخصية الأصلع حين قدَّمت وجهة نظر وحقائق مختلفة عما أورده راوي الفصل الافتتاحي هدمًا للمسار الذي خطط له الرَّاوي (أو الكاتب) بعناية فائقة لم تشفع له المحافظة على دوره، بعد أن أجبر على الانسحاب والاكتفاء بمراقبة تداعي الأحداث المروية على ألسنة شخوصها بعيدًا عما خطط له.

لكن ما لا يعرفه القراء المتتبعون لانحراف المسار؛ هو أن الشخصيات التي انقلبت على ما رواه من روى الفصل الأول (أقصد الأصلع وحلمه) وتوهُّم ابتداعهما لشخصيات جديدة (تفاحة ومسمارها) شاركت، هي الأخرى، في تخليق فضاء سردي تحكمت بمساره شخوصهم وأهواؤها. كُلُّ هذا كان جزءًا من مُخطط روائي غير مُعتاد، أي أن ما بدا انحرافًا عن المألوف في تقنيات السرد المتعارف عليها هو، في حقيقته، انحراف مقصود لتلافي مسارات التسلسل السَّردي المعهود في الغالبية العظمى من الأعمال الروائيَّة. قد يبدو ذلك غريبًا وغير مفهوم، بيد أنه انحراف مقصود لهدف لم يُفصَح عنه:

بلوغ ذروات فشل سردي للوصول بالتجربة، قدر المستطاع، إلى تخوم هدف نهائي لم يحن وقت الإفصاح عنه. وهي تجربة مُغامِرة بلعبتها السَّردية غير الشائعة، لكنها كسواها من التجارب ليست منزهة عن أخطائها التي وقعت فيها بما آلت إليه من نتائج لم تكن في الحسبان، ككل خطوة مغامرة يصعب التكهن، عبر يقين قاطع بنتيجتها، نجاحًا أو فشلاً.

إن كل تفصيل متبوع بتفصيل نقيض طوال الفصول التأسيسيَّة، بأحداثها الغريبة التي انحرفت عن مسارها، أمر مقصود لاختبار عناصر الفشل وقدرة العمل على إبرازها بفشل أو بنجاح، لولا أن الشخصيات التي أُوكِلت إليها تلك المهمة تمادت أكثر مما ينبغي في اللعبة التي راقها التحكُّم بزمامها، مما اضطرني في الفصل التاسع للتدخل في مجرى الأحداث التي انحرفت أكثر من الحدود القصوى المسموح بها للتجربة، لذلك أدرتُ الدَّفة تصحيحًا للمسار كي تجري الأحداث في وجهتها الصحيحة، بعد تمادي الأصلع وحلمه في طموحاتهما التي واصلا نجاحات انحرافها الفكِه والظريف، ولكن إلى أبعد مما أُريدَ لها.

ولأن الأحداث آلت إلى ما آلت إليه، فربَّتما أضحى الوقت مناسبًا للكشف عن حكاية ما حدث ويحدث وما سيحدث فيما تبقى من فصول، فهي حكاية أثقلت كاهلي طويلاً، ولم أكن أريد الإفصاح عنها ابتداء من هذا الفصل، لولا أن الأحداث بما وصلت إليه من نهايات غير متوقعة ومفاجآت لم تكن في الحسبان، دعتني لتغيير خططي كشفًا للحقيقة التي حاولت إخفاءها أطول فترة ممكنة إمعانًا في تشويق القارئ بنهايات أكثر جِدًّا وإمتاعًا مما آلت الأحداث إليه.

وقبل البدء بتفسير ما حدث، عليّ تفسير كُنهي وماهيَّتي الحقيقية لسبب سبق التلميح إليه:

نعم. أنا الخامس، لكنني لست شخصية روائيَّة بالمعنى المعهود والمتعارف عليه في الرِّوايات.

أنا شخصية واقعية حتى النخاع، وأحد أصدقاء كاتب قصص قصيرة تميَّز دون سواه من مُجايليه في بلادنا بأسلوبه الذي اعتبره النقاد ضربة مُعلِّم لا تُجارى ولا يُجارى. نعم. كانت أسلوبيته في السَّرد القصصي سقفًا لم يستطع كُتاب القصص القصيرة تجاوزه. أعترف بذلك، لا لأنني صديقه فحسب، بل لأنني واحد من زمرة نقاد أعماله الذين كانوا وما زالوا يؤمنون أنها نموذج يُحتذى لفن السرد القصصي. ولا أبالغ في القول إن أفصحتُ بأن تأثير أسلوبه القصصي الفريد أضحى واضحًا في القصص القصيرة التي تنشرها الملاحق الثقافية لكُتاب الجيل اللاحق له، وإن لم يعترفوا ضمنًا أو صراحة بتأثيره العارم.

صديقي الكاتب اسمه الذي اختاره لنفسه **صاد** تخفُّفًا من اسمه الذي اختاره له أبوهُ النَّحوي: «ضاد»، فعُرف بين الأصدقاء بذلك الاسم. كان مُتواضعًا، ولم يزل رافضًا لمبدأ الاعتراف بريادته الأسلوبية أمام أصدقائه المثقفين. ريادته التي أثرت في جيل بأكمله، مفضلاً -في كثير من جلساتنا- تحوير دفة الحديث إلى موضوع آخر لا يتطرق إلى إنجازاته حتى معي أنا أعز أصدقائه وأقربهم إلى نفسه.

وكان دائمًا ما يفضل -عوضًا عن الحديث عنه- الاستماع لرأيي في مقالاته الأسبوعية التي ظل يكتبها في الصحافة فترة طويلة

من الزمن. وهي مقالات كانت تتذبذب جودتها من أسبوع لآخر. وكنت ألمِّح له في كثير من المرات إلى أن الكتابة الأسبوعية في الصحافة أنهكته، ولم يعد يقدم جديدًا لقرائه الذين يتابعون مقالاته بسبب حضور اسمه الأدبي الذي كرسته جودة مجاميعه القصصية التي نشرها طوال العشرين عامًا الماضية. لكنه كعادته لم يكن - حين نكون وحدنا- يكتفي بتلميحاتي إلى مقالاته، طالبًا مني التصريح بآرائي رفعًا للكلفة بين الكاتب والناقد. وكنت أفعل ذلك أحيانًا وأخجل من تشريح مقالاته في أغلب الأحايين، لأنني لم أكن راضيًا عن معظمها.

كان صاد يستكنه تلك الحقيقة، وكان يتعلل دائمًا -بين سيجارة وأخرى- بأن مواظبته على كتابة تلك المقالات عائدة لظروفه المادية السيئة في سنواته الأخيرة، وأنها مصدر دخله الوحيد الذي يُرقِّعُ به أسباب العيش إلى جانب معاشه التقاعدي الضئيل. وبدوري كنت أعرف تلك الحقيقة، لكن حبي له ولإبداعه الحقيقي يدفعانني للتصريح له بعدم رضاي عن مواظبته على كتابة تلك المقالات. وكنت أدفعه طوال جلساتنا لتكريس وقته لإعادة استثمار تجربته القصصية الرائدة لكتابة عمل سردي طويل، لكنها فكرة كانت تخيفه وترعبه ويطالبني بالكف عن ترديدها على مسامعه:

- أعرف طاقاتي والمجال الذي أستطيع الإبداع فيه. للرِّواية كُتابها، وبالتأكيد لستُ واحدًا منهم.

هكذا كانت ردوده على مقترحي الدائم، رافضًا فكرة كتابة عمل سردي طويل. لكنني، رغم ردوده المتملصة، تلك التي بت أحفظها عن ظهر قلب؛ لم أتوقف في لقاءاتنا عن مشاكسته والمبالغة في مماحكاتي قائلاً له:

- عزيزي صاد: الروائيون ليسوا آلهة بل كُتاب مثلك، وتستطيع أن تكون واحداً منهم. كل ما عليك فعله هو الاقتناع بالفكرة وبدء المحاولة من نقطة محددة.

لكن الفكرة دائمًا لا تروقه، ويتذرع بكافة ذرائع الكاتب للتملص من دفعي له باتجاه تلك الفكرة التي ترعبه. كان يصمت أحيانًا، ليتلهى حتى في صمته بالحديث عن شجرة أو سحابة أو قصيدة تفعيلة أعجبته في الملحق الثقافي الأسبوعي. وعندما أعود لإلحاحي يغضب منفجرًا في وجهي مع كُحَّةٍ تُصاحبه، حين ينفعل، بسبب تدخينه المُفرط:

- لست روائيًا، قلت لك هذا ألف مرة. وأعرف جيدًا أنني لو خاطرت بمحاولة كتابتها فإنني سأفشل بالتأكيد.

كانت أغلب تلك الأحاديث تدور في بيته الصغير حيث يعيش منعزلاً منذ سنوات طلاقه قبل زمن، فهو لم يُنجب سوى ولد وبنت: الصَّلت وشمس.

حين كبُر الصَّلت تأثر بخاله المُتديِّن وأطلق لحيته، لينتمي فيما بعد إلى مجموعة دينية مُتطرِّفة أوحت له بمحاربة أبيه صاد وأفكاره اللعينة تلك التي يبثُّها في كتبه ومقالاته، فساءت العلاقة بين الصَّلت وأبيه صاد إلى أن تبرَّأ أحدهما من الآخر. أما ابنته شمس، وهي أصغر من أخيها، فقد تعلَّقت به وتعلَّق صاد بها، لدرجة أنه كان يدعوها حين لا تكون موجودة: «وحيدتي شمس»، فقد تشرَّبت أفكار أبيها، وكانت موهوبة في الرَّسم منذ نعومة أظفارها.

كنت أصادفها أحيانًا في بيته، فهي تقسِّم وقتها بين كلية الفنون

الجميلة وزيارته في العطلات الأسبوعية لرعايته والاهتمام به إثر اعتلال صحته. وبرغم اهتمامها بدراسة الفنون إلاّ أنها كانت قارئة روايات من الطراز الأول. وكانت حين أصادفها مع أبيها تؤازرني مرحًا وتحببًا في إلحاحي عليه بكتابة رواية. لكن صاد، ككل مرة، ينفخ دخان سيجارته ويصرخ في وجهينا قائلًا:

- يا صديقي انشغل بما أنت منشغل به، وأنتِ يا شمس دعيك من حكاية الرّوايات وعودي في المرة القادمة بلوحة قيّمة يعلقها بابا في مكتبته.

لم يتزحزح قيد أنملة عن رفضه القاطع، ولم أكف طوال زياراتي له عن التطرق للموضوع الذي تناقشنا فيه مرارًا وتكرارًا إلى الحد الذي جعلنا نتندر عليه، في لحظات مللنا من بعضنا بعضًا، بواحد من التعابير التي كانت تروق مللنا في تلك الجلسات: امتحان الفشل الشهري!

كنت أنغص عليه حتى بفكاهة التندُّر على مشروع كتابة رواية، وإصراره المُسبق على فشله في كتابتها حتى صارت «امتحان الفشل» لازمة أدبيَّة في أحاديثنا اعتاد أحدنا أن يُنهيها بجملة ساخرة لنتفرع منها متحدثين عن أي شيء إلاّ ذلك الموضوع بالذات.

* * *

دارت الأيام ومرت السنون، لكنني لم أكف عن إلحاحي ولم يكف هو عن التشبث بفكرة الفشل. لكنني لم أقتنع برفضه ولم يقتنع صاد بالفكرة التي حاولت غرسها في رأسه لقاء إثر لقاء، معتبرًا أنه أكفأ كتابنا للبدء بكتابة رواية، قياسًا إلى ما ينشره تلاميذه

من هذر روائي وقصصي. لكنه لا يكف عن القول بأنه مجال اشتغال لن يضيف شيئًا إلى رصيده الأدبي المتحقق في كتابة القصص القصيرة وبعض مقالاته التأمليَّة.

وربما كان محقًّا في تخوفه من مصير محفوف بالمخاطر وقع فيه بعض الكتاب الذين أغوتهم فكرة كتابة الرِّواية ولم تضف شيئًا إلى رصيدهم وسمعتهم الأدبية القائمة على ثقة قرائهم بما ينتجونه من شعر أو قصص قصيرة، فضلاً عما يكتبونه من مقالات وتأملات في الصحافة الأدبية. لكنه برغم تكرار استشهاده بأمثلة شائعة لشعراء كبار كتبوا روايات فاشلة كان صاد يتخوف، في العمق، من امتحان الفشل الذي تحول لفرط تكراره إلى تلك الطرفة التي كنا نتندر بها كلما ضايقته بإلحاحي.

تلك حقيقة أعرفها، وأقدِّر توجسه الذي جعله ينزوي مبتعدًا عن محاولة كتابة نص سردي طويل طالما تمنيت عليه كتابته. ولو أنه، لو أنه أقصى فكرة الفشل التي سيطرت عليه ربما وجد في نفسه الروائي الذي طالما افتقده، وطالما تمنيناه.

صاد كان من عشاق دوستويفسكي الكبار، ولم يكن ليتردد في القول بأنه أعظم الروائيين قاطبة. كان يسميه الشيخ أحيانًا ويدفعنا لقراءة رواياته، ولا يرى مانعًا في إعارتنا أعماله الكاملة جزءًا إثر آخر، متهكمًا من ثقافتنا الهشة «دوستويفسكيًّا»، متعجبًا من عدم التفاتنا إلى تلك التجربة الهامة، ومن مسوغات حججنا الأكثر هشاشة، في وعينا النقدي المنقوص وفق تعبيره.

هكذا كان يُعاتبنا نحن النقاد حين نتذرع بمسوغات من قبيل أن رواياته قديمة، وقد عفا عليها الزمن، بأبطالها الكثيرين وأسمائهم

الروسية الطويلة صعبة الحفظ، ناهيك عن لازمة أخرى لم نكف عن التذرع بها أمام شيخنا صاد العجوز: قصر الوقت وضرورة ملاحقتنا لما تنتجه المطابع من قصص وروايات لكتاب معاصرين أهم، في نظرنا، من كلاسيكية دوستويفسكي.

كان يحبه ولا يتورع عن تجيير محبته العارمة لدوستويفسكي وتوظيفها دفاعًا عن قناعته بعدم أهليته لكتابة رواية، معتبرًا أنه أعظم من كتب الرِّواية، ولن يجيدها أحد بعده. وكنا شمس وأنا وبعض المثقفين الذين نلتقيه في منزله نعرف تقديره البالغ للكاتب الرُّوسي الشهير، لدرجة أن أحد الشعراء سمَّاه ذات مرة: «صادوفسكي»، بسبب إفراطه في محبته وتقديره له. وبدوره حين بلغت مسامعه قفشة ذلك الشاعر، لم يعترض على لازمة الاسم الروسيَّة المُضافة إلى اسمه صاد، بل كانت تريحه لأنها تذكره على الفور بدوستويفسكي، وتنسينا مطالبتنا له بكتابة رواية، ليكون هو دون سواه صادوفسكي عصرنا، كما تمنينا.

لم أيأس منه ومن رفضه الدائم لإلحاحي عليه بفكرة كتابة رواية، رغم انقطاعي فترة من الزمن عن زيارته. ويبدو أنه خمن أسباب انقطاعي فهاتفني سائلاً عن الأحوال. قلت له: لا جديد سوى المشاغل اليومية ومتابعة الجديد من روايات وقصص قصيرة للكتابة عنها في الجريدة.

بعد أسبوع من انقطاعي فاجأته بزيارة دون ترتيب هاتفي مسبق كما جرى عليه العُرف بيننا. أفرحتهُ زيارتي المُفاجئة، وكأنه لم يرني شهورًا بحذافير أسابيعها وأيامها الطويلة. كان مزاجه رائقًا ولم تكن نوبات الاكتئاب التي تعاوده بسبب عزلته التي يفرضها على نفسه بادية عليه. سألته عن ابنته شمس فقال إنها لم تزره منذ

أسبوعين بسبب انشغالها بورشة عمل فنية، ثم سألته عن جديد مشاريعه فقال بنبرة خافتة:

- لم أكتب شيئًا يستحق الذكر.

كان الجو رائعًا في ذلك اليوم، ولم يصطحبني للجلوس في مكتبته كالعادة، وإنما إلى حديقته التي يعتني بها بنفسه، لاسيَّما نخلتها الوحيدة.

شربنا الشاي وتحدثنا عن لطافة الجو والنسيم الذي كان يحرك حولنا وريقات الأشجار في فصل الشتاء، ليقول بعد برهة:

- كم أتمنى لو أن الطقس دائمًا على هذا الحال الرَّبيعي.

- شتاء ربيعي لا يدوم طويلاً في بلادنا يا صاد.

- الطاولة وهذان الكرسيان الخشبيان طقم جلوس أهدته لي ابنتي شمس كي أقضي المزيد من الوقت للكتابة في الحديقة، عوضًا عن المكتبة، وكي لا أختنق بدخان السجائر.

بالنسبة لي، كان ذلك التفصيل العابر فرصة ومدخلاً لا يفوَّتان للعودة إلى موّالي القديم:

- شمس تحبك، وأهدتك الطاولة لتكتب رواية. لم لا تبدأ بكتابتها؟ أن تكون كاتب قصص قصيرة لا يعني، بالضرورة، أنك لا تملك نفسًا طويلاً لكتابة رواية.

لم يعلق بشيء وتابع ارتشاف الشاي بصمت، بينما كنت أقلب فكرة جديدة في رأسي لم أتوان عن البوح بها:

- ازرع شجرة صبّار يا صاد، ولا تسقها الكثير من الماء. فقط تابع نموها كل سبعة أيام، فالصبّار لا يحتاج للكثير من الماء، ثم

فكر في شخصية بسيطة ولكن صبورة كالصبّار، غير معقدة التكوين لتكون نواة معقولة لفصل روايتك الأول، تمامًا كشجرة الصبّار. اكتب تفاصيل حياتها رويدًا رويدًا. اكتب صفحتين في اليوم وتأمل ما كتبته كما تتأمل نموّ شجرة الصبّار البطيء، وستأتيك الأفكار، صدقني، ستأتيك من حيث لا تحتسب.

لم يعلق بشيء، فارتشفت جرعة من الشاي، ثم أضفت:

- لا بأس أن تُخيّب آمالي، ولكن لا تخيّبْ آمال شمس.

ارتشف، بدوره، آخر قطرة من الشاي دون أن ينبس بكلمة. دخل إلى المنزل لإحضار البسكويت الذي نسيه، لنتناوله طقسًا محببًا إليه مع الدفقة الثانية من إبريق الشاي في كوبينا، لكنه لم يعد بالبسكويت وحده فحسب، بل بملفه العتيد الذي اعتاد أن يضع فيه قصصه الجديدة بعد رقنها على آلته الكاتبة، ليقول لي مازحًا قبل أن يجلس:

- هل انتهيت من محاضرتك المُملة؟

- تقريبًا، لكنها بحاجة لتنقيحك المعهود.

- حسنًا، الليلة ستتعشى معي. سأخرج لشراء بعض اللوازم وسأعد عشاء لنا وحدنا. واليوم لن أخيب آمالك، لأنك أول من سيقرأ الفصل الأول من الرّواية، لتعطيني رأيك فيه بعد العشاء.

- كتبت الفصل الأول؟

- نعم، كتبته بقلمي الحبر في هذه الحديقة، لأرقنه في المكتبة على الآلة الكاتبة، كالعادة.

كانت مفاجأة مفرحة لم أتوقعها. ناولني الملف وتركني وحيدًا، دون أن يتيح لي فرصة للتعليق على مفاجأته. بعد خروجه على سيارته الكورولاّ القديمة قلَّبت الأوراق وانهمكت في قراءة ما بين يديّ من أول سطر حتى آخر سطر في الصفحة الأخيرة من مسودة الفصل الأول. أقصد المسودة التي تُطابق في بعض تفاصيلها الفصل الذي كتبه الرَّاوي واعترض عليه الأصلع فيما بعد، عدا أنه كان مصاغًا ومسرودًا بضمير «أنا» المتكلم على لسان شخصيته.

قبل انتهاء الساعة عاد صاد من مشواره لشراء لوازم العشاء مفاجئًا إياي بزجاجة نبيذ طلب مني أن أفتحها وأن أحتسي كأسي الأولى ريثما ينتهي من إعداد العشاء في المطبخ. سألته عن مصدر النبيذ فقال صاد ضاحكًا: من السوق السوداء. فتحت الزجاجة وصببت لنفسي كأسًا شربت نصفها قبل أن يعود بكأسه التي طلب مني أن أملأها ليشربها على مهل أثناء إعداده للطعام.

لم يكن صاد مولعًا بالشرب، كما كان في سنوات شبابه وجنونه وصخبه الذي عهدناه، لذلك لم أتراخ في شرب الكأس الثانية والثالثة مفكرًا فيما عليّ أن أقوله بعد أن ننتهي من العشاء.

تعشينا في الحديقة وتحدثنا فيما لا علاقة له بموضوعنا. كان متوجسًا من آرائي النقدية الصارمة، لكنني الوحيد من بين كافة أصدقائه الذي يثق به وبآرائه.

أنهينا زجاجة النبيذ أثناء العشاء فأحضر أخرى طالبًا مني فتحها.

كنت بحاجة للمزيد من النبيذ لأتحدث بطلاقة. كانت لدي ملاحظات نقدية بالطبع، وكنت متلكئًا في الجهر بها تحاشيًا لإحباطه

في لحظة إنجازه لما طالبته به طويلاً، لولا أن كؤوس النبيذ ساعدتني على ترويض المهمة الشاقة.

لاحظ ترددي في قول شيء، فرفع كأسه الثالثة وهي الأخيرة، قائلاً:

- في صحتك.

رفعت كأسي وقلت له:

كتابتك للفصل الأول تحد وإنجاز في حد ذاته. وسماحك لي بقراءته قبل اكتماله تتويج لصداقتنا المديدة، برغم مرورها بفترات فتور في بعض الأحايين. وفي اختلافنا، كما في اتفاقنا تعرف وأعرف أنني صديقك الذي تثق به لأنه صريح معك. وبدوري أثمّن تقديرك وتفهمك لتلك الصراحة وقسوتها الصَّخرية في بعض الأحايين، فأنت تعرف أنني لست من جوقة النقاد المُجاملين والمطبلين الذين يحيط بعض الكتاب أنفسهم بهم. لا أنت على تلك الشاكلة من الكُتاب، ولا صرامتي النقدية تسمح لي بقرع طبل مديح أنت في غنى عنه منذ اعتزلتَ الحياة العامة، عدا لقائك بنخبة مختارة من المُثقفين على فترات متباعدة.

وكي أكون صريحًا معك، كعادتي، فإنني قرأت الفصل الأول وارتحت كثيرًا للمفتتح الذي تحدثت فيه الشخصية عن طقس انهماكها في قراءة رواية من الواضح أنك ابتكرتَ أحداثها، لذلك لم تُشر إلى اسم كاتبها بل زعمتَ أنه حاز أرفع الجوائز الأدبية. بالنسبة لشخصيتك، وبرغم غرابة حلمها وطرافة فكرة المحافظة عليه في لاوعيه، لكنه مَدخلٌ سيؤدي، فيما بعد، لتعقيدات أسلوبية أنت في غنى عنها. أعرف وأقدر حماستك في كتابة شيء مختلف،

لكن الوقائع الروائيَّة شيء وأحلام شخصياتها شيء آخر. وما أتمناه هو أن توجد حلولاً مناسبة في الفصول اللاحقة للخروج بالشخصية الرئيسة من مأزق حلمها الذي ورطتها فيه عن قصد، وأنا متأكد أنك ستجد تلك الحلول التي طالما أمتعتنا بها في قصصك القصيرة. كان يعرفُ شغفي بروايات كارلوس فوينتس وخوليو كورتاثار وأليخو كابربنتييه وماركيز، وطبعًا ماريو بارغاس يوسّا الذي لم يحبه صاد أبدًا، برغم إعجابه بكتابه «رسائل إلى روائي شاب» المُفكِّك لكواليس حرفة الرّوائي.

ارتشفتُ جرعة كبيرة من النبيذ، واستطردتُ قائلًا:

أحمل في جعبتي اقتراحًا تخمَّر في بالي حين وصلتني رائحة شرائح اللحم التي لم تعطني الفرصة لمساعدتك في شيِّها. وهو اقتراح قد يبدو لك بعيدًا عما عهدته من رصانة نقدية، وربما بدا لك فكاهيًّا لأول وهلة، وقد ترجعه إلى شطحاتي النبيذية ورائحة شرائح اللحم، لكنني أريدك يا صاد أن تنصت إليّ بانتباه فما سأقوله لن يقوله لك سواي، ولن أقوله لك في لحظة غير هذه اللحظة.

لا أريد إحباطك، وبالتأكيد لا أريد العودة بك إلى قناعتك الأبدية بالفشل في كتابة عمل سردي طويل. فعملك، كما يشف عنه الفصل الأول، جيد ومتوازن ولافت، بكل المقاييس، لولا أن سردك للأحداث بضمير أنا المتكلم نقطة ضعف واضحة، وعليك تلافيها. لمَ تسرد وقائع وأحداث الفصل الأول على لسان الشخصية المحورية التي ستنبني عليها بقية الفصول والشخصيات؟ لقد أوهمتني، كقارئ، بالتماهي بينك كاتبًا وبين شخصيتك المحورية. وهذا خطأ فادح يقع فيه كثير من الروائيين، حتى المُجيدين منهم. وبرغم أنها ليست قاعدة ذهبية دائمًا، لكنه خطأ فادح في هذه

الحالة، لا سيما أن بطلك الدكتور يتحدث عن نفسه ويسهب في سرد معلومات علمية جافة عن الحقب والعصور الجيولوجية التي ربما كنت في غنى عنها. لذا سيكون من المفيد أن يتكفل راوٍ بالمهمة ليفتتح هو، وبضمير الغائب، سرد الوقائع.

كان صاد، أو صادفسكي ينصت باهتمام لما كنت أقوله، وكانت كؤوس النبيذ تلعب بتداعياتي وتخرجني عن وقار الرأي النقدي الصارم الذي تباهيت به قبل قليل إلى ملعب آخر، ملعب الفكاهة والتندر وتوليد الحديث من بعضه بعضًا فكرة إثر أخرى، كما يحدث في السهرات، لذلك قاطعني قائلاً:

- وماذا تقترح بالضبط؟

- إعادة كتابة الفصل الأول، ولكن على لسان راويةٍ يقصُّ حكاية بطلك الدكتور الجيولوجي.

- في الحقيقة استلهمتُ الفكرة من معاناة صديق قديم، وهو جيولوجي معروف في البلد؛ كان يخبرني بتفاصيل من حياته. وكان مولعًا بالحياة القديمة قبل خلق الإنسان، وكان يُتحفني ببعض الكتب التي تتحدث عن نشأة الأرض والكائنات التي بنيت عليها أحداث الفصل الأول مرويَّة بلسانه. أنت مُحق، عليَّ إعادة صياغة الفصل برمَّته، لكنني متخوف من قدرتي على استكمال المشوار. قلت لك ألف مرَّة، فنِّي هو القصة القصيرة، وليس كتابة نصٍّ روائي.

- عليك الاستمرار بطريقة أو بأخرى يا صاد.

- هي تجربة لإرضاء إلحاحك، لكنني لا أعتقد أنني سأتمكن من استكمال المشوار، وربما اختصرتُ الفصل الأول لتحويله إلى قصة.

لم أشأ الإلحاح عليه، وفضلت الاستمتاع بحديث جانبي، وشرب المزيد من النبيذ قبل وداعه.

* * *

لم يتمكّن صاد من كتابة بقيَّة الفصول، برغم أنه هو من كتب مُعظمها بطريقة أو بأخرى. فقد أردت مفاجأته عبر هذه التجربة، عبر فشلها تحديدًا، ونجاحها الذي ربما ساقتها إليه رياح الفشل وأبوابه الموصدة، لأثبت له أنه قادر على محاولة كتابة عمل سردي طويل برغم حكمه المسبق على نفسه بالفشل. هو الذي لا يعرف حتى اللحظة، أن من تخلى عن واقعه الواقعي ليصير شخصية من شخصيات هذا العمل تُدعى «الخامس» هو نفسه صديقه الناقد الذي دفعه دفعًا للشروع في كتابته.

تلك نيتي التي لم أكشف عنها لصديقي صاد، الكاتب الذي أكن له صداقة كبيرة. وهي تجربة سببت لي آلامًا وإحباطاتٍ لن يسلم منها حتى القراء، إلاّ أنها في المحصلة النهائية محاولة خالصة لأعيد إليه الثقة بنفسه بعد أن يقرأ العمل كاملاً. فربما رأى فيه نواة ينقح صيغتها النهائية إن راقت له الفكرة، ليتمكن من روايتها بالأسلوب الأخاذ ذاته الذي طالما أمتعنا به في قصصه القصيرة. وربما كانت أحداث هذه الفصول التي كتبها في غيبوبة إبداعية نادرة الحدوث، ربما كانت نواة قد تشجعه على تبنّيها وتنقيحها، فيما بعد، بأسلوبه الفريد.

صداقتي له كبيرة، وهذا العمل، بكل الأمواه التي روت بذور الفشل، عرفانٌ وتمجيدٌ لتلك الصداقة سيتفهمها القارئ لاحقًا، برغم التعقيدات الأسلوبية وغير المنطقية التي فرضتُها قسرًا على

شخوص العمل، وعلى صاد نفسه، مع قصوري الذي أعترف به، وعجزي عن أن أقدم للقارئ تفسيرًا مقنعًا لتحولاتي. بيد أن الحقيقة الروائيَّة حقيقية دائمًا، مهما بدت زائفة إن قورنت بواقع واقعي أكثر زيفًا، برغم إصراره على واقعية كاذبة، وفق دروس ماريو بارغاس يوسّا التي ربما ألِفها القارئ بعد اقتباسي لفقرات منها.

الفصل الرَّابع عشر

ما كان مُقدرًا لي أن أعرف الوجه الآخر للخامس، لولا تلك الفرصة التي أتاحتها مبادرتي لكتابة الفصل السري، واكتشافي للأمر بعد كتابتي لذلك الفصل المُوجَّه، حصرًا، إلى مسماري الخجول وقارئي العزيز. لذلك أعدتُ النظر فورًا في متاريس حمايتي لذلك الفصل بعد أن كشف الخامس عن قِناع شخصيته الروائيَّة، ووجدت طريقة سحريَّة (لا تعدمها تفاحة) للسماح للخامس بالاطلاع على ما جاء في الفصل السِّري، فهو شبيهي إلى حدٍّ ما، برغم الفروقات البيِّنة بيننا؛ فهو شخصية واقعية وشخصية مَرويَّة في الآن ذاته.

ما كان مُقدرًا لي أن أعرفه على حقيقته ناقدًا معروفًا في الوسط الأدبي خارج شخصيته الروائيَّة التي تقمَّصها واضطر، كبحًا لجماح الأصلع وشركاه (بمن فيهم أنا، تفاحة السَّرد المغناج)؛ حين أظهر غطرسة مقيتة ومزاج استعلاء واستكبار في أول فصل كتبه، قبل توضيحه في الفصل السابق لحقيقته الواقعية المُغيبة عنا. ما كان مقدرًا لي أن أعرفه على حقيقته، مما دعاني للزجِّ به خطأ في زمرة الأصلع وحلمه الأثير. لكن اعترافه بأنه المسؤول عما حدث وفقًا لمبرِّرات نظرية الفشل، واعتذاره الشخصي كناقد اضطر

لإدخال نفسه في مجرى الأحداث، جعلاني أعيد النظر في موقفي منه، وإعادة صياغة نظرتي السلبية إليه في ثنايا هذه الصفحات.

لكنني، قبل القيام بذلك، أود الإعراب عن أنني مدينة للخامس باعتراف يُزكّي صفاء وجهه الآخر، وجه الناقد الذي اضطر لتشويهه حين تقمص دور الخامس الذي لن يتعاطف معه قارئ فصله الافتتاحي، لولا أنه في فصله التوضيحي الأخير أفصح عن نيته الصافية في تحفيز صاد للكتابة، وحمايته من تلاعب الشخصيات التي بدا كأنها سرقت عمله ككاتب.

كان عليَّ البحث عنه لترتيب لقاء واقعي بيني وبينه (خارج شخصيَّتينا المسرودتين في المخطوطة)، لذا اتصلت به من هاتف عمومي وأخبرته أنني تفاحة بشحمها ولحمها، وأنني أود اللقاء به وجهًا لوجه. حين رد على مكالمتي الهاتفية كان مذهولاً غير مُصدق، لكنه تمالك نفسه وسألني عن كيفية حصولي على رقمه؛ فأخبرته بأن قدراتي الخاصة مكنتني من الحصول عليه بسهولة بالغة. مع ذلك لم يُصدق ما يحدث، لأنه سمع صوتي ولم يرني بعد؛ فوافق فورًا على اللقاء شرط وفائي بالسُّفور عن تفاحة واقعية، وقد قبلتُ ذلك الشرط بفرح غامر.

كنتُ مدركة أن الخامس كان بين المصدق والمكذب للصوت الذي سمعه في الهاتف، لكننا اتفقنا في نهاية المكالمة الهاتفية على مكان لقاء (واقعي بطبيعة الحال)، والتقينا في أشد حالاتنا واقعية يشهد علينا نادل المقهى الذي قدم لنا المشروبات، ورُوّاده الذين لا يعرفوننا، فقد تعمَّد الخامس اختيار مقهى لا يرتاده المُثقفون والفنانون الذين يعرفون وجهه بالطبع، وقد وافقتُ لنلتقي هناك في المقهى الذي اختاره.

بعد أن تأكد الخامس من واقعيتي حين صافحته، وبدوري تأكدتُ من واقعيته بعد المُصافحة كائنين يبدوان على مقعديهما طبيعيين مثل البشر الآخرين، أخبرني أنه فرح بمكالمتي الهاتفية وبلقائي معه، لأن خروجي من النص لإثبات واقعيتي ألهمته فكرة تكليفي بمهمة لصالح عمل صاد الذي أصبحنا رغمًا أو طوعًا شخصيات رئيسية فيه، ليسترسل الخامس بعد اطمئنانه إليّ وإعجابه بجمالي اللافت، في حديث مطول:

لست في حاجة لإعادة ما سبق لي الإفصاح بخصوص إلحاحي الدائم على صاد لكتابة عمل سردي طويل، حتى استسلم أخيرًا لإلحاحي وكتب الفصل الأول الذي جوَّده بعد أن أعاد صياغته، كما اقترحتُ عليه. لكن ما لا تعرفينه أنتِ ولا صاد هو الكيفية التي استمر من خلالها تداعي الفصول بدءًا من الفصل الثاني، الفصل الذي ناقض فيه الأصلع ما كان مَرويًا في الفصل الأول، ودونك الحقيقة يا تفاحة:

بعد أن دفعتُ صاد لكتابة الفصل الأول، انتقدتُ روايته بضمير أنا المُتكلم، مُقترحًا عليه أن يرويه راوٍ غير منظور بضمير الغائب، وقد أعاد كتابته بنجاح. وفجأة أصيب صاد بانتكاسة نفسية، لدرجة أنه انزوى وتوقف عن الكتابة عدة شهور، وامتنع عن الرد على مكالماتي الهاتفية.

قلقت عليه، ولم أجد مخرجًا لوساوسي سوى الاتصال بابنته شمس لأسألها عن أحوال أبيها فأخبرتني أنه يمر بحال حرجة من الاكتئاب النفسي الحاد. وتوسلت إليَّ أن أعود إليه وألاّ أستسلم لرفضه اللقاء بي، فهي تعرف أنني صديقه الوحيد بين كافة أصدقائه

الذي يستطيع التأثير فيه بمحاولة ما لإخراجه من حالة اكتئابه وإعادته إلى سابق عهده. وقد أخبرتني شمس بمُستجدات لم أكن على علم بها، وقد هالني ما سمعته منها. فصاد أو صادوفسكي مريض بالقلب منذ فترة، وقد كتم أمر مرضه عن الجميع، لولا أن طبيبه اتصل بابنته شمس وأخبرها بالحقيقة. فهو مصاب بضعف عضلة القلب منذ فترة ويتناول علاجات لتقوية أدائها ومنع تخثر الدم في الشرايين، لكن فحوصه الأخيرة أثبتت تدهور حالته.

لم تكن المسألة، إذًا، مسألة اكتئاب نفسي حاد فحسب، وإنما قنوط من الحياة، فصاد رجل مُسِن تجاوز ستينيات عُمره، فضلاً عن الورطة التي وضعته فيها بإلحاحي عليه لكتابة رواية وهو في وضع مأزوم لم أكن على معرفة به. لقد كنتُ مخطئًا في خوضي لحماقة الإلحاح تلك، وأشعر بالذنب تجاه ما اقترفته حماقتي بحق أعز أصدقائي الكُتاب.

ابنته شمس أخبرتني أنه يحاول جهده ليكتب، ويطيل الجلوس في الحديقة لكنه لا يستطيع ممارسة طقسه الألذ لسبب ما تجهله، وتظنه عائدًا لاستفحال حالته الصحية ووساوسه. ووفق تشخيصي لحالته لا أظن حالته الصحية هي السبب المباشر في عدم قدرته على الكتابة، فهو ممن يؤمنون بطاقات الإنسان الخلاقة، ولا أعتقد باكتراثه لضعف عضلة قلبه، برغم مؤشرات فحوصه الأخيرة المُحبطة، لذلك أخمن أنه يعاني من حالة معروفة تنتاب الكتاب ولا تُعرف مسبباتها برغم كثرة الدراسات التي حاولت تفنيد أسباب حدوثها. وهي حالةِ من حالات انسداد القريحة(*) أو حُبسة

(*) Writer's block

الكاتب، وهي حالة موثقة لشيوع حدوثها بين الكتاب. وفي ظني أنه ربما كان يعاني من نوع خاص من تلك الحالة التي لا يُعرف سببها تحديدًا برغم الدراسات والتحليلات التي حاولت تفنيد أسباب حدوثها عند بعض الكُتاب الذين تصيبهم وتؤدي بهم في فترات معينة من حياتهم، دونما سبب واضح، للتوقف عن الكتابة.

لكن حالة صاد تنحو منحى آخر غير ما هو معهود بالنسبة لكثير من الكُتاب الذين تصيبهم تلك اللعنة المؤدية لحالتي اكتئاب حاد أو خفيف، لذلك قررتُ مفاجأته بزيارة غير مُتوقعة، فاعتذر لي عن عدم رده على الهاتف بسبب عدم رغبته في الحديث مع أي كان.

في تلك الزيارة حاولت إقناعه بمقابلة طبيب نفسي كي يصف له بعض مضادات الاكتئاب، عله يخرج من تلك الحالة السوداوية التي ألمت به، لكنه رفض الفكرة. فألححتُ عليه بعد أن طمأنته بأنني سأصطحبه إلى طبيب موثوق الجانب أعرفه جيدًا، وأخبرته أن الطبيب من متابعي نتاجه القصصي وسيهتم به. لم يكن إقناع صاد سهلًا، لكنه وافق أخيرًا على زيارته شرط ألاّ أخبر ابنته شمس، ضاحكًا من نفسه لاضطراره تحت إلحاحي لزيارة طبيب نفسي، مُقارنًا بين ما آل إليه وما آلت إليه شخصية بطله الدكتور!

طمأنته مرة أخرى بمعرفتي الجيدة بالطبيب الذي لن يستفرغ نقود محفظته كما فعل مُعالج بطله، فضربنا موعدًا وزرناه في عيادته. وبالفعل تحسنت حالته نسبيًا بعد مواظبته على تناول مضادات الاكتئاب عدة أسابيع، لكنه لم يتمكن من العودة للكتابة، فتأكدت من إصابته بحُبسة الكاتب. ولأنني ربما كُنت المُتسبب فيها فقد زرتُ الطبيب وحدي ومعي نسخة من الفصل الأول من هذه

الرِّواية. أخبرته بشكوكي في الحالة، طالبًا منه مساعدة صاد بأية وسيلة متاحة ليُكمل روايته التي ورطتهُ فيها.

أخبرني بوجود طريقة، لكنها غير مضمونة في كل الحالات؛ وهي تحفيز التَّداعي الحُرّ خلال التنويم المغناطيسي للمريض. لكن هل سيوافق صادوفسكي للخضوع له؟ فالمسألة برمتها تعتمد على مدى ثقة صاد بي، فأنا طبيب نفسي ومُعالج نفسي في الوقت ذاته. وهذه الطريقة في العلاج يعتمد نجاحها على تضافر خبرة المُعالج وتقبُّل المريض لها، وإيمانه بفائدتها. قلت للطبيب المُعالج:

- أرجوك حاول إقناعه، بطريقتك، في زيارته القادمة ولا تخبره بشكوكي، أو قراءتك للفصل الأول، ادَّعِ أنك استنتجت الأمر وحدك بحكم خبرتك كطبيب ومُعالج في الوقت نفسه.

لن أطيل عليكِ الحكاية يا تفاحة؛ فقد وافق صاد على فكرة التنويم المغناطيسي بعد أن أقنعه الطبيب المُعالج بها، وطلب منه تزويده بآخر أعماله التي يعمل عليها.

طبعًا كانت تلك خدعة، فالطبيب قرأ الفصل الأول لكنه أراد أن يعطيه عمله بنفسه ليبدأ العلاج عن طريق تحفيزه على مُواصلة الكتابة لاواعيًا. كان الطبيب يُحفزه بعد تنويمه ليتداعى تلقائيًّا على الأريكة الفرويدية الشهيرة، ولحسن الحظ استجاب صاد للعلاج، بينما كان الطبيب المُعالج يُسجل حديثه اللاواعي سِرًّا كما طلبت منه. تداعى صاد اللاواعي في كتابة الفصول، جلسةً إثر جلسة، لتنبثق شخصية الأصلع وحلمه الأثير.

كنتُ أزور الطبيب في اليوم التالي بعد كل جلسة من جلسات العلاج لاستلام شرائط إبداعه اللاواعي لإفراغها على الورق. هكذا

أعدت كتابة الفصل الثاني في صيغته المرويَّة بلسان صاد دون تنقيح، تمامًا كما تداعت به مخيلة صاد اللاواعية، أقصد فصل الأصلع الثاني؛ لأعيده للطبيب الذي بدوره يُسلمه إلى صاد الذي فرح أيما فرح بنجاح التجربة، دون أن يعرف بالتواطؤ المُسبق بيني وبين طبيبه المُعالج.

حين زرت صاد بعد شهر من جلسات العلاج؛ كان فرحًا للغاية. عانقني بشدة وطلب مني قراءة فصل الأصلع مُنقحًا، ثم قال:

- هذه نتيجة تجاربك. ابتكر عقلي اللاواعي شخصية هذا الأصلع ليُناقض ما كان يرويه الرَّاوي في الفصل الأول عن الدكتور.

- هذا نجاح قلَّ نظيره عزيزي صاد.

- من وجهة نظرك، لكن جهدي ضاع فيما كنتُ أخطط له لشخصية بطلي الأصلي في الفصل الأول؛ أقصد الدكتور، فهو شخصية لها أبعاد وظلال واقعية من خلال معرفتي الشخصية بالدكتور، كما أخبرتك.

- بالعكس، فربما حاولت شخصية الأصلع المرحة تخليص عملك من ثقل الصرامة والرصانة الأدبية في فصلك الأول. وربما فتحت لمخيلتك اللاواعية آفاقًا ودروبًا ستأخذ قارئك إلى عوالم ومناخات أخرى، غير التي كنت تخطط لها. ألا تتمرد بعض الشخصيات الروائيَّة على مُبدعها؟

- هذا صحيح، مائة في المائة، لكنني قلق مما ستؤول إليه الأمور.

- المسألة بسيطة. واظِبْ على جلسات التنويم المغناطيسي، وأنا متأكد أن كوامن شخصيات روايتك ستتداعى تلقائيًا.

كان فرحًا إلى أبعد الحدود، وابنته شمس كانت فرحة بعودة أبيها إلى طاولة الكتابة دون أن تدري بالأسباب الحقيقية لذلك التغيير المُفاجئ. كنت على اتصال بطبيبه الذي كان يخبرني بمواعيد زياراته، وكان يسلمني أشرطة التسجيل في اليوم التالي لأقوم بتفريغها وتحريرها على الورق وأعيدها إلى الطبيب الذي كان يعطيها، بدوره، لصاد ليقوم بمهمة تنقيح عمله وهكذا دواليك، فصلاً إثر آخر، كنتُ أقرأها، فيما بعد، مُنقحة في طاولة الحديقة أمام صاد الفرح بإنجازه.

لكن وتيرة التداعي بين الأصلع وحلمه أقلقتني، بالأحرى أقلقني تفجُّر مخيلة صاد اللاواعية ليخوض الأصلع وحلمه في حوارات أبعدت صاد بعيدًا عن مُخطط المخطوطة الرِّوائية؛ فقرَّرتُ التدخل مباشرة في صلب العمل لكبح وتيرة التداعي بين كل من الأصلع وحلمه.

طبعًا لم يكتب صاد الفصل التاسع، بل كتبته أنا وأعطيته للمعالج مُغامرًا بردة فعل صادوفسكي حين يقرأ ما يُفترض أنه هو من كتبه. وبالفعل أعطاني صاد ذلك الفصل لأقرأه، بالأحرى لأعيد قراءة ما سبق لي أن كتبته.

- أنت ناقد محترف، لكن بالله عليك، هل هذا أسلوبي؟.. حتى لو كتبته في حالة لاواعية. إنه مُكتمل وبالكاد قمت ببعض التنقيح، خلافًا للمسودات الأخرى التي يعطيني إياها الطبيب، أقصد المُعالج النفسي.

- هذا هو الفرق بين القصة القصيرة التي اعتدتَ كتابتها وبين الرِّواية. تداعيك الحُر فجَّر طاقات أسلوبية لم تعهدها في نفسك.

- وماذا عن شخصية تفاحة؟.. يبدو أنها تلمحُ إلى كينونة

ماورائية في خطابها الموجَّه للقارئ مباشرة. هل أنتظر ظهورها في حالتي اللاواعية بفصل تكشف فيه عن حقيقتها؟ لا سيما أنها لمحت إلى حياتها الأخرى، حياتها المُغيَّبة.

- تابع الجلسات، عزيزي صاد، وثِق في مخيلتك اللاواعية. حديثها عن حياة أخرى، حياة مُغيبة، ألم يُذكِّرك بموروثنا عن السَّحرة والمغايبة؟

- بالطبع خطرت الفكرة في بالي، لكنني استبعدتها لأن الجيل الجديد لا يُؤمن بتلك الحكايات، فهي أقرب للميثولوجيا الشعبية.

- ولم لا تستثمرها لإثراء عملك؟

- لا أعرف، سنرى ما ستسفر عنه الجلسات القادمة.

بتلك الطريقة كنتُ أهيئ صاد للحوار الفكاهي الذي دار بين الأصلع وحلمه، واتفاقهما على تسمية تلك الشخصية بالخامس. خامس الرِّواية الجالس الآن مع مُغيَّبة، أو تفاحة واقعية ليسرد عليها حكاية مخطوطة ما زالت قيد التنقيح.

- مُدهش، مدهش ما كشفت عنه أيها الناقد، عفوًا أقصد الخامس رفيقي في السَّرد.

- لكن ما لن أتمكن من فهمه يا تفاحة هو قدرتكِ على التسلل إلى ما كان يسرده صاد لاواعيًا.

- قدرتي الفائقة على وجودي في وسط واقعي أو حُلمي، ماضوي أو مُستقبلي هي ما مكًّنني من القيام بذلك.

- وتريدينني أن أصدِّقك يا تفاحة؟

- على راحتك. ألستُ فتاة واقعيَّة وأشرب القهوة معك الآن، تمامًا كما أتداعى تلقائيًّا فيما يؤلفه صديقك صادوفسكي؟

- لا بأس عزيزتي تفاحة، تكمن المُعضلة في كيفية إقناع صاد بواقعيَّتك المُدهشة حد الإقناع، حين نكشفُ قِناعينا في مخطوطته.

صمت الخامس، منشغلاً بشرب الشاي بينما كان يُراقب رواد المقهى الآخرين، لكنه بعد فترة عاد إلى ما كنا نتحدث فيه:

حتى الآن تغلبتُ على معظم إشكالات كتابة الفصول مع صاد، فقد أعاد كتابتها ونقحها فصلاً بعد آخر، لكننا سنواجه معضلتين: سفوري عن شخصيتي بصفتي صديقه الناقد، وسفوركِ عن شخصيتك كمغنية، رغم أنني هيأته لذلك حين أوحيتُ له باستثمار موروث المغايبة والسَّحرة، وسنجعل الطبيب يُقدم له، فيما بعد، فصل اعترافك بأنك مُغنيَّة، أقصد فصلك السري كما تُسمينه. لذلك سأستمر، أقصد أن الطبيب سيستمر في إعطائه الفصول جلسة إثر أخرى وبهدوء حتى الفصل الحادي عشر. الفصل الذي كتبته بصفتي الخامس دون إفصاحي عن شخصيتي الحقيقية، شخصيتي الواقعية، بالأحرى. وبعدها سنجد طريقة ما لنعطيه فصلك الثاني عشر وفصلي الثالث عشر الذي كشفتُ، بدوري، فيه قِناعي. أما ما تبقى من فصول روايته، بعد اكتمالها، فسنرسلها لصاد مغلفةً لتصله بالبريد، مثلاً، بعد كشف ورقة التوت الأخيرة: شخصيتينا.

- رائع ما تقوم به، فأنت تحاول سدَّ كل الثغرات، وتفاحة دائمًا في خدمتك.

لم يرد الخامس على التعليق، بل صمت مُفكّرًا نحو خمس دقائق، لينهي اللقاء بما جاء من أجله، قائلاً:

لم نعد نملك الوقت للتمادي في إثبات نظرية الفشل، لأنني أعترف بفشلها. كما أن الزمن المتاح، بسبب تدهور حالة صاد، أقصر من أهمية التوضيحات التي عليكِ أنتِ شرحها باستفاضة

للقارئ الذي قد لا يتفهم انسلاخك من دور تفاحة الخفي، ناهيك عن إقناعه بشخصيتي الحقيقية ناقدًا وصديقًا لصادوفسكي، بعد أن أَلِفني بصفتي الخامس، لكن الأمور نحت هذا المنحى. وما أعهد إليكِ به؛ هو أن يكون شغلك الشاغل طوال الشهور القادمة كتابة الفصل الأخير، وليكن عن حياة صادوفسكي وعن حالته الراهنة وعلاقته بنا وعلاقتنا به داخل ورشته الروائية وخارجها. لأنني مؤمن أنه العلاج الوحيد الذي سيشفيه مما هو فيه.

قد أسمحُ لنفسي بكتابة فصل آخر عن صاد وحياته العادية خلال كتابته مُعتركه الوجودي لكتابة هذا العمل، لكنني أتمنى أن تساعديني وتتحملي عبء كتابة الفصل الأخير بكل مصداقية تُمليها عليك روحكِ الحاضرة، وشفافيَّة روحك المُغيَّبة، روحك التي ستعذرينني إن أفصحت لك عن عدم اقتناعي بكينونتها بعد.

* * *

وصلت رسالة الخامس، ولأنني مُقتنعة بأنه ما زال مُشكِّكا في ثنائية وجودي مُغيبةً وجلوسي معه، إلى طاولة ذلك المقهى النائي، كأي فتاة عادية تنبض فيها الحياة، قرَّرتُ بمجرَّد دفعه الفاتورة وابتعاد النادل أن أتلاشى من المقعد المُقابل فجأة.

لم ينتبه روَّاد المقهى المشغولون بأحاديثهم، لكن الخامس تيقَّن من الحقيقة التي لم يُصدِّقها أحد، بمجرَّد اختفائي، بلمح البصر، من المقعد المُقابل.

الفصل الخامس عشر

ها قد أضحت كافة الأوراق مكشوفة أمام القارئ الذي أستطيع تخمين ما يدور في ذهنه من خيبة أمل غير مُتوقعة لنهايات انتظرها بفارغ الصبر؛ لتكون خاتمة مُبرَّرة لجهده، لكنني خذلته بكشف شخصيتي الحقيقية، كما خذلتُ ماريو بارغاس يوسّا بكشفي ما لا ينبغي الكشف عنه. فهو القائل في رسائله إنهُ حاول في محاضرة، تعود إلى أيام الشباب أن يشرح تلك الآلية بأنها أشبه بعملية ستريپتيز معكوسة.

«كتابة الروايات تُعادلُ ما تقوم به المُحترفة التي تخلع ملابسها، أمام الجمهور، حتى تُظهِرَ جسدها عاريًا. غير أن الرِّوائي يُمارس اللعبة في اتجاه مُعاكس. ففي سعيه إلى إحكام بناء الرواية، يأخذ بستر ذلك العُري الأوَّليّ، أي نقطة بدء الاستعراض، ومُواراته تحت ملابس كثيفة ومتعددة الألوان، تصوغها مُخيلته».

وفي فصلٍ آخر تعرَّض بارغاس يوسّا لنظرية فلوبير، قائلاً:

«لقد صاغ فلوبير، في رسائله، نظرية مُتكاملة حول الجنس الروائي. وكان مُؤيِّدًا عنيدًا لطريقة بقاء الرَّاوي غير مرئي. ذلك أنه يُؤكد، أن هذا الذي أسميناه نحن، سيادة التخييل واكتفاءه الذاتي، يعتمد على جعل القارئ ينسى أن هناك من يروي له ما يقرؤه، وأن

يتملكه الانطباع بأن العمل يتولد من تلقاء نفسه، تحت بصره، كفعل ذي ضرورة خلْقيَّة للرواية نفسها»، بيد أنني لم أقتفِ نصائح شيخي ماريو بارغاس يوسّا في هذه المخطوطة، كما يُلاحظ قارئ التنقيح.

في أيةِ حال ليس مُهمًّا تعليل ما حدث وما سيحدث الآن؛ فما يهم القارئ ليس تفاصيل حياة كاتب مّا وما يُعانيه، بل زخم حياة أبطاله، لذلك فإن خيبة أمل القارئ مُبرَّرة تمامًا، وأكاد أحدس ما يشعر به. إنه ضحية، كما لو كان في مستوطنة عقاب كافكاوي، وليس قارئًا هدفه بلوغ نهايات جديرة بوقته الثمين.

أدرك جيدًا ورطته وأتفهَّمها. لكن القارئ تجاوز خلال قراءته لهذه الصفحة أكثر من ثلثي العمل، ولا أعتقد أنه -لو حَسبها رياضيًّا- سيغامر بترك الرُّبع الأخير، رغم أن لديه ما يكفي من الأسباب الموضوعية للتوقف عن القراءة، والبحث في مكتبته عن كتاب آخر يتلهى به، أو عن رواية غرامية سهلة ومثيرة كتلك التي كان يقرأها الأصلع، أو ترك فكرة القراءة برمَّتها؛ ليتابع فيلمًا في التلفزيون أو واحدة من مُغامرات توم وجيري الكرتونية.

هذه ليست محاولة لإغرائه بفضائل مُتابعة القراءة، إطلاقًا. فإذا ما ارتأى القارئ التوقف عند هذا السطر، في هذه الصفحة فلا عتاب عليه، وله كامل الحق في ذلك، لا سيما إن استكنه تخلخل مفاهيمي النقدية الراسخة حول الواقعيِّ والمُتخيل، وتبادلهما الأدوار لا فرق في مسرد روائي أو واقع لم يعد واقعيًّا كما كان؛ بعد تبخُّر كينونة تفاحة من ذلك المقعد في المقهى، تاركةً لي محاولة تأويل اختفائها الأثيريِّ الغامض.

لا عِتاب على القارئ إن قرَّر التوقف عن متابعة القراءة، لأن

صادوفسكي نفسه، في آخر زياراتي له، لم يكن سعيدًا بالإنجاز الذي حققه بعد تنقيحه لآخر فصول المخطوطة، الفصل الحادي عشر، ذاك الذي أنهيته بهذه الفقرة: «قد نبدو فاشلين أمام قارئ لا يُسامح، لكننا قد ننجح جميعًا لو كان الكاتبُ بعيد نظر واقتادنا إلى نهاية تليق به، بنا وبقرائه الواقعيين، قرائه الشغوفين لمتابعته حتى النهاية».

لم يكن صاد سعيدًا على الإطلاق، برغم أنه لم يعرف، بعدُ، تدخلي في روايته، كما أنه لم يقرأ، بعد، الفصل الثاني عشر، فصل تفاحة السرّي، ولا الفصل اللاحق له؛ فصل اعترافي بأنني لستُ شخصيَّة ابتدعها هو خلال تداعيه في جلسات التنويم المغناطيسي، لذلك سألته عن أسباب تعاسته، برغم تحقيقه تقدمًا ملموسًا في كتابة الرّواية فأجابني صاد نفسه قائلًا:

- الكتابة مهنة لا يستحق المرء أن يُضيِّع فيها وقته. أنت وربعُك النقاد جعلتموني أحقق نجاحًا منقطع النظير في كتابة القصص القصيرة. ماذا جنيتُ من ذلك النجاح؟ ظروفي الصحية أسوأ مما كانت عليه، وظروفي المادية أنت تعرفها. وها أنت ذا تحاول، بعد أن تجاوزتُ الستين، إغوائي بوهم نجاحي لأكتب رواية لا أمل في نجاحها.

- ما الذي حدث؟ ما الذي غير موقفك فجأة يا صاد؟

- لا فائدة من كتابة الرِّوايات. لقد استقصيتُ ما حاولتُ كتابته في المخطوطة، وأصارحك، صديقًا، أن الفصل الأول ربما كان أفضل ما كتبته واعيًا؛ لأنه أقرب لنوفلّا أو رواية قصيرة، بالأحرى قصة طويلة بحاجة لقفلة ختام. أما ما كتبتُه من فصول لاحقة وأنا غائب عن الوعي، لأتداعى بشخصيات الأصلع وحلمه وتفاحة،

فذاك هراء X هراء. قل لي: أي قارئ سيصدق ما حدث؟ لقد ضيَّعتُ خيط السَّرد الذي كان علي تطويره وتصعيده عوضًا عن تداعي شخصيات هي من تَحكَّمَ بالسرد، ضد رغبتي، بحيث سيكون من الصَّعب إعادة ربط الأحداث لتبدو مُقنعة.

- القراء يقرأون الرِّوايات، عزيزي صاد، وهم مدركون بأن شخصياتها مُتخيلة، وإنْ باطَنتْ شخصيات واقعية في بعض الأحيان، لكن المُتعة كامنة أصلاً في مستوى التخييل، وتلك هي موهبتك الحقيقية. تداعي شخصيات الأصلع وحلمه وتفاحة إثراء لعملك، والرِّواية الحديثة تتحاشى الحبكة التقليدية، ولا تنس أن شرائح واسعة من القراء تتابع نتاجك القصصي، كما يُعلي من شأنه نُقاد كثيرون خارج بلادنا، دعك مني أنا بسبب علاقتنا الشخصية.

- برغم كل تبريراتك، لن أزعج نفسي باستكمال فصول هذه الرِّواية السَّخيفة، وسأتوقف عن جلسات التنويم المغناطيسي، فقد كانت وهمًا لم يُنتج سوى وهم تعيد أنت تضخيمه، وتوحي لي بأنني قادر، بالفعل، على كتابة عمل روائي حقيقي.

- عفوًا يا صادوفسكي، ولكن ما الذي غير موقفك وأنت على وشك بلوغ نهاية العمل؟

- تقصد نهاية حياتي. يا شيخ دعني أنهي ما تبقى لي من العمر في هدوء. بلا روايات وبلا بطيخ.

- لم تُجبني عن سؤالي، ما الذي غير موقفك؟

- دونك الصَّحيفة، واقرأ هذا المقال الذي كتبه الرِّوائي الإسباني خافيير مارياس، هذا الرِّوائي الشهير والحائز عدة جوائز مرموقة، كاتبَ الثلاثيَّات التي يُتابعها قراؤه بشغف، اكتشفَ ألاَّ فائدة من كتابة الرِّوايات. اقرأ مقاله وستدرك أن عصر كتابة

الرِّوايات بعد ثرفانتس، دوستويفسكي وغوستاف فلوبير قد ولّى إلى غير رجعة.

ناولني صادوفسكي الصحيفة التي أمامه وترك المجلس، كعادته، لتحضير الشاي. كانت مقالة خافيير مارياس في الصفحة العاشرة، وهي بعنوان لافت يُبرِّر تعكر مزاج صادوفسكي: «*سبعة مُسوِّغات لعدم كتابة الرِّواية وواحد لكتابتها*». طبعاً لا أنا ولا صادوفسكي نعرف اللغة الإسبانية، لكن المقالة مُذيَّلة باسم مُترجمها. انهمكتُ في قراءة مقالة مارياس، بينما كان صادوفسكي يُحضِّر الشاي. لذلك أستميح القارئيْن؛ الرَّاغب في مواصلة القراءة والرَّاغب عنها في تقييم ما ورد في مقالة خافيير مارياس التي دعت صاد لعدم مُتابعة مشروعه، بالأحرى مشروع إلحاحي عليه بمواصلة كتابته:

سبعة مُسوِّغات لعدم كتابة الرِّواية، وواحد لكتابتها

1. هناك الكثير ممن يكتبون الرِّواية. فبالإضافة إلى أولئك القادمين من الماضي والمقيمين بيننا دومًا، والذين يعلنون عن رغبتهم في أن تُقرأ كتبهم إلى الأبد، هناك الآلاف من الجُدد يظهرون كل سنة على كاتالوغات الناشرين، وفي مكتبات العالم أجمع، وليس هناك هؤلاء فحسب: فالآلاف والآلاف من آخرين أخفقوا في الوصول إلى المكتبات، لكن هذا لا يمنعهم من أن يوجدوا. ومن ثمّ تكون الكتابة نشاطًا مبتذلا مُتاحًا لكل من تعلم الكتابة في المدرسة، ولم يكن مُلزمًا بأي نوع من الدراسات العليا أو التكوين الخاص.

2. ليس لكتابة الرِّواية من استحقاق، بدليل أنها تشكل نوعًا مُمارَسًا، ظرفيًا كان أم لا، من كافة الناس، مهما كانت وظائفهم. وبالتالي فالأمر يكون سهلاً ومُجردًا

من أيِّ سِرّ. إذ لا يُمكن أن يُفسِّر هذا على نحو آخر ما دامت كتابة الرِّواية يزاولها الشعراء، والفلاسفة، وكتاب المسرح، وعلماء الاجتماع، وخبراء اللغة وموظفو البنوك، والناشرون والصحفيون والسَّاسة، والمُغنُّون ومقدمات التليفزيون، ومدربو كرة القدم والمهندسون والمعلمون، والدبلوماسيون والموظفون وممثلو السينما، والنقاد والأرستقراطيون، والقساوسة وربات البيوت والأطباء النفسيون، والإرهابيون ورعاة الماعز. يدعونا هذا إلى التفكير رغم كل شيء -إذا ما نحَّينا جانبًا ذلك الاستسهال، مع غياب الاستحقاق- في أنَّ كتابة الرِّواية تمنح ربما لصاحبها شيئًا، أو تمثل له رضا مَا. لكن ما هو نوع هذا الرِّضا الذي يكون في متناول الجميع، بغضِّ النظر عن وظائفهم وتكوينهم، وعن حظوتهم وقدرتهم الشرائية. وماذا يُحصَّل من هذا الرضا تحديدًا؟.

3. لا تُدرُّ كتابة الرِّواية مالاً، أو بالأحرى وحدها رواية واحدة من بين مائة رواية منشورة -للمُجازفة بنسبة مُتفائلة- تعود بنفع ماليٍّ جيد على مؤلفها. في أحسن الأحوال يتعلق الأمر بمبلغ من المال لا يُغيِّر حياة أحد، فهو لا يخوِّل الانخراط في فترة تقاعد مبكر، إضافة إلى أن رواية بطول عادي، وبقليل من الوضوح، تستلزم شهورًا من العمل، وأحيانا أعوامًا كاملة. أن يُستثمر هذا الزخم من الزمن في عمل له نسبة واحد في المائة من الحظ؛ لكي يكون ذا مردود مادي هو اللامعنى بذاته، خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار أن لا أحد مبدئيًّا -فئة الأرستقراطيين أيضًا وربات البيوت اللواتي تُقدِّم لهن المساعدة- لديه كُلُّ هذا الوقت؛ (الماركيز دو ساد وجين أوستين كان لديهما الوقت الكافي، نظراؤهما اليوم ليسوا كذلك، وما يمثل الحضيض أن الأرستقراطيين وربَّات البيوت، الذين لا يكتبون، لكنهم يقراون، لا يجدون الوقت لقراءة ما يكتبه الرِّوائيون).

4. لا تُكسِبُ كتابة الرِّواية شهرة، وإذا ما تحققت فإنها تكون ضئيلة وربما مُستخلصَة بطرق سريعة وأقل استثمارًا. يعرف الجميع أن الشهرة الحقيقية يصنعها التلفزيون، وحيث أصبح من النادر أن يظهر روائيٌّ على شاشته، عدا أن يجعل الروائي ظهوره غير مُقترن بأهميَّة أو جودة رواياته، لكن بصفته معتوهًا أو مُهرجًا مقتدرًا، صُحبة مُهرِّجين

آخرين قادمين من آفاق أخرى (أن تكون فنية أم لا، فهذا بلا أهمية). ولن تكون أعمال هذا الرِّوائي الشهير حقًّا -ذي الشهرة التلفزيونية- سوى الذريعة الأصليَّة، المُملَّة والمنسيَّة بسرعة لشعبيته التي يرتبط أمدُها بمدى قدرته على المناورة بعكَّاز، ولفِّ إيشاربه حول رقبته، وخفض شعره المُستعار واستعراض صِداره وقمصانه الهَاواي، والحديث عن الكيفية التي يتواصل بها مع الإله الهرطقي أو العذراء الأرثوذكسية، أو أية حياة لذيذة، أو حياة أصيلة كانت تُعاش يومًا بين أحضان العرب (على الأقل في إسبانيا)، بدلاً من نوعية أعماله المُستقبلية التي لا تهم أحدًا في الواقع. من جانب آخر، إنه من العبث بذل جهد في كتابة رواية لتحصيل الشهرة (حتى لو كانت كتابتها على نحو مسطَّح، فالأمر يستلزم وقتًا)، بينما ليس بالضرورة، اليوم، فعل أي شيء خاص أو ملموس لكي نكون شهيرين: زيجة أو ارتباط مع الشخص المناسب، وما يتبع ذلك من حُزمة فضائح زوجية مثيرة، وتلك التي خارج مؤسسة الزواج تبدو أكثر نجاعة. هناك أيضًا الحلُّ السَّهل المتمثل في إطلاق بعض البذاءات والفداحات، شريطة ألاَّ تكون كارثية علينا إلى حد أن تبعث بنا إلى السجن لفترة طويلة جدًّا.

5. لا تمنح الرِّواية الخلود، لأن الخلود -من بين أسباب أخرى- لم يعد له عمليًّا وجود. بهذا الصَّدد فالأثر ذاته الذي ينتقل إلى الخلود يبدو مُنعدمًا، أقصد بهذا أثر كل فرد: كل واحد منا مُعرَّض للنسيان بعد شهرين من وفاته. إن الرِّوائي الذي يظن عكس ذلك؛ يُفصح عن غرور أو سذاجة تعود إلى زمن قديم. عندما تدوم الكُتب موسِمًا كحد أقصى، فلا يرجع ذلك فقط إلى نسيان القراء والنقاد لها، بل أيضًا لأننا لم نعد نجدها حتى في المكتبة بعد بضعة شهور من ولادتها (ربما لا وجود لمكتبات أصلًا!). من الوهم الاعتقاد أن أحد مؤلفاتنا غير قابل للانقراض. كيف لا تصبح الكتب عُرضةً للهلاك إذا كان معظمها ميتًا قبلًا، وعند ولادته بالذات، أو أن لها مُعدَّل حياة حشرة؟ لا يُمكن إذًا أن نُعوِّل على الديمومة.

6. إن كتابة الرِّوايات لا تدغدغُ الزهو، ولو مُؤقَّتًا. على عكس الرِّوائي؛ فالسِّينمائي والرسام والموسيقي يعرفون ردة فعل جمهورهم حيال أعمالهم ويسمعون

حتى تصفيقاته. فيما لا يرى الرِّوائي قراءه وهم ينخرطون في فعل قراءة كتابه، لذا فهو لن يكون شاهدًا أبدًا على إقرار الجُمهور وانفعالاته أو مُسايرته. وإذا كان محظوظًا في المبيعات، فبوسعه التعزِّي بأرقامها غير المُشخصنة والمُجردة ككل الأرقام، مهما كانت عالية. وسيتعيَّن عليه، آنذاك، معرفة أنه يقتسم هذا النوع من الأرقام والتعزية، مع أولئك الطبَّاخين الكبار الذين يستعرضون وصفاتهم، وكُتاب السِّير الفاضحة للشخصيات الملكيَّة، وعلماء المُستقبل ذوي السَّلاسل والقلائد، أو حتى المشالح والجلاليب، وأبناء المُمثلات المغتابين، والمُحرِّرين الفاشيين الذين يشيرون إلى الفاشيَّة في كل مكان عدا أنفسهم، وأولئك الأفظاظ ذوي التأنُّق المُضحك الذين يُعطون دروسًا في اللياقة، وحملة أقلام آخرين. أما في ما يخص الإطراء المُمكن للنقد، فالرِّوائي لا يحظى به إلاّ بصعوبة، وإذا شمله، فلأنَّ النقاد قرروا التنازل، بلا شك، عن فكرة اغتياله، لكن بتهديده في المرة القادمة. وإذا لم يكن الحال كذلك، فمن المُمكن أن الروائي وقع في خطأ بشأن الدَّواعي التي جعلت كتابه يحظى بإعجاب. وإذا لم يحصل أيٌّ شيء من كل هذا، وأن النقد المُوجَّه كان صادقًا، سخيًّا، وذكيًّا فإن من المُحتمل أن لا أحد قد فطن إليه.

7. أجمِّع هنا كل المُسوغات المُحصَّنة إلى درجة تصير معها مُسئمة. مثل العُزلة التي تظلِّل الرِّوائي وهو يعمل، المُعاناة الهائلة التي يُكابدها في عراكه مع الكلمات وخصوصًا مع تركيب الجُمل، رهاب الورقة البيضاء، تَلَف روحه المُداسة من طرف الأطفال والبكائيَّات والمحيط والجغرافيات، علاقته المهزوزة مع حقائق غليظة كالقبضة تظهر له هو بالذات، نِزاله الدائم في مُواجهة السلطة، ارتباطه الملتبس بالواقع والذي يقوده إلى الخلط بين الكذب والحقيقة، صراعه مع شخصيَّاته التي تكتسب أحيانًا حياة مُستقلة تصل إلى الانفلات من سيطرته (هل يتعيَّن عليه أن يكون رعديدًا)، إفراطه في الشرب، الطريقة الخاصة أو المباشرة التي تجعله غير عادي لكي يعيش كفنان، وهراءات أخرى ظلت طويلاً تُغوي الأرواح البريئة أو البُلهاء ببساطة، والتي أوعِزَ لها أن هناك الكثير من الولع والشجن، والرومانسية في ممارسة الفن المُتواضع والعجيب؛ المُتمثل في خلق وسرد الحكايات. وذلك ما يقودني إلى المُسوِّغ

الوحيد لكتابة الرّواية والذي أراه خليقًا بالإشارة، وهو عبارة عن عناصر قليلة مقارنة بالأسباب السَّبعة التي سُقتها سابقًا، ومن المُحتمل أنها عناصر تتضارب مع واحد من تلك المُسوّغات السَّبعة.

المُسوّغ الأول والأخير: تُخوّلُ كتابة الرّواية لصاحبها تمضية جزء كبير من وقته في فسحة المُتخيل، الفضاء الوحيد المُتحمَّل بالتأكيد، أو الأكثر تحمُّلاً. ما يعني أنه يتيح للروائي أن يعيش في مملكة "ما يمكن أن يكون ولم يكن أبدًا"، وفي تخوم المُمكن تحديدًا، وما سياتي دائمًا، وما ليس مُقضَى بعد، لأنه حدث قبلاً أو لأننا نعرف أنه لن يحدث أبدًا. إنَّ الرّوائي الواقعي أو ما نسميه على هذا النحو، ذاك الذي يستقرُّ ويحيا -خلال الكتابة- في فضاء «ما كان وما سياتي»، خلطَ نشاطهُ بما يقوم به المُراسل الصَّحفي والمُخبر الأدبي والموثِّق. بينما لا يعكس الرّوائي الحقيقي الواقع، بل اللاواقع. لا أقصد بهذا ما هو مستبعد الحدوث أو الخارق، ولكن ببساطة ما كان ممكن الحدوث ولم يحدث. بوضوح أكثر، إن ما هو مُمكن، هو دائما ممكن إلى الأبد، يكون ممكنًا في كل زمن وفي أي مكان. ولهذا السبب نحن قادرون اليوم على قراءة دون كيخوته ومدام بوفاري، وعلى أن نعيش في أحضانهما لحظةً مانحين إياهما كلَّ ثقتنا، معناه عدم التعاطي معهما كمُستحيلين أو كحدثين حصلا قبلاً، أو شيئين معروفين وهو ما يعني نفس الأمر. إن إسبانيا زمن 1600 التي نعرفها وتعني لنا الكثير، هي تلك التي ارتبطت بثرفانتيس وليست أخرى، وهي حاضنة كتاب لاواقعي، حول فارس قديم تائه، خارج من الكتاب ذاته، وليس مما كان الواقع: الواقع الذي نسميه إسبانيا 1600 لا يُوجد، على الرغم من افتراض أنه وُجد، تمامًا كما لا تُوجد ولا تُحسَب فرنسا أخرى، عدا فرنسا 1900، تلك التي قرَّر بروست زجَّها في عمله الرّوائي، إنها الوحيدة التي نعرفها اليوم. إن الرّواية كما قلت أعلاه هي الحيِّز الأكثر تحمُّلاً. هي كذلك لأنها تهب التسلية والعزاء لزائريها، ولكن لسبب آخر أيضًا: بالإضافة إلى كون الرّواية عملاً راهنًا، فهي المُستقبل المُمكن للواقع. وبرغم أن كل هذا لا يمتُّ إلى الخلود الشخصيِّ بصلة؛ فهو يعني أن هناك للروائي إمكانية -ضئيلة جدًّا، لكنها مع ذلك تظل قائمة- أنَّ ما يكتُبه، يصوغ ويُصبح ذلك المُستقبل الذي لن يراهُ أبدًا.

حين عاد صاد بالشاي والبسكويت، كنتُ على وشك إنهاء قراءة الفقرة الأخيرة؛ المُسوِّغ الوحيد لكتابة رواية، وهو -في عُمق خلاصاته- مُسوِّغ ثامن لعدم كتابتها، وفقًا لما يراه الكاتب فيما كتبه ثرڤانتس في دون كيخوته ومارسيل پروست في البحث عن الزمن الضائع.

تناولتُ قطعة بسكويت وبدأت في شرب الشاي.

كان صادوڤسكي مُتحفزًا في انتظار رأيي في تلك المقالة التي هدمت، يقينيَّاتي، لكنني آثرت الصَّمت خشية تقويض المشروع برمَّته. فقد أدركتُ بعد قراءة تلك المقالة، أنني لن أجد سِعة في الكلمات لمُحاجة صادوڤسكي، إذا ما كان الدبلوماسيون والموظفون وممثلو السينما، والنقاد والأرستقراطيون، والقساوسة وربَّات البيوت والأطباء النفسيون، والإرهابيون ورعاة الماعز أضحوا في عصرنا يكتبون الرِّواية، لذلك استأذنتُ في الخروج بحُجةٍ أو بأخرى.

أصابني الضِّيق من فشل مشروعي، مشروع صديقي صاد الذي أقنعته تلك المقالة -بغض النظر عن صحَّة ما ادعاه كاتبها من عدمه- بالكفِّ عن الاستمرار في مشروعه الذي حفزته على استكماله، لكنها مقالة أصابت صاد -المُتوجِّس سَلفًا- في مقتل.

تعمدت عدم زيارته فترة من الزمن، مُعولاً على تراجعه عن ذلك القرار المُحبط، بيد أنني لم أنقطع عن الاتصال بطبيبه الذي أكد لي انقطاعه عن زيارته وتوقف الجلسات. وبين الفينة والأخرى كنت أتصل بابنته شمس التي كانت تخبرني أنه بخير، لكنه واهن القوى بسبب مرضه. وحين استفسرت منها عما يكتبه في هذه الفترة أجابتني بأنه يجلس في الحديقة أحيانًا لمراجعة مسودات مكتوبة،

لكنها لا تشعر أنه في حالة انكباب على عمل جاد، بدليل أنه طلب منها البقاء قربه في البيت قدر المُستطاع.

سألتني عن سبب انقطاعي عن زيارته، وهل أعتقد أنه ما زال يعمل على مشروعه الجديد، فقد لاحظت غيابي وتفتقد جلساتنا معًا حين نتحاور أو ننقح معًا ما كان يكتبه. قلت لها أحسب أن والدها يُفضل أن يكون وحيدًا في هذه الفترة، وستفرحني زيارتها في بيتي أو في أحد المقاهي لاستشارتها في أمر ما. وقد وافقت شمس على الفور، وضربنا موعدًا للقاء في أحد المقاهي.

كنتُ قد قرَّرت البوح لها بكل شيء، فأخبرتها بحكاية مشروع الرّواية وحماسة أبيها المبدئية للمشروع.

حين التقينا؛ أخبرتها بحكاية الفصل الأول، فصله التُّحفة -في نظري-، لا بصفتي صديقًا لأبيك أو ناقدًا تصادفك مقالاته في الصحف، بل لأنه اختارني، دون سواي من الكُتاب، لأكون مُحرِّر كُتبه. أي ذاك الذي يلجأ إليه الكاتب لقراءة عمله. فحتى الكتَّاب المحترفون في الغرب يستعينون بخدمات المُحرِّرين والمُنقحين، كما تستعين بهم دور النشر الكبيرة. فمُحرِّرو الكتب لا يكتفون بالتنقيح والضبط اللغوي، بل يُقدِّمون قراءة نقدية للكِتاب قبل نشره. وهي مهنة مُحترمة في الغرب، لاسيما أن المُحرر عادة ما يكون قارئًا موسوعيًّا في مجاله أو ناقدًا يُقوِّم النص ويحذف زوائد المخطوطة الأولى بالتشاور، طبعًا، مع الكاتب أو دار النشر التي يعمل لصالحها، كما أنه يسهم في اقتراح إضافات مُكمِّلة أو أفكار تثري، في نهاية المطاف، عمل المؤلف أو يقترح خاتمة مُختلفة عن خاتمة المؤلِّف. وبطبيعة الحال فإن المُحرِّر المُحترف يتقاضى مبالغ لا يُستهان بها نظير عمله، لكنني بحكم صداقتي لابيك وتقديري

لإبداعه ومعرفتي بظروفه المادية لا أتقاضى منه شيئًا ناهيك عن بداهة أخرى؛ فذاك تقليد لم يترسَّخ في بلادنا بعد.

لأخبرَها -بعد تلك المقدمة- بتفاصيل أضحت معروفة حول جلسات التنويم المغناطيسي وابتكار والدها شخصية موازية لشخصيته الرئيسة تحلمُ، هي الأخرى، وتدخل في صراع مع حلمها.

أعرف حالة أبيك الحرجة يا شمس، وأنتِ مثل ابنتي ولذلك أصارحك بالحقيقة، فما حدث بعد ذلك كان انتكاسة قصمت ظهر المشروع، إذ تراجع أبوكِ، فجأة، عن استكمال الجلسات، وعن مشروع الرّواية برُمَّته إثر قراءته لمقالة كتبها روائي إسباني تُبرِّر اللاجدوى من كتابة الرّوايات.

وبصفتي صديقه ومُحرِّر كُتبه أخشى عليه من تدهور حالته لو توقف عن الكتابة. فالكتابة الإبداعية قدره وخلاصه، واستمراره في الكتابة يرفع من معنوياته وعدم استسلامه لأفكار لا نعرف مدى سوداويَّتها بسبب مرضه، لدرجة أنه قد يشعر في لحظة ما، قد يشعر بلا جدوى الحياة ذاتها. لذلك أريد منكِ مساعدتي في إنقاذه، فبقدر ما أنتِ وحيدته (كما يدعوكِ في غيابك، بسبب قطيعة الصَّلت له)، وبقدر حُبه لك بدوري أحبه وأعزه وأقدره، لكنني لا أستطيع تركه وحيدًا في حالة يأس قد يتراكم إن أقنع نفسه بعدم جدوى استمرار كتابة روايته التي قد تقوده للتفكير في تفاهة الحياة. لقد كنتِ وما زلتِ تنادينني عمِّي، وأتمنى أن أكون مصدر ثقة وحائط أمان تركنين إليه. لذلك سأخبرك اليوم بسِرٍّ صغير لا يعرفه والدك المُبدع. ومن المُفارقات، أو من المُبكيات المُضحكات؛ أنني تدخلتُ في عمله الروائي بفصل حوَّر مسار عمله، لأصير شخصية من شخصيات

روايته دون أن يدري، فقد أكمل والدك كتابة عدة فصول، ثم قرر التوقف عن المشروع. بيد أن العمل -وتلك مفارقة أخرى- لم يتوقف. فإضافة إلى عدة فصول تكشف عن شخصيتي الحقيقية، وفصول كتبتها إحدى شخصياته، وهي بالمناسبة شخصية نسائية عجيبة، تبين أنها شخصية حقيقية تقريبًا. أي شخصية واقعية تشبه في تجليها، داخل ورشة أبيك الروائية، موروث المغايبة المسحورين، أو شيء من ذلك القبيل.

لذلك أفكّر في إرسال بقية الفصول إليه في مغلف عبر البريد، وأكاد أجزم بأنه حين يقرأ تلك الفصول المكمِّلة لعمله؛ قد يستعيد شغفه بالعودة للكتابة. وما آمله منك أن تكوني قريبة منه قدر المُستطاع، وألاّ تبوحي له بهذا السِّر حتى يكتشفه بنفسه في فصول المخطوطة المتبقية. فوجودك قربه في هذه المرحلة سيساعده على تخطي أزمتيه الصحية والإبداعية، شريطة تجاهلك لردَّات فعله حين يصل المُغلف المحتوي على البقية الباقية من فصول روايته.

طبعًا أستشف شغف فضولك لمعرفة الشخصيَّة النسائية المَرويَّة والحقيقية في الوقت نفسه، لكن الوقت لم يحن للكشف عن ماهيَّتها بين فصول الرِّواية وتخوم الواقع. كل ما أستطيع قوله الآن -إن كنتِ تثقين بعمِّكِ، مُحرِّر أعمال أبيكِ صادوفسكي ومُنقِّحِها-، كل ما أستطيع البوح به لك الآن؛ هو اسم تلك الشخصيَّة الروائيَّة المُدهشة:

تفاحة.

الفصل السَّادس عشر

حين وصل مغلف المُتبقي من فصول المخطوطة بالبريد المُسجل لم يُوقِّع صادوفسكي تسلمه إيَّاه بل قامت شمس بذلك، لأنها هي من كان يذهب إلى مكتب البريد لفتح الصندوق الذي كان صاد يفتحه بنفسه قبل تدهور وضعه الصحي في الفترة الأخيرة. ناولته المُغلف وألقى نظرة على باقي الرسائل التي طلب منها أن تتكفل بقراءتها لتعرض عليه منها ما يستوجب الردود، وهي قليلة في أية حال: دعوة لحضور معرض كتاب في إحدى الدول المُجاورة وعدة تهانٍ بمناسبة العام الجديد وفواتير ماء وكهرباء، إلخ...

فتح المغلف الغريب وراح يقرأ محتوياته بفرح خفف على الفور من وطأة مرضه واشتداده عليه، مستغربًا فيما تتتالى أمامه فصولٌ تعرَّف فيها مُندهشًا، صفحة إثر أخرى، تتمة فكرته التي كتبها فصلاً فصلاً حتى تراجعه النهائي عن الاستمرار في مشروعه، بيد أنه حين قرأ فصلي السرِّي، الفصل الثاني عشر -المُفتتِح لفصول التنقيح-، صُعق من حكايتي العجيبة، مُغيَّبةً تدَّعي أنها حقيقية وواقعية قدر ما هي شخصية مرويَّة عرَضاً في فصول مخطوطة روايته بصفتها من اختراع الأصلع وحلمه الأثير، أي من اختراع تداعياته اللاواعية على الأريكة الفرويديَّة.

كانت مفاجأة حقيقية، مفاجأة لم يتوقعها أبو شمس وهو يقلب المخطوطة التي بين يديه مُتعرّفا أحداثها وشخصياتها التي يعرفها، كما سبق له أن كتبها واعيًا أو غير واع، بيد أن تلهفه وقراءته السريعة شوشاه ولم يُتيحا له حتى فرصة اكتشاف أن الخامس هو صديقه الناقد، مُحرّر أعماله الإبداعية ومُنقّحها، لاسيما أن طغيان حضوري شخصية قادرة على النفاذ بين الحُلم والواقع، فضلاً عن كوني إحدى شخصيات روايته، أعماه عن تقدير مُفارقة قدريَّة أخرى، مُفارقة بدت له مُستحيلة في الفصل التالي من مسودة فصول التنقيح:

واقعية الخامس التي اعترف بها في الفصل الثالث عشر. واقعيته شخصيةً حقيقيةً تتنفس هواء الواقع الذي قاسمته أحد أصدقائه الكُتاب في جُملة أزاحت عن صادوفسكي عمى تقديره للمُفارقة في بُعديها الرّوائي والواقعي: «نعم. أنا الخامس، لكنني لست شخصية روائيَّة بالمعنى المعهود والمتعارف عليه في الرّوايات. أنا شخصية واقعية، وأحد أصدقاء كاتب قصص قصيرة تميز دون سواه من مُجايليه في بلادنا بأسلوبه الذي اعتبره النقاد ضربة مُعلّم لا تُجارى ولا يُجارى».

زاد فضول صاد وحماسته للقراءة بعد اكتشافه حقيقةً توارت عنه إثر قراءته للفصول اللاحقة، ليُثمّن ما سبق للخامس أن قام به في أول فصل شارك فيه؛ فصله التاسع، الفصل الذي سبق له قراءته، دون أن يُفكر بأن كاتبه الحقيقي هو صديقه الذي حفزه إلى كتابة هذه الرّواية، حتى أتاه اعترافه بالحقيقة أخيرًا.

في لحظة حماسة واندفاع كاد أن يتصل هاتفيًا بالخامس، لكنه تراجع عن الفكرة مُفضلاً استكمال قراءة بقية الفصول. مع ذلك،

وبرغم أنه لم يتصل به، أدار ذاك الحوار الهاتفي الصامت في مُخيلته، كأنهُ في حُلم يقظة راهن على نقيضه:

- ها ها ها. إذن أنت الخامس.

- مرحبًا صادوفسكي، عساك بخير.

- ألم أقل لك أنني لم أكتب الفصل التاسع؟ وحاولتَ بذرائع شتى إقناعي بأنني صاحبه.

- كانت مجرد دعابة، لا أكثر!

- وصلني المُغلف، وحكاية تفاحة مُدهشة بالفعل، ولولا حكايتها المُدهشة ما كنتُ عدلت عن رأيي بعدم مواصلة المشروع.

- هذا خبر مفرح، مفرح جدًّا يا صاد.

- هل تعرف؟.. أنا مُتشوق لرؤيتها وتزويجها للمسمار، وبعد ذلك سنتركهما يعيشان أبديَّة واقعهما المَرويِّ خارج فصول الرِّواية، إنْ أمكن.

- ليس من السَّهل اقتناصُها، لكنني سأحاول جهدي.

- لا تقلق. إن أرادت، فإن تفاحةً بهذه الألمعية هي من سيقتنصك ويقتنصني ربَّما.

بطبيعة الحال لم يتصل بالخامس، لكنه استمتع بالحوار المُعبِّر عن فرحه الضمني بمحتويات المُغلف.

ارتاح صاد لوجودي الظاهر والمُغيَّب، وعرف أن فصل اعترافي بكينونتي نقلة وقفزة نوعيتان أضافتا زخمًا للأحداث راق له، فلطالما فكَّر باستثمار الحكايات العجيبة التي سمعها حول السَّحرة والمغيَّبين في واحدة من قصصه القصيرة، لكنه لم يفعل ذلك اعتقادًا منه أنَّ الزمن تجاوزها. كان ذانك الفصلان، فصلي

وفصل الخامس نقلة وقفزة نوعيَّتان في عمله، لم يحسب صاد لهما حسابًا، لدرجة أنَّه حسِب للوهلة الأولى أنني من كان يُدير لعبة السَّرد في الخفاء، وليس صديقه الخامس. لكنه لم يشأ التمادي في ظنونه حول حقيقة وجودي من عدمها، مفكرًا في إمكانية وجودي ضمن لعبة السرد، خلافًا لما ادعيته من حياة مغيَّبة في الفصل السري. وتلك لعبة أو نقلة سردية ممكنة في الواقع الرِّوائي، لن يُعدم كاتب روايات اختلاقها.

قاده فصل اعترافي وفصل اعتراف الخامس للتوقف عن القراءة، ليتماهى وشيخ آخر، شيخ أعمى يكنُّ له الإعجاب، مثلما يكنه لشيخه الأبدي دوستويفسكي. ألم يسبقه خ. ل. بورخيس إلى تضليل مُتقن، لنفسه أولاً وللقارئ تاليًا، في قصته التي يذكر فيها «كتاب الرمل» اللامتناهي بعدد صفحاته، الكتاب الذي استدعى نفسه تلك اللحظة، كأنه يقرأ إحدى صفحاته، فسارع إلى طيِّ الصفحة التي وصل إليها من مغلف التنقيح، تمامًا كما فعل بورخيس في قصته، وظل خائفًا من هول العدد اللامتناهي لصفحات ذلك الكتاب المطبوع في مومبي. لم يعرف لمَ فكَّر تلك اللحظة في كتاب الرَّمل، فالرَّمل والكتاب معًا ليست لهما بداية ولا نهاية، وتذكَّر أن بورخيس نفسه قد أرعبته لانهائية صفحاته لدرجة أنه فكر بإحراقه، لكنه خشي أن يكون احتراق كتاب لانهائي احتراقًا لا نهائيًا أيضًا يخنق بدخانه الكوكب الأرضي قاطبة.

مضى صادوفسكي نحو مكتبته وأخرج إحدى مجاميع قصص بورخيس المُحتوية على قصة «كتاب الرَّمل»، وشرع يقرأ خاتمتها:

«تذكَّرتُ أنني قرأت، في مكان ما، أن أفضل موضع لإخفاء ورقة هو الغابة. وقبل إحالتي على التقاعد، كنتُ أعمل في المكتبة

الوطنية التي تحتضن تسعمائة ألف كتاب؛ وأعلم أنه إلى يمين الممرّ ينساب سُلَّم على شكل حلزوني إلى أعماق سرداب تحفظ فيه الصحف والخرائط. اغتنمت فرصة عدم انتباه العاملين فأضعتُ، متعمِّدًا، كتاب الرَّمل فوق أحد الرُّفوف الرَّطبة، دون أن أحاول تحديد العلوّ أو المسافة اللذين يفصلانه عن الباب».

بعدها قال صاد لنفسه، في محاولة لتبرير وجودي مَسرودةً وساردةً في مخطوطته:

ربما كانت تفاحة ورقة غابة كتابي السريَّة بحضورها الغائب وغيابها الحاضر، كما هداه استحضاره لقصة بورخيس تلك. هي، إذًا، مفتاح هذه المخطوطة التي عن طريقها أعادت تنقيح حياتها الآفلة بحياة أخرى وجدَتها متاحة في المخطوطة، قال ذلك لنفسه مستريحًا إلى حلٍّ مُقنع لتعلَّة وجودي في صُلب عمله.

راقته الفكرة، واعتبرها دينًا متأخرًا عليه أن يوفيه لمعلمه بورخيس الذي لم تكن ولادته قدرًا عابثًا في 1899، في آخر عام من أعوام القرن التاسع عشر، كما هو يومه هذا الذي عليه أن يُسدِّد دَينه لتفاحةٍ وجدت طريقها لاستعادة كينونتها عبر انصهارها وعبورها الحُلميّ في برزخ كلماته بين الأصلع وحلمه الأثير.

عاد لقصَّةِ بورخيس ليقرأها كاملةً، ولفتت نظره فقرتها الافتتاحية:

«يتألَّف الخط من عدد لا حصر له من النُّقط؛ والسَّطح من عدد لا حصر له من الخطوط؛ والحجم من عدد لا حصر له من الأسطُح؛ والحجم الهائل من عدد لا حصر له من الأحجام. . . قطعًا ليست هذه more geometrico بأفضل طريقة للشروع في سرد

خُرافتي. لقد غدا من الشائع اليوم التأكيدُ على أن كل خرافة خارقة هي خرافة حقيقية؛ ومع ذلك فخرافتي حقيقية».

بعد أن أتم قراءة تلك الصفحة قال صاد لنفسه، بعد أن أكد له مطلع قصَّة بورخيس إمكانية أن يكون حضوري المُغيَّب خرافةً خارقة؛ بالأحرى خرافة حقيقية:

الآن عرفتُ لم أصبتُ بتلك اللعنة؛ حُبسة الكاتب التي سلبتني القدرة على تطوير الأحداث بعد الفصل الأول، تاركًا بطلي الدكتور الجيولوجي حتى دون أن أسميه، ودون أن أودِّعه بمُختتم لائق، كما كنتُ أفعل مع من يستمرون في الحياة من أبطال قصصي القصيرة.

وراء الحُبسة ما وراءها، إذًا! وانبثاقُ شخصية الأصلع مع حُلم مُوازٍ لحلم بطلي لم يكن عبثًا، بل أمر مُقدَّر سلفًا، وما اقتراح صديقي الناقد بمراجعة طبيب تبيَّن أنه معالج نفسي يُجيد التنويم المغناطيسي سوى جزء من ذلك المُقدَّر، لأنسى بطل فصلي الأول وحلمه الذي أودعه المُتكأ بين أحافيره ومُستحاثاته، لأنهمك في تخليق لاواع لشخصية الأصلع وحلمه، حتى تتداعى تفاحة بطريقتها الخاصة في فصلها التعريفي الأول، كما في فصولها التالية مُعبِّرة عن حُبِّها اللامُتناهي لمسمار اختارته شريكًا لحياتها الجديدة دون سواه من الناس.

هكذا، هكذا إذًا!

فالأصلع وحلمه، وصراعهما الذي أوقفه الخامس بفصل غريب حدست أنني لستُ كاتبه، برغم أنني لم أكن مُتيقنًا؛ كل ذلك مُجرَّد تعلات وجوديَّة لانبثاق حياةٍ من غيبها الأزلي في مخطوطتي.

وقلمي، بل آلتي الكاتبة القديمة تلك التي طالما سخرتها لإجادة فن القصة القصيرة، إلى جانب إلحاح صديقي الناقد لأكتب عملاً روائيًا - كُلُّ ذلك، كُلُّهُ جزء من دائرة عدم ووجود غير منظورة.

هكذا، هكذا إذًا!

* * *

لم يكن صادوفسكي كاتبًا عاديًا، بل رائيًا يُحاول استقراء ما وراء الحُجب والأستار، لذلك توصَّل إلى خلاصاته عني، وعن المسار الذي مضت إليه كينونة كتابه، وهي خلاصات لن أدعي صِحَّتها، كما لن أدحضها بشهادة مُناقضة بالتأكيد.

فجأة توقف صاد، في ذلك اليوم العجيب، عن تقليب خلاصاته في ذهنه، كما توقف عن تقليب المخطوطة؛ لينادي ابنته شمس طالبًا منها أن تحضِّر له فنجان قهوة من علبتها الخاصة عوضًا عن فنجانه التقليدي، منزوع الكافيين، وفق نصائح طبيب القلب المشرف على علاجه.

استغربت شمس من طلبه وحاولت التمنع بحجج الطبيب الصارمة، لكنه ألحَّ عليها بوجهه المُتهلِّل حيوية وحبورًا على غير العادة. فعوضًا عن فكرة السَّفر رفقة صديقاتها، في عطلتها، أقامت معه، لاسيما بعد نصيحة الخامس لها بالبقاء قربه قدر المُستطاع. لذلك لم تُمانع، واستجابت لطلبه على اعتبار أنه مكافأة لحيوية وحبور تدفقا في أرجاء البيت بمجرد انكبابه على قراءة محتويات المغلف.

أمضى سحابة نهاره وهو يلتهم الفصول، لكنه مع استمراره في

القراءة انتبه لحاجته إلى العزلة التامة، كما في أيامه الخوالي، لقراءة المخطوطة وتنقيحها في هدوء وسكينة لا تقطعهما عليه حتى شمس التي أحبها كما لم يُحب أبٌ فلذة كبده، برغم إحساسه الدائم بالتقصير في تعبيره لها عن ذلك الحب بطلاقة لسان أفقده إياها طلاقه لأمها، وقطيعة ابنه الصَّلت له، واضطرارها للعيش حمامة يتيمة في عُشين منفصلين.

لم يشأ أن يجرحها بأن يطلب منها الخروج بحجة واهية ستكتشف اختلاقها حتمًا، لذلك وجد حُجَّة مُناسبة، وهي طلبه أن تقوم بالمشوار الذي لا بد منه لجلب حصته الشهرية من الأدوية التي حان موعد استلامها من صيدلية المستشفى المركزي الذي يتلقى فيه العلاج. رحبت شمس فورًا بالفكرة وقالت له إنها ستزور إحدى صديقاتها المقيمات قرب المستشفى وأنهما ستخرجان للتسوق وتناول البيتزا التي افتقدتها طوال إقامتها في السَّكن الجامعي بروتين وجباته المُملَّة.

قبل خروجها استأذنته في استخدام سيارته، وسألته إن كان محتاجًا لأي شيء؟

- نعم. بيتزا رقيقة من الحجم الصغير وخبز محمَّص بالثوم.

جملة قصيرة، كجُمل قصصه القصيرة، أنقذته من الموقف قالها بسرعة، بينما كان يتكتَّم على ابتسامة رضا أفرج عنها بمجرد خروجها وهو يجمع أضابير فصول المخطوطة إلى ما وصله في المغلف من فصول التنقيح؛ ليرى أمامه نسيج الحروف التي تُكوِّن كلمات، والكلمات التي تكوِّن جُملاً، والجُمل التي تكوِّن فقرات تتالى أمام عينيه، لتغدو فصولاً مرتبة مرقمة تثبت له بما لا يدع له مجالاً للشك أن ما بين يديه ما هو إلاّ كتابه، كأنه كتبه كلمة كلمة

وجُملة جُملة وفقرة فقرة وفصلًا إثر آخر أصابه تعدد رواتها الحقيقيين والحُلميِّين والمغيَّبين بالدهشة والدُّوار، كما بعدم القدرة على تصديق حقيقة كانت تتلألأ أمام عينيه: إنه هو صاد صاحب كتاب الرَّمل ذاك الذي تجمعت فصوله بين يديه.

كتابه الذي كاد أن يتراجع عن تتمَّته، لولا أنَّ حاسته النقدية سارعت لتأنيبه على عدم تصديق حقيقة تلألأت في مخطوطة كتابه كذرات الرَّمل؛ فالوقائع والأحداث والشخصيات تثبت له أنه لم يعد كتابه وحده. لكنه كتاب -برغم الوقائع المذكورة بين صفحاته- ينتمي إليه من ألف البداية إلى ياء نهاية لم تحن بعد. كما أنه لم يستطع إخفاء شعور داهمه وفرض نفسه عليه: لم يقرأ كتابًا مُعبرًا عما أراد قوله وفشل في كتابته كما نجح في هذا الكتاب الذي تزعم فصوله أن أكثر من شخص واحد هو من كتبه، وتلك خرافة كتابه التي عليه تصديقها، لاسيما بعد تنامي الأحداث وتداعي شخصياته بعيدًا عنه، لتنفتح مظلة تدلى منها الأصلع بروايته الخاصة، ليتخلق فضاء سردي وزمني خاص به وبحلمه الموازي لحلم بطله الجيولوجي عبر تحييده، وبالتالي تحييده هو صاحب هذا الكتاب عن فعل الكتابة المباشر نقرًا بطيئًا على آلته الكاتبة العتيقة؛ لينبثق نجاح رُواته من صلب فشله، فشله الخاص به وحده وبتوجُّسه وتخوفه من الشروع في كتابة هذا الكتاب بالذات، متشككًا في قدرته على حل أحجية لا مناص من مواجهتها بين يدي كتابه.

بيد أنها أحجية حلَّتها، عوضًا عنه، تفاحةُ كتابه المُغيَّبة بحضورها الميتافيزيقي المُدهش بعد سبعين عامًا!

حين عادت شمس التي قضت وقتًا طويلًا في طابور صيدلية

المستشفى المركزي قبل اصطحاب صديقتها للتسوق في أحد المراكز التجارية الكبيرة وإخبارها، أثناء استراحتهما للغداء في مطعم البيتزا، بتحسن مزاج أبيها وفرحه العارم؛ كانت مطمئنة إلى أنها ستجده بذات الإشراقة الصباحية التي أعادت إليه قهوةَ حياته القديمة وحليبها، لولا استغراقه لحظة وصولها في حيرته قارئًا يقرأ ما كتبه وما لم يكتبه في المخطوطة. لكنه استطاع إخفاء ملامح حيرته تلك وراء تحسن حالته الصحية ومزاجه العالي الذي لم يفارقه طوال اليوم، طالبًا منها -بعد قضمه لشرائح البيتزا وخبز الثوم المُحمص- أن تعد له فنجانًا مسائيًا من قهوتها الطافحة بالكافيين علَّه يعينه على تتمة الأحداث بانتباه ويقظة لما ستفاجئه به الأسطر التي انتظرها بذات التشويق والإثارة المكثفين في الدقائق العشر الأخيرة من فيلم عذب لن يتمكن من مشاهدته بمعيَّة شمس في صالة التلفزيون -كما أخبرها-، دون أن ينسى إضافة تفصيل اقتبسه -بتحوير مقصود- من فصل روايته الأول:

لقد استنزفتُ مخزون قهوتك الرائعة.. لم لا تعدِّين لنفسك كوبًا من الشاي المُحلَّى بالعسل؟

ليُضيف جُملةً تأكيديةً أخرى:

في الغالب سأنام الليلة على أريكة المكتبة، وفي الصَّباح ستروين لي أحداث الفيلم التي ستفوتني، وبدوري سأروي لك مُحتويات هذه المخطوطة التي وصلتني في المُغلف الذي أحضرتِه من مكتب البريد.

* * *

لم تشأ شمس أن توقظه من النوم، في الصباح التالي، برغم

تأخره عن صحوه المعتاد في الخامسة وخمس دقائق، مستسلمةً لحالة مزدوجة من القلق والإطمئنان حتى شارفت التاسعة والنصف، حين سمعت صوته يدندن بلحن واحدة من أغانيه القديمة، بينما كان يستحم في حقل من الماء برضا غامض أفشته دندنته بتلك الأغنية التي لم يعد يستمع إليها ولا إلى سواها منذ حالة اكتئابه الأخيرة، قبل أن يُباغت حالة قلقها واطمئنانها المزدوجة في الحديقة، حيث كانت تنتظره على الإفطار، قائلاً لها بابتهاج مبلل بعطر الماء المتقاطر من منشفة الوجه الملقاة على كتفه:

- أشعر اليوم بسعادة غامرة. لكنني كما وعدتك سأروي لك ما كنت أقرأه في المغلف الذي وصلني أمس شرط أن تسردي لي أحداث الفيلم الذي خذلتك وجعلتك تشاهدينه وحدك ليلة البارحة.

ردت شمس بسيل شموسٍ من ثغرها:

- كان فيلمًا عاديًّا بابا. ولا يستحق تضييع وقتك برواية أحداثه لك، لكن شمسك الوحيدة تستحق أن تروي لها أنت ما جعلك مبتهجًا منفرج الأسارير على غير ما اعتادته منك مُؤخرًا.

- يا سلام، يا سلام. قهوة بالحليب، عصير برتقال طازج. كرواسّان. بيضة واحدة مطبوخة بمواصفات المستشفى المركزي. لا ملح، لا سكر. قليل من الفلفل الأسود. الله الله، لو علم طبيبي بمهاراتك لحوَّلك من كلية الفنون إلى كلية تفريخ المُمرضات.

- وهل يرضيك أن أترك كلية الفنون؟

- سيرضي طبيبي، في أية حال، وشكرًا، شكرًا يا شمس لهذا الإفطار الرَّائع.

تناولا فطورهما معًا بتآلف افتقداه طوال سنوات انقطاعها عن

العيش معه، بسبب إقامتها في بيت أمها ولاحقًا في سكنِ طالبات الكُليَّة. بتآلف تناولا فطورهما، كأنهما في تلك الصبيحة يختزلان الأيام والليالي المفتقدة في كل نظرة ورشفة من عصير البرتقال وحفيف أوراق الحديقة التي لم يجدا الوقت الكافي للجلوس فيها معًا، ليتطرَّق صادوفسكي بلباقة إلى صديقه الناقد وغيابه وافتقاده إيَّاه، مُذكِّرًا شمس بمحاولات صديقه الناقد وتشجيعه على محاولة كتابة عمل سردي طويل وبوقوفها معه ضد رفضه وتخوفه من خوض تلك التجربة.

- نعم بابا، أتذكَّر تلك الأيام.

- لكن الغرابات والمعجزات، يا شمس الشُّموس، تحدث في هذه الحياة. أليس كذلك؟

- لا تُراوغ يا بابا، شمس لم تعد صغيرة.

- لا بأس، لا بأس. أردتُ إخبارك أنني خلال انشغالك في الكُليّة وانقطاعك عن زيارتي خضت تجربة أدت بي في منتصف العمل إلى حالة قنوط بسبب عدم قدرتي على الكتابة. لكن ما حدث بعد ذلك أمر لا يحدث حتى في الرِّوايات، وبالكاد أستطيع تصديقه بعد أن قرأت المغلف الذي جعلني، هذا الصباح، أدندن بأغنيتي القديمة التي نسيتها زمنًا.

صمت صاد وصمتت شمس مُنتظرة ما سيقوله مباشرة، ودون مُراوغة.

ثم استرسل في إخبارها بحكاية المغلف ومحتوياته الغريبة، مؤكدًا لها أنه يحتوي على المُتبقي من كتابه الذي لم يكتبه قط، برغم أنه كِتابه وكِتاب آخرين أسهموا جميعًا في كتابته.

باختصار أخبرها بالتفاصيل كاملة كما وردت في فصول الكتاب التي رواها، كل على حدة، شخوصه الذين تناوبوا على كتابته عوضًا عنه، وباح لها بندمه على عدم استقبال أعز أصدقائه حين قرَّر التوقف عن مواصلة المشروع، في حين إن صديقه الناقد لم يكتف بمحاولة هزيمة تخوفه من خوض كتابة هذا العمل، بل قطع الشوط إلى آخره حين فاجأه بين ثنايا كتابه بأدواره البطولية التي جعلت منه شخصية محورية أعادت مجرى الأحداث نحو وجهتها الصحيحة.

(شمس كانت تعرف موجزًا لتلك الأحداث أخبرها به الخامس، لكنها آثرت كتمان معرفتها المُسبقة)، ليستطرد صادوفسكي من جديد:

لا حدود لدهشتي وفرحتي طوال قراءتي، أمس، لمحتويات المغلف يا شمس، لا حدود لها. كأنني كنت في حلم طويل أكتب تلك الأحداث بتفاصيلها وفصولها التي في الغالب كتبت نفسها أو كُتبت نيابة عني، كأنما لأستعيد الثقة بنفسي وأعود بروح جديد للكتابة والحياة. وإشراقة شمس بشاشتك اليوم، إفطارنا معًا، وصول المغلف، حبوري اللامتناهي؛ جميعها أحداث لا تُنسى يا شمس. لكنني برغم كُلِّ هذا الحُبور أريد التحدث إليك في أمر آخر يخصني.

أعرف أن الطبيب باح لك بقلقه على حالتي الصحية، لكنني لست قلقًا على الإطلاق، وبرغم إحساسي بأن أجلي يقترب -فأنا في الثالثة والستين-، لكنني أريدك ألاّ تجزعي مُطلقًا، وأن تتأكدي أنني لا أكترث للمسألة، فلكلِّ حياةٍ غاية تتبلور في دائرة تكتملُ رويدًا رويدًا. ويا ابنتي، يا ابنتي الغالية أشعر بقرب اكتمال الدائرة. مرضي استفحل ولن يُمهلني طويلاً، ولا أريد معاناة آلام الأيام

الأخيرة. أنا سعيد بما حققته في هذه الحياة، وهو كافٍ بالنسبة لي. لذلك لا تذرفي الدموع لأنني حيٌّ فيكِ، بعد اكتمال الدائرة الذي لا بد منه.

ثمة بؤرة، وثمة برزخ عبور، وثمة دائرة لا بد من اكتمالها في يوم من الأيام.

تفاحة التي سمحتُ لك بقراءة فصلها السرِّي ليست من صنيع الأصلع، بل شخصية حقيقية، وإن كان تجليها غائبًا. لذلك يا شمسي التي لم أستطع، طوال حياتي، أن أعبر لها عن مقدار حبي لها كما يفعل الآباء؛ أشعلي الشموع من أجلي ولا تذرفي الدموع في صباح كهذا الصباح الرائع، لأنني أشعر برغبة قوية في النسيان وبرغبة أقوى في تعبير متأخر عن حبي لك واهتمامي بك، على طريقتي الخاصة:

احتفال صغير. احتفال يُشعرني بالبهجة القصوى، تماما كما أشعر بظل قبَّعتي وهو يروّحُ عني طوال سنوات مرضي، تلك التي قضيتها في الطريق إلى برزخي الذي أرى أنني ماض إليه مستريح البال، شرط أن تتقبلي الحقيقة بروح الفنان وأريحيَّته، وألاّ تجعلي العاطفة تفسد يومنا الرائع بمحاولات إسكاتي عن تكرار الحديث المميت عن البؤرة والدائرة والبرزخ أملًا في أن أحيا أكثر مما يجب، لأن ذلك أمر مستحيل الحدوث مهما تمنيتُ أنا أو تمنته شمسُ حياتي. ولا تكوني، لا تكوني سوداويَّة المزاج كأخيكِ الصَّلت، أخيكِ الذي لم يتفهم القيَم الرُّوحية للتديُّن فأغلق على نفسه بَراحَ الدُّنيا استرضاءً لبَراح آخرةٍ لم تُطالبه نصوصُها المقدَّسة بالعزوف عن دُنياه في عِز شبابه.

لنحتفل، إذًا، وعلى طريقتي، وفق أسلوب بابا! ليس على طريقتي بالضبط، ولا كما تتمنين وأتمنى، بل كما سيرد في فصل أخير سترويه تفاحة بشيء من التحريف البسيط للوقائع التي كان مقدرًا لها أن تُروى على لسان الرَّاوية الذي روى حكاية بطلي في الفصل الأول.

صحيح أن صديقي الناقد ومحرر كتبي -الخامس كما سماه أبطالي في الرِّواية- تفاءل كثيرًا، وحاول المستحيل لشفائي من مرضي بمعجزة روائيَّة، ليعيدني إلى الحياة من جديد كي أستمر في الكتابة والحياة زمنًا طويلاً يليق بالنهايات السَّعيدة في الرِّوايات، لولا أن الدائرة شارفت على اكتمالها يا شمس. ولكن قبل احتفالنا، سننطلق بعد انتهائنا من الإفطار بسيارة أجرة وليس بسيارتي الكورولا القديمة. وفي طريقنا سنتوقف قرب أفضل محل للزهور في المدينة حيث ستشترين أنتِ لبابا باقة على ذوقك، لنواصل المسير إلى المصرف حيث أودعت مبلغًا من المال لغوائل الزمن، للدائرة قبل احتكامها يا شمس. وبعد ذلك سنحقق رغبة مشتركة. كل ما أطلبه منك في هذا الصباح الاستثنائي عدم مقاطعتي أو الاعتراض على مشاريعي مهما بدت غريبة وخارجة عن أي نسق سلوكي اعتدته مني. اعتبريه نسقًا سُلوكيًّا يحدث داخل الرِّواية، لا خارجها. وأنت قارئة روايات من الطراز الأول، أليس كذلك؟

دعيني أفعل ما أردت القيام به منذ زمن، ولا تنسي أن ما أفعله وأقوله سيوثق في الكتاب. وهو الشيء الوحيد الذي لا أستطيع تحريفه، ولا مجال لتغييره وفقًا لما سترويه تفاحة التي أستشعر وجود روحها هائمةً في هذه الحديقة تُسجِّلُ ما نقوله في هذا الصباح الرَّائع.

بعد أن باح لها بجزء من مخططه أجهشت شمس المرهفة بالبكاء، وهي تستمع إليه غير مصدقة أنها ستفقد أباها قريبًا، وقد حاولت إسكاته مرارًا لكنه كان هادئًا وفرحًا ومطمئنًا ولا يشعر بأدنى انزعاج من فكرة احتكام الدائرة. وحين قاطعته شمس عن إمكانات الطب ومعجزاته رد عليها بذات الهدوء الذي حاولت فهمه ولم تستطع، قائلاً لها إن الأمر لا علاقة له، من قريب أو من بعيد، بمعجزة طبية لعلاجه من مرضه، لأن الدائرة في طريقها للاكتمال، وعليه كما عليها تقبُّل الوضع بروح السُّمو، لذلك يفكر في هذه اللحظة -تابع قائلاً لشمس- في تعويضها بكثافة عن تلك الأوقات التي اضطر فيها للابتعاد عنها. وأن شغله الشاغل قبل اكتمال الدائرة ليس التفكير في الكتابة ولا إطالة التفكير في متوالية الحياة والموت، بل في شيء أهم بالنسبة إليه من كل ذلك في لحظته الراهنة:

احتفال صغير خاص بهما وحدهما.

لكن شمس الفنانة المرهفة، صعقت بفكرة الاحتفال في لحظة كتلك، تمامًا كما أدهشها تقبله بتلك السهولة السيالة في كلماته الضاحكة لمصيره الذي حسبت أنه في يد الأقدار، مهما بالغ الأطباء في تقاريرهم عن الحالات الشبيهة بحالته، راكِنةً في كل من وعيها ولاوعيها إلى إمكانية حدوث معجزة تبقي أباها على قيد الحياة أطول فترة ممكنة. لذلك لم تستطع البقاء أمامه بدموعها في الحديقة، ولم يستطع هو الآخر الاسترسال هادئًا في غبطته الصباحية المضمخة بحديثه المحايد -كمن وصل البرزخ، بالفعل- عن احتكام الدائرة.

أقصى ما استطاع فعله في تلك اللحظة إخراج منديل من جيبه ناولها إياه لتمسح به دموعها، مربِّتا على كتفها حين طلب إليها أن تغسل وجهها وتستريح في غرفتها قليلاً.

تركها نحو ساعتين استمع خلالهما لمقطوعة موسيقية أشعلت حماسته، مفكرًا في حل يخفف حالة حزنها بعد أن تستيقظ من غفوة خمن أن بكاءها سيقودها إليها. تخمينه كان تخمين من يقترب بالفعل من برزخه، فقد أنهكت شمس نفسها بالبكاء حتى نامت ولم تشعر بشيء سوى نقر أصابعه على باب غرفتها بعد ساعتين ونصف قضاها في المكتبة مستعيدًا شريطًا سينمائيًّا سبق له مشاهدته: أحداث الفصول كاملة من الفصل الأول حتى آخر فصول تنقيح مخطوطة روايته التي تناوبنا أنا والخامس روايتها.

* * *

استيقظت شمس وغسلت وجهها، وكانت في حالة معنوية أفضل.

شربا القهوة صامتين قبل أن تستدرجهما الذكريات معًا إلى استذكار وقائع طريفة من حياتهما جعلتهما يضحكان من جراء تداعيها السَّيال من غياهب ذاكرتهما، واقعة إثر واقعة، بكافة تفاصيلها المضحكة.

واحدة من تلك الذكريات التي استعادها صاد، عن قصد، واقعة شهيرة لا تُنسى: خسارته المُهينة في مزاد لبيع السيارات المستعملة قبل أحد عشر عامًا حين نافس على شراء سيارة خنفساء قديمة الطراز لم يستطع الحصول عليها بسبب منافسة مشترٍ آخر رفع ثمنها إلى مبلغ خيالي حصر صاد في مربَّع المُزايدة الأول، ليعودا

معًا إلى البيت بخفي حنين وحديث مستفيض عن خسارته لتلك الفولكسفاغن الأسطورية بشكلها العجيب وقرقعة محركها الخلفي وتاريخ صُنعها الذي كان صاد يحفظه عن ظهر قلب، كما كان يحفظ أشعار امرئ القيس ويانيس ريتسوس والمُتنبي ووالت ويتمان.

شمس كانت صغيرة آنذاك، لكنها تذكرت تلك الواقعة.

ضحكا كثيرًا واستدرجهما استرجاع الحكاية إلى ولع شمس الذي ورثته من تلك الحادثة بموديلات الخنفساء الجديدة التي ظهرت في الأسواق قبل سنوات، وتمنيها امتلاك واحدة من تلك السيارات واصطحابها إياه، في صباح ملحاح، إلى صالة العرض لمشاهدتها ومقارنتها بالموديل القديم برغم اختلافها عنه قلبًا وقالبًا بمحركها الذي انتقل من الخلف إلى الأمام.

وفي غمرة استذكارهما لتلك الوقائع التي أنستها واقعهما الصباحي الذي كانا فيه، اقترح عليها أن تحضر بعض الفاكهة والمزيد من قهوتها اللذيذة للاستمتاع بيومهما الاستثنائي بمرونة تقلبه وعجائبيته في حالات الحزن والفرح والفقد واللقاء واختزال الزمن وتكثيفه لا شعوريًا في تداعيهما الذي أخرج خزين حكاياته المستعادة شمس من حزنها على فداحة استسلامه لاكتمال الدائرة ولامبالاته، بل وتبريره لاكتمالها مُتقبِّلاً مصيره المحتوم، دون أن يُفرط صاد بخيط حديثهما -ريثما تعود بالقهوة والفاكهة- ليواصل الحديث بلوغًا به إلى بؤرته، مذكرًا إياها بتحسرها على الخنفساء التي ظهرت موديلاتها الأولى في الشوارع وتمنيها امتلاك واحدة من تلك السيارات، قائلاً لها:

هل تذكرين اليوم الذي اصطحبتني فيه للصالة التي كانوا

يعرضونها فيها، واكتفاءك بالتحديق إليها والتمعُّن في مزاياها وخصائصها؟ كنتِ راغبةً في واحدة بعد حيازتك لرخصة قيادة، بيد أنني لم أكن قادرًا على شرائها لك يومذاك، ولم تطلبي مني حتى مساعدتك بنصف ثمنها حين تطوعت أمك بدفع الباقي؛ لأنك لحظتها كنت تعرفين وتقدِّرين ظروفي المادية الصعبة التي كنت أمر بها كما كانت تمر، بحُلوها ومُرّها، تلك الأيام - حتى شغلتك، كلية الفنون عن حلم اقتناء الخنفساء. وهل تذكرين مدى إعجابك بفكرة القمع الزجاجي المُثبت قرب المقود؟ أم نسيتِ سؤالك لمدير المبيعات، يومها، عن فائدته حين بدا لك زائدًا ولا حاجة له؟ ليردَّ عليك:

«هذا ليس قمعًا زجاجيًا آنستي، بل هدية ڤولكسڤاغن لعشاق الخنفساء الجديدة The New Beetle. إنه مزهريَّة تستطيعين ملئها بنصف كوب من الماء، ثم تختارين زهرة من الطبيعة تضعينها فيها تعبيرًا عن الجَمال الذي تعاهدك الخنفساء، إن اشتريتها، أن يكون عادة من عاداتك اليومية ليس في المنزل والمكتب فحسب بل في سيارتك المميزة»!

هل تذكرين كيف سحرتكِ تلك الكلمات «المُعبرة عن فلسفة ڤولكسڤاغن وتفانيها في احترام أذواق عُشاقها» - كما اختتم مدير المبيعات جملته الترويجية تلك. جملته التي لم تكن في ذهنك سوى فكرة بسيطة حلمتِ بها زهرة زهرة في الكتالوغات التي عُدتِ بها إلى البيت تتأملين صُورها الصقيلة بافتتان، بل إنك رسمت تلك السيارة وأخرجت قمع المزهرية الموضوع إلى جانب المقود، أخرجته في رسمتك الحالمة ليكون موضعه فوق مرآة السائق الجانبية. وحين سألتك، يومها، عن السبب؟ قلتِ لي: حتى تسقط

الزهور يا بابا تلقائيًا فيه، حين نتجول بالسيارة المرسومة في شارع الزهور الذي رسمتِهِ أيضًا في تلك اللوحة.

اندهشت شمس من تذكر أبيها لتلك الحادثة التي هزت أوتارها، لأن ذاكرته المُتوقدة أشعرتها بحقيقة حبه الذي افتقدته فترة طلاقه لأمها من خلال تذكره لتفصيل قديم ظنت أنه لن ينشغل به، ولن يجد له مكانًا في ذاكرته المنشغلة بمشاريع كتابة ظنَّت، خطأً، أنها ربما أنسته وحيدته شمس، كما كان يدعوها.

اقتربت منه وقبَّلته في رأسه قائلة:

- معقولة يا بابا؟ تذكر كلّ تلك التفاصيل ولا تحكيها لي طوال ما مرَّ من سنوات؟

استثمر تلك اللحظة العاطفية باحتضانها، وابتسم قائلاً:

- التفاصيل تُنسى، لكنها تستعاد، بيد أنني لم أنس فكرة احتفالنا الصغير، فهل أنت موافقة؟

- أمرك بابا.

- سنمر أولاً بالبنك. وأنتِ ستنتظرين في سيارة الأجرة ريثما أجري معاملة مصرفية ثم سننطلق إلى محلات شيخ الزهور حيث سأنتظرك في السيارة ريثما تشترين لي منه باقة الزهور، كما اتفقنا. أما سرُّ احتفالنا فستعرفينه فيما بعد.

وافقت شمس على كافة مقترحاته. جلست صامتة في سيارة الأجرة. دخل البنك وحده، ثم انطلقا ليتوقفا عند محل بائع الزهور. هبطت شمس من التاكسي، واشترت باقة زهور أهدته إيَّاها. كان قد اتفق مع السائق أثناء شرائها لباقة الزهور على المكان الذي عليه إيصالهما إليه. وقبل الوصول بقليل قال لها:

فكرة احتفالي بسيطة جدًا.

ستشترين اليوم تلك الخنفساء التي طالما حلمتِ بها. ستشترينها وستضعين زهرة من الباقة التي اشتريتها لأبيكِ في مزهريَّتها الزجاجية، لكنك ستسمحين لبابا بشرطين لا بد له من تنفيذهما:

دفع ثمنها كاملًا، واختيار لونها.

كانت مفاجأة لم تتوقعها شمس، لأنها نسيت تمامًا فكرة شراء تلك السيارة قبل سنوات، وقبل أن تعرب له عن فرحها وتفهمها للشرطين، استطرد قائلًا قبل دخولهما صالة العرض:

أعرف أن موديلات نسختها الجديدة ذات ألوان جميلة تتراوح بين الأسود الفاحم والأبيض الناصع والأصفر الفاقع والأحمر القاني والأخضر الزيتوني، عفوًا أقصد الفستقي الذي لا أنسى مدى إعجابك به، كما هو إعجابك بكافة الأدوار التي قامت بأدائها ممثلتك المفضلة: جوليا روبرتس. لا أظنك تنسين دعوتك لي، ذات مرة، لمشاهدة فيلم «المكسيكي» الذي أغراك لمشاهدته أنه ليس من بطولتها فحسب، بل لأنها كانت تقود خنفساء جديدة لونها فستقي. لكن، ورغم إعجابك بجوليا روبرتس ولون خنفسائها الفستقي، ستكون سيارتك التي ستقودينها بعد قليل برتقالية اللون!

نعم. ستكون ذات لون برتقالي ساحر. إنه لون جديد دشنته الشركة المُصنعة مع إضمامة جديدة من الألوان لم أر سوى خنفسة واحدة تتبختر به قبل شهرين في شوارع مدينتنا. أشترط هذا الشرط الغريب برغم معرفتي أن الأصول تستوجب مني إهداءك السيارة وترك مسألة اختيار لونها لكِ أنتِ، لكنني هذه المرة سأكسر الأصول بآخر حماقات بابا التي تعرفينها: اختياري للون خنفسائك

الصغيرة. ولا تسأليني عن سر اختياري للون البرتقالي دون سواه، فهذا أمر ستعرفينه لاحقًا عندما تقرأين الكتاب كاملاً بعد طبعه ونشره.

حين وصلا صالة العرض وجدا خنفساء جديدة بلون فستقي، سرعان ما سارعت شمس لفتح بابها، والجلوس في مقعد القيادة. كانت هناك سيارات أخرى بألوان مُختلفة، ليس من ضمنها اللون البرتقالي. اقترب صاد من شمس التي كانت تتفحص السيارة، وقال لها:

- أنتِ من سيسألهم عن سيارة برتقالية اللون.

في قرارة نفسه كان مُتخوفًا من عدم وجود خنفساء برتقالية، لكنه تنفس الصُّعداء حين سألت شمس مسؤول المبيعات عن توافُر خنفساء برتقالية اللون، ليجيبها المسؤول بأن لديهم واحدة فقط بذلك اللون. قالت له دون تفكير: سأشتريها الآن. متى ستكون جاهزة؟

- بعد ساعة آنستي، فهم يغسلونها بقصد عرضها مساء اليوم.

ناولها صاد مغلف النقود وطلب منها إتمام إجراءات الشراء والتأمين ولوحة التسجيل، إلخ...

أُحضِرت السيارة بعد تجهيزها، وكانت خنفساء جديدة، وبرتقالية اللون مثلما تمنى صادوڤسكي وأراد.

* * *

ركبت شمس خلف المقود وركب هو إلى جانبها وانطلقا معًا في السيارة الحُلم. بعد انطلاقهما من صالة العرض، لاحظ صاد أن

شمسًا اتخذت مفرقًا يُؤدي إلى البيت، لكنه قال لها: استمري، استمري في القيادة. سننطلق في رحلة قصيرة حول المدينة، لنحتفل في مكان لن أفصح لك عنه الآن. انحرفت شمس بسيارتها البرتقالية نحو الطريق السريع، وضغطت دواسة البنزين حتى وصل مؤشر السرعة 80 كلم/ ساعة، لتتآلف مع خنفستها الجديدة، نحو خمسة كيلومترات حتى توقفت عند إشارة مرور، وحالما اخضرَّ ضوء الإشارة انطلقت من جديد، بثقة هذه المرة، لدرجة أنها زادت السرعة لتصل 100 كلم/ ساعة.

لحظتها قال صاد لشمس حياته:

أقصى ما أريده في هذه اللحظة هو تتويج احتفالنا الصغير -مذ أقنعتك بركوب التاكسي ومرورنا لشراء الزهور حتى اللحظة التي أنهينا فيها صفقة شراء الڤولكس-، هو أن أنسيك حزنك القديم، حين رغبتِ فيها ولم أتمكن من شرائها لك. أقصى ما أريده اليوم هو أن أراكِ فرحة بقيادة السيارة التي طالما حلمتِ بها. وأقصى ما أردتهُ -بعد تسلمك لمفاتيحها هو الجلوس إلى يمينك لأتمعن مليًّا في وجهكِ نضرًا بفرحة امتلاكها، كما في وجهي نضرًا، كما أراه في مرآة حاجب الشمس-، وتأمُّل زهرتك التي اخترتِها دون سواها من الباقة لترتوي من ماء مزهريتها قرب المِقود، لتظل نضرة أبدًا كما كانت في صور الكاتالوغ الذي احتفظتِ به منذ زيارتنا القديمة لمعرض الڤولكسڤاغن.

في شفق برتقالي كالذي سيهبط بلوحته السَّماوية على الأفق؛ يكون المرء بحاجة إلى النسيان كحاجته للتذكر، تمامًا كالطائرين - في لوحتك اللذين طالما ألهماني بطيرانهما المنخفض، بين قصة وأخرى- ليفترقا داخل اللوحة وخارجها، طائرين لا ينسى أحدهما

الآخر مهما افترقا، بل يتذكره رفرفةً وارفة في افتراقهما ولعبهما الدائمين في لوحتك الملأى بطائريها وسماء زرقاء وبرتقالة تجلس القرفصاء على كثيب رمليٍّ يتلاشى خارج إطار اللوحة التي أهديتني إياها لأعلقها في المكتبة بعد أن شاركتِ بها في مسابقة لم يكن من نصيبك الفوز بها، لأن الخيال المأزوم لمدرس الفنون التشكيلية استكثر عليك رسم برتقالة على كثيب يتلاشى خارج لوحة سماويَّة زرقاء؛ طائراها اللذان يلتقيان ويفترقان كما يحدث الآن، كما حدث في المستقبل، وكما سيحدث في الماضي.

عليَّ أن أعترف: لم يقل لها الفقرة الأخيرة بوضوح، والحقيقة التي ينبغي لي تأكيدها هي أنه لا يتذكر إن كان قالها لشمس أم أنه ظل يقولها في نفسه ولنفسه طوال الطريق. لكنني أتذكر تمامًا ولا أنسى إفاقته من إغماءة خفيفة انتابته بعد نوبة مفاجئة من الضحك، ليقفز بحيويته التي لم تفارقه منذ الصباح طالبًا من شمس زيادة السرعة بعد أن تراخت ضغطة قدمها على دواسة البنزين وهي تفكر فيه، في نفسها غير مصدقة أنهما معًا، وأنها تقود الخنفساء التي طالما حلمت بها، حتى انتبهت لصوته الخافت آمرًا بلطف:

أغلقي نوافذ البابين الأيسر والأيمن، وافتحي كوة السَّقف كي نرى السَّماء كما كانت أمس، كما ستكون غدًا في زرقتها الأبدية، لنرى شمسها وترانا حين تجد الوقت لسماع أغنيتنا، لا فرق بعينيها أم بأذنيها. إنها شمس الله، وهي قادرة بالتأكيد على رؤيتنا وسماع موسيقانا. دعينا نوثق اللحظة كما في شريط سينمائي من أجلنا فحسب، من أجل شمس وأبيها. زيدي السُّرعة قليلًا، زيديها.

دعيني أفرح بكِ، بالأزرق المائل كبرتقالة في حياة قصصي

القصيرة، بلذعة فلفل الموسيقا وهي تفكر في لوحتكِ التي لم تنل الجائزة، برغم أصالة ينبوع سمائها الزرقاء وبرتقالتها السّريالية وطائريها الحقيقيين كالحياة ذاتها، طائري لوحتك اللذين طالما ألهماني الفكرة تلو الفكرة، والجُملة تلو الجملة لأكتب قصصًا أفضل حتى في لحظات اليأس، فالطائر الأول ألهمني الفكرة الأولى حين طاب له الخروج من لوحتكِ للجلوس قربي في الحديقة، حين كنت أكتب مسودة الفصل الأول، والطائر الثاني آثر البقاء داخل اللوحة ليمتعني بحضوره حين كنتُ أرقن في المكتبة مسودتي على آلتي الكاتبة القديمة.

زيدي السرعة، زيديها قليلاً. ولا تخافي، لا تخافي على الخنفساء. فتفاحةُ المُغيَّبة ستحرسنا وستحرسها. تفاحة التي أكاد أراها من فتحة السَّقف مُرفرفة فوقنا. لا، لا تخافي على متانة «عربة الشعب» Volks Wagen هذه التي زحفت في طفولتها ومراهقتها بمُحركات خلفية هوائية التبريد، هذه التي طالما قرقع محركها الأسطوري العتيد في صحارى وسهوب حروب أربعينيات القرن العشرين؛ قبل أن تصبح السيارة المفضلة لجيل الستينيات الثائر والمتمرد في أوروبا والولايات المتحدة. وها هي اليوم، يا شمس شموسي، تبزُّ بموديلاتها الرَّاقية أحدث ما تنتجه مصانع السيارات الألمانية الفارهة مثل ديملر بِنز وبي. إم. دبليو، دون أن تستحي من اسمها الشعبي وتاريخ نضالاتها وشعارها العتيد VW تماهيًا رمزيًا في انتمائها اللامُتناهي مع الشعب، وليس النُّخبة التي أضحت تشتريها الآن وتباهي بها، دون أن تتذكر تاريخها المجيد، لأنها نخب طفيليَّة لا تعرف الأصول المُتواضعة لعربة الشعب هذه.

ولك مثال في الخنفساء الجديدة، هذه التي تقودينها الآن بكل

تجهيزاتها العصريَّة، بما في ذلك شِعارها المصنوع من الكروم اللماع على خلفية زرقاء تتلألأ في انحناءة المُقدمة والمُؤخرة، كما يدور حَرفاهُ الشهيران VW يمنة ويسرة في مقود القيادة، مثلما يدوران ويدوران أيضًا في مراكز عجلاتها الأربع حدَّ التماهي بينهما -كما يُنطق الحرفان في اللغة الألمانية-، لك مثال في هذه الخنفساء البرتقالية، لأنها بكامل رفاهها ليست سوى استثمار ذكي لنوستالجيا ملايين المُعجبين بالخنفساء القديمة ومحركها الخلفي الذي أضحى في المُقدمة.

قاطعت شمس استرساله الهذياني غير المعهود سائلة إيَّاه:

- لقد طُفنا في الطريق السريع فترة طويلة يا بابا، أخبرني إلى أين نحن ذاهبون بالتحديد؟

- لستِ صبورة بما يكفي يا ابنتي، لستِ صبورة. حسنًا نحن ذاهبان إلى مطعم السَّلاحف البحرية لنحتفل. وهناك، هناكِ سنشاهد غروب الشمس البرتقالي، وربما تراءت لنا تفاحة المُرفرفة فوقنا. ومن يدري؟ قد تتجسَّد أمامنا وقد تلتقي حبيبها المسمار. أما أنا فأفكر اليوم في السِّباحة، لديَّ إحساس غامض بأنني سألتقي شيخي وأراه وجهًا لوجه حين أغطس في الزرقة.

- من تقصد يا بابا؟

- تيودور دوستويفسكي طبعًا.

لم تعلِّق شمس على ما سمعته من هذيانه، وما لم تسمعه. رفعتْ صوت الموسيقا الكلاسيكية المُنبعث من إذاعة الـ FM المَحليَّة، واستمرت في القيادة حتى وصلت بهما الخنفساء مطعمهما المنشود في أطراف المدينة.

دخلا المطعم واختارا طاولة في الشرفة المفتوحة على زرقة الخليج المُضمخ بشمس برتقالية كبيرة.

تقدَّم منهما أحد النُّدل مُرحِّبا وفي يديه قائمتا الطعام والمشروبات.

علق صاد قائلاً لابنته:

- ما يُعجبني في هذا المطعم قائمة الأنبذة ومأكولاته البحرية وأسماكه التي تُقدَّم على أطباق بيضاوية الشكل تشبه الأسماك نفسها.

- مطعم رائع بابا، أول مرَّة آتي إليه.

- إنه أحد اكتشافاتي حين كنتُ أسرف في احتساء النبيذ وأتلذذ بالأسماك.

- لماذا لم نأت إليه معًا من قبل؟

- لأنك في تلك الفترة كنتِ تقيمين مع أمك.

- فرحت كثيرًا بانقطاعك عن التدخين منذ سنة، لكن هل ستسرف في احتساء النبيذ، كما كنتَ في أيامك الخوالي؟

- إطلاقًا، لكنني لن أتردد في احتساء كأسين أو ثلاثة.

- شكرًا بابا على الخنفساء، لقد فرحتُ بها كثيرًا.

- على الرَّحب والسَّعة يا شمس الشُّموس.

وصل عصير الليمون المُنعنع لشمس، وزجاجة نبيذ أبيض قُدمت في إناء الثلج الخاص بها لتبقى مُبرَّدة. تبادلا الأنخاب، في انتظار سمكة الهامور الطازجة وتشكيلة الرُّبيان والحبَّار والأخطبوط والسلطة الرُّوسية التي تعشقها شمس.

بعد إكماله لكأس نبيذه الأولى ترك الطاولة ومضى إلى

المرحاض مُصطحبًا حقيبته القماشية الصغيرة التي لا تفارقه. كان قد حسب لكل شيء حسابه؛ فقد أحضر معه منشفة صغيرة و«شورت» سباحة ارتداهُ في الحمَّام، ليعود إلى الطاولة لاحتساء كأس نبيذه الثانية في انتظار طعامهما الذي اختاراه.

جلسا صامِتين قبل أن تأتي سيدة المائدة كما ولدتها أمُّها؛ سمكة هامور مشويَّة على صحنها البيضاوي موشاة بالبقدونس والطماطم والبصل وطبق المأكولات البحرية والسلطة الروسية. تناولا طعامهما بتلذذ واستمتاع، وغاص صاد في حديث بينه وبين نفسه أفضِّل نقله على لسانه بصيغة أنا المُتكلم، لأن صاد لن يتوانى في الاشارة إليَّ في جُمل مُعترضة تقطع استرساله الشاعري، استرساله الصامت ظاهريًا أمام ابنته شمس.

* * *

ها أنا ذا مع ابنتي الفرحة حتمًا باحتفالنا الصغير هذا في مطعم السلاحف، كما أنا في غاية الفرح أيضًا لتمكني من تحقيق حُلم شراء الخنفساء البرتقالية لها قبل اكتمال الدائرة واقترابي من البرزخ. وكم هي عجيبة هذه السَّمكة المشوية. هذه التي فغرت فاها الذي ربما حاولت فتحه وإغلاقه لو كانت الحياة في متناولها قبل سقوطها في شبكة الصياد، لكن المغنم فاتها، ولن تجد فرصة للبكاء في صحنها البيضاوي، تابوتها الذي وهبتهُ بحضورها وهي ميتة بُعدًا جماليًّا يرمز لحياة آفلة، بينما تهبه نظرةُ عينيها بُعدًا جماليًّا يرمز لأحجية الموت.

ليستطرد صاد، مُحدِّثًا نفسه أثناء قيام شمس ودورانها في

الشرفة بسبب مكالمة هاتفية طويلة من إحدى صديقاتها، قائلاً لنفسه:

ليس مُهمًا أن أختلف مع نفسي حول دِقة المفهوم، ولكن لا بأس أن أدعي احتفاظي بالفكرة الخام لقصة قصيرة لن أتمكن حتمًا من كتابتها بينما أرفع الكأس من فم السَّمكة إلى فمي؛ فتلك تمريرة موفقة لكأس من فم ميِّت إلى فم من قد يموت بعد قليل، لأطلب منك يا شمس البريئة أن ترفعي كأس عصير الليمون المُنعنع في صحتنا معًا، في صِحَّتكِ إن كان لا بد من الهمس بما لا أستطيع قوله موتًا في حياة وحياة في موت يُحاولان التصاعد إلى برزخهما الحتمي، حين ينسى الزمن مجراه، حين يتذكره ويتناساه.

الزمن، وحده الزمن من سيمنحكِ الوقت للتمتع طويلاً بمفاجأة الخنفساء. الخنفساء الغافلة عنه في صلابة معدنها الغافل، هو الآخر، عن إناء الزهرة وشبَهه، وربما مطابقته لكأس نبيذي الذي شربته من فم هذه السمكة. كان عليَّ أن أشكركِ على لوحتك المُعلقة في المكتبة -لا شُكرَ الأب لشمسه-، بل لما هو أبعد من ذلك. لما هو مُذاب في الأثير بتأثير من روح الزهرة الفواحة في كأسها، الزهرة التي استشعَرَها معدنُ الخنفساء الصَّبيغ ببرتقالة حياته. وما لا تعرفينه، بالأحرى ما ستعرفينه لاحقًا هو أن تفاحة جلست معنا على هذه الطاولة، ومكَّنتني (في لحظة خاطفة) من رؤيتها، لكنها لم تشأ إفساد حفلتنا لتكون ثالثة أثافٍ غير مدعوَّةٍ أصلاً. لذلك أخفت نفسها بقدراتها الخارقة عنكِ وعن النُّدل -كما ستروي، كما ستروي على لساني- بمن فيهم النادل الذي يخدم طاولتنا، حين طلبتُ منه كأس نبيذ إضافية وضعها أمامك، اعتقادًا منه أنك ستشربين النبيذ، بيد أنني سأطلب منه

وضعه أمام مقعد بدا لكِ ولهُ فارغًا. وغالبًا لن تلاحظي أنتِ، كما لن يُلاحظ النادل ارتفاع كأس النبيذ وهو يعلو فوق الطاولة ليميل حتى يَشربَ منه فمٌ خفيٌّ، فم وهميٌّ غير منظور لجسد جالس على المقعد الثالث، جسد تفاحةِ ستغضب من إفسادي لمخططها السَّردي، حين سأفصحُ في هذه الصَّفحةِ، أن النادل الذي كان يخدم طاولتنا هو عشيقها المسمار! عشيقها الذي تقصَّدت التخفِّي عنه، هذه المرَّة، لاحترامها خصوصية احتفالنا الصغير هذا، لكنها لم تتخفَّ عني، فقد كانت تومض كالبرق في لحظات خاطفة، لأسمع حديثها الذي لا تسمعانه، لا أنتِ يا شمس ولا مسمارها الخجول.

كنتُ أفضل ظهورها العلني أمامي وأمامك في جلستنا، ليتحدثا بانسجام هي وعشيقها النادل. ولو كانت مقادير هذا الفصل بيدي لاخترتُ تزويجهما في مطعم السَّلاحف هي وعشيقها الذي شاكست الأصلع وحلمهُ من أجل اللقاء به، لكن الأمر ليس بيدي ولن أستطيع تغيير مجرى السَّرد وفق رغبتي، فقد فاتني الفوت. لذلك سأترك الطاولة الآن بحجة السِّباحة في الخليج، لأنه لا بد من حدوث ما لا بد من حدوثه حين ستمضي بي الخطوات نحو الساحل بعد أن قبَّلتكِ قبلة ستفهم مغزاها تفاحة التي سأبتسم لها في طريقي إلى زرقتي الأبديَّة في شفق برتقالي لا يُضاهيه سوى انعكاسه وتماهيه مع لون الخنفساء في اللحظة التي غطستُ فيها حُرًّا في زرقة لن أسلم من إغوائها الأخير لعبور البرزخ ولقاء الشيخ الذي طالما تمنيت رؤيته والحديث إليه، مُستريحًا لعدم الاستجابة لنداءات العودة التي لاحقتني بها تفاحة وأنا أسبح وأسبح، لأغوص وأطفو لاهيًا في اللحظات الأخيرة قبل الغرق، لأرى في تلك الومضة

الفاصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة في الأبدية ليس شريط حياتي الماضية، بل شريط وصولي العالم الآخر بمجرَّد عبوري البرزخ، لأخطو الخطوة الأولى بسلاسة غير متوقعة نحو مقر إقامتي في الأبديَّة.

وما حدث لي في تلك الفاصلة بين حياة وحياة أمر فريد لكنه - مع ذلك- يدعو للإطمئنان، فبعد إجراءات المُحاكمة المبدئيَّة، واستقراري النفسي وتكيُّفي مع حياتي الجديدة هناك بسرعة غير مُتوقعة، عرفتُ الأحياء المجاورة والغابات والأنهار، ورأيت الكثير من البشر المُتأبطين غلمانًا وحُوريَّات بضَّات، بيد أنني لم أكن شغولاً بمُفارقات حياتي الجديدة هناك؛ قدر اهتمامي بإمكانية لقائي بالشيخ في الحانة التي يرتادها الكُتاب والشعراء والفنانون الرَّاحلون عن الفانية، لذلك تجرَّأتُ سائلاً أحد الملائكة الظرفاء عن اسمها ومكانها فقال لي: ستجدها على بُعد فرسخ عند التقاء نهري الحليب والعسل، واسمها، كما لم أتوقع، كان من أسهل الأسماء:

- حانة الأبدية.

شكرته على الترحيب، وعلى معلوماته الطازجة، وانطلقتُ باحثًا عن بُغيتي مُفكرًا في الطريق أنني أخيرًا سأحظى بلقاء الشيخ، لأخبره بما حدث لي بعد مؤامرة أبطالي ومحاولة استحواذهم على عملي بطريقة ما كانت لتحدث حتى في روايته «المُقامرون».

ويا للحظ!

كان هناك، في تلك الحانة يجلس وحيدًا، كأنه في انتظاري.

ميَّزته بنحوله ولحيته الكثة فسلمتُ عليه، واستأذنته في الجلوس إلى طاولته فرحب بإيماءة دون أن يتكلم. ولن أستطرد، لن أستطرد

في كيفية تعريفي بنفسي، ولا الظروف التي أوصلتني إلى تلك الحانة، بسرعة البرق، قياسًا إلى الوقت الأرضي وساعاته الكسولة، لكنني لن أنسى في حضرته أن أذكر له سِرَّ إصراري وعنادي حين اخترت لون سيارة الخنفساء الجديدة. وهو بحكمته ورصانته ومهابته لن يفوِّت فرصة معاتبتي على تصرُّفي غير المهذب تجاه ابنتي التي أهديتها الخنفساء وأصررتُ على حماقة اختيار لونها، واختيار الرَّحيل غرَقًا لأتركها وحيدةً في مطعم السَّلاحف البحرية.

سيسألني الشيخ، بعد اطمئنانه وارتياحه النسبي لوصول أحد المعجبين به وبرواياته، عما آل إليه الحال في الدُّنيا، وبدوري سأخبره أن الزمن قد تغير بعد رحيله عن تلك الفانية، ولم تعد الأزمان اللاحقة حسنة التهذيب، كما أنها لم تعد بذات النبالة التي عهدها وسجَّلها في رواياته العظيمة. وربما، ربما تباسطتُ في الحديث معه لأكشف له عن المصائر التي آل إليها الأخوة كارامازوف -بعد رحيله في 1881- على يد طغمة من الناشرين والمترجمين الذين طفقوا يختصرون مجلدات روايته ويعبثون بها في أغلب اللغات الحية لتحقيق ربح مادي مضاعف لم يُنتج عدا نسخ مشوهة من روايته التي لم تسلم من التحريف والابتسار حتى في اللغة الروسية، قلعتها الأولى والأخيرة، بدعوى تقديمها ميسَّرة ومبسَّطة للفتيان.

وهو بدوره، سيرفع حاجبيه الكثيْن مندهشًا في الغالب، عندما أحسب له أرباح «**الأخوة كارامازوف**» بالكُوبيك (عملة رواياته الأثيرة)، دونما حاجة لمضاعفة أعشاره إلى الرّوبل الذي أضحت قيمته في بلده، بعد البيروسترويكا، أقل من عشر أعشار الكوبيكات مقابل كل دولار أميركي يربحه الناشرون من طبعات رواياته في

معظم اللغات، وهي ثروة تقدر بملايين الدولارات كلَّ عام، إذا ما ابتدأنا الحسبة من تاريخ وفاته فحسب.

سيصمت شيخي دوستويفسكي برهة أبدية، وسيقول لي بصوته العميق:

- ملايين الكُوبيكات؟

وبدوري سأصحِّح المعلومة له:

- على الإطلاق يا شيخنا، على الإطلاق. أتحدث عن ملايين الدولارات التي لو أفنيت أيامك هذه التي لا تفنى في الأبديّة، لو أفنيتها يومًا بعد آخر في محاولة عدِّها لما وصلت إلى الرقم الخرافي بالرّوبل، ناهيك عن فكّة الكُوبيكات التي ستحتاج إلى عمر إضافي لتعدَّها كوبيكًا إثر كوبيك.

سَيسْتفدح الأمر، وستجتاحه حالة مزدوجة من فرح الشيخ وأساه، ليقول لي ضاحكًا بعد برهة أقصر من الأولى:

- حقيقة لا أعرف من تكون، سوى تعريفك المقتضب لنفسك بأنك كاتب توفِّيَ مؤخرًا بعد تآمر أبطال عمله الرِّوائي، لكنني أحصيتُ الصفحات التي كتبتُها في رواياتي، ولم أستطع الوصول إلى تقدير ثروتي الخيالية التي تدّعيها. يبدو أن كلَّ شيء قد تغير يا بُنيّ، كلّ شيء لدرجة أن أبطال الرِّوايات صاروا ينقلبون على مؤلفيهم. غريب ما يحدث، ولا أستطيع فهمه. أما بالنسبة إلى هدفك من الجلوس إليّ واستشارتي في لون السيارة، فبرغم عتابي السابق لك لكنني أعتقد أنك ربما كنت مُحقًّا في اختيار سيارة خنفساء برتقالية اللون لابنتك شمس، وفق معايير زمانكم التي اختلفت عما كنت أعهده في زمني.

نعم. لقد سمعتُ من الوافدين الجُدد أنَّ كل شيء قد تغير هناك، وما سمعته عن روسيا وتقلباتها بعد الثورة البلشفية وما دُعي بعصر الپيروسترويكا، وتحكُّم المافيا في موسكو وبطرسبرغ أمر يُبكيني ولم أعد أفهم له سببًا حتى في شيخوختي الثانية هنا في الأبديَّة، لذلك لا أجد سببًا في الممانعة، إن كانت لديك أسباب كافية لا تُفقدك احترام وحيدتك بعد رحيلك عنها وعن حياتها التالية لرحيلك الفاجع بالنسبة إليها، رحيلك المُفرِح والمُؤنس لنا في هذه الأبدية، لا سيما أنك اجتزت البرزخ الصعب بسلام.

هكذا منحني الشيخ، بملء إرادته، صَكَّ اعترافه، مشرِّعًا لي حق اختيار لون سيارة ابنتي شمس، لا سيما أنه سمح لي أن أطلب له على حسابي كأسًا من الڤودكا لمواصلة الاستمتاع بمجالسته كي أخبره عن بطل روايتي الذي انقلب عليه زملاؤه الآخرون، لأسباب لم تستدع جريمة في الرِّواية ولن تستدعي عقابًا دوستويفسكيًّا على طريقة الشيخ التي تعلَّمناها وألهمتنا الكتابة.

ابتسم الشيخ مُسترخيًا في جلسته، وكان على وشك التعليق على ما قلته بعد ارتشافه جرعة صغيرة من كأس الڤودكا، لولا سماعنا ضحكة هائلة من الطرف الآخر لحانة الأبديَّة أطلقها إرنست هيمنغواي المُستغرق في حديث جانبي مع ڤرجينيا وولف عن تطويره لفنِّ الرِّواية، لا سيما في مأثرته **«العجوز والبحر»**، قبل أن يُحدِّثها عن سيرة حياتها التي كتبها في سِفْرٍ ضخم ابنُ شقيقتها كوينتين بيل، بعد أن شرب -كأنه في هاڤانا- رُبع مخزون حانة الأبديَّة (في صحة انتهاء الحرب العالمية الثانية وصحة المصادفة التي دبرها بالتأكيد

صديقه فيدل كاسترو ليلتقيها في تلك الحانة)، معترفًا أمامها بولعه بتنانير زوجته بولين ذات اللون البرتقالي، مضاعِفًا اعترافه الذي لم يبدُ فاحشًا أمام ڤرجينيا وولف، على تكتُّمها وتفضيلها العيش في غرفة منعزلة في الحديقة الإنكليزية لأبديتها البديلة - إلاّ عندما أسهب هيمنغواي في وصف زهور حديقتها الإنكليزية على أرض الواقع، ليلاحظ بعد فوات الأوان أن دوستويڤسكي الصامت والمنهمك في احتساء جرعات محسوبة من الكأس التي قدَّمتُها له؛ لم يكن منشغلاً بالغريب صادوڤسكي الذي اقتحم خلوته، بل كان مُصغيًا لما كان يدور بينهما من حديث، لاسيما بعد أن جلجلت ضحكة هيمنغواي الهائلة بعد مقارنته الفجَّة بين زهور حديقة وولف والزهور المرسومة على تنورةِ زوجته بولين، ليستدرك الأمر برمَّته حين أدار دفة الحديث كرُبَّان عاصفة ماهر تمخر ذاكرته مثل قوارب الصيد التي عهدها في هاڤانا وكِي ويست:

- عفوًا، عفوًا عزيزتي فرجينيا. يبدو أنني ثملت على غير العادة في حياتي الأبديَّة. في الحقيقة كنت أتحدث عن حديقة أخرى في الريف الإيطالي، حديقة ذات أزاهير برتقالية كانت تفترشها مؤخرة زوجتي الفاتنة -عفوًا أقصد زوجتي الثالثة- بُعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية. اعذريني على أخطاء البيرة، اعذريني. همم همم همم، ولكن كم هي لذيذة ودسمة هذه البيرة، كما كانت في حانات تلك الحياة. آهه هاهه. أين وصلنا؟ آه تذكَّرت، تذكَّرت. نعم عزيزتي، نعم هي حديقة إيطالية رائعة لم يمهل الزمن عجوزنا دوستويڤسكي كي يتطرق إليها في روايته **«الأخوة كارامازوف»** أو في **«الجريمة والعِقاب»**؛ بسبب انشغاله طوال حياته الفانية بهواية تجويع أطفاله والبحث عن نوادي القمار ليخسر فيها

آخر رويل كسبته آخر زوجاته. نعم، آخر زوجاته وليس آخر رواياته. ها ها ها...

كانت زلة لسان، إذ لم يعد هيمنغواي رُبَّانًا أو صيَّادًا ماهرًا، كما كان عليه الحال في «**العجوز والبحر**» بسبب الصَّدمات الكهربائية التي تعرَّض لها في محاولة لعلاجه من مرض الهوس الاكتئابي، قبل ظهور أملاح الليثيوم التي استعيض بها فيما بعد لعلاج ذلك المرض. وعليه، لم يكن غريبًا أن يكون ردُّ رُواد حانة الأبديَّة على ما تفوَّه به صمتًا مطبقًا. لكنه استرسل في طلاقة أبديّة ليكسر الصمت الذي اشتهر به في فترات اكتئابه الأرضي حين كان ينزوي في بيته ولا يرد على الهاتف، حتى لو كان المُتحدث رئيس الولايات المتحدة جون كيندي أو صديقه فيدل كاسترو:

- عزيزتي ڤرجينيا. لقد انتحرتُ لأسباب مختلفة جذريًا عما روَّجهُ نقاد المرحلة اللاحقة لحادثة انتحاري من ربط في غير محله بين تلك الحادثة وحادثة انتحار ياسوناري كواباتا الذي أسبغوا على انتحاره الرَّكيك أخلاقيًا وأدبيًا صفة الشجاعة، برغم أن ابن العاهرة الياباني ذاك لم يفعل شيئًا جديرًا بالذكر في أدبيات الانتحار العظمى عدا محاولة تحديثه الفجِّ لتقاليد الانتحار في اليابان؛ عندما فتح صنبور الغاز لينام كالرضيع استباقًا لسبق صحفي مفاده أن السيد ياسوناري كواباتا -الحائز مثلي جائزة نوبل- قد انتحر دون أن يترك وصيّة! ها ها ها... ويا.. ياله من مزلق صحفيٍّ عاثر لا يُفرِّق مُروِّجوه بين من يفتح صنبور الغاز في غرفة مغلقة ليموت مستسلمًا لتأثير الغاز بعد نومه دون أن يواجه فداحة الموت حقًّا، وبين من يُواجهه بوضع بندقية صيد من ذات الماسورتين في فمه لينفجر رأسه

مثلما فعل بشجاعة هذا المحارب الجالس إلى جانبك، إرنست هيمنغواي، وكما فعل مواطنه وتلميذه يوكيو ميشيما الذي بقر بطنه كأي محارب ساموراي بالسَّيف على طريقة الهاراكيري.

قال عبارته تلك، ثم أدار رأسهُ إلى طاولتنا مُحدِّثا شيخيَ الصّامت:

- أليس كذلك يا تيودور دوستويفسكي؟ يا سيد المقامرين؟ ألم أنتحر بشجاعة وبشرف؟ ولأسباب مختلفة تمامًا عن تلك التي روّجتها FBI حول خيانتي للولايات المتحدة وصداقتي لفيدل كاسترو، وفق تقارير سرية كاذبة من قرينتها الـ CIA التي -كما هي عادة أغبيائها ومعتوهيها- لم تتنبأ بالهجوم على بيرل هاربُر بسبب غباء ذكائها المركزي، كما لم تعرف شيئًا عن حقيقة الكاميكازي وميكانيزمِهم، ناهيك عن معرفتهم -عزيزتي ڤرجينيا- أو عدم معرفتهم بالسيد كواباتا الذي مجَّد اسمَهُ، كما تناهى إلى مسامعي، في اللغة العربية كاتب يُدعى رشيد الضعيف، في رواية لم أفهم سبب عنونته لها بـ«**عزيزي السيد كواباتا**»، برغم أنه كتب فيما بعد -واسمعوا هذه الفكاهة- رواية بالعربية الفصيحة عنوانها: «**ليرنينغ إنجليش**». ها ها ها، ها ها هاي.. اضحكي وقهقهي، قهقهي على ما كان يحدث في تلك الفانية عزيزتي المُنتحرة في النهر بشجاعة رومانسية افتقدناها بعد العصر الڤيكتوري.

قال جملته الأخيرة بعد أن أدار وجهه عن طاولتنا، مُحدثًا جليسته ڤرجينيا وولف الصَّامتة خجلاً.

فاض الكيل بجُلاس الحانة، فانبرى عبدالرحمن منيف، بعد

انسحاب ڤرجينيا وولف من طاولة هيمنغواي بحجة مُجالسة فرانز كافكا المُنزوي بعيدًا، للدفاع عن كل من رشيد الضعيف وياسوناري كواباتا بكل اقتصاد لغوي متاح لإسكات صاحب «العجوز والبحر» عن ميله الواضح للثرثرة بعد أن شرب أكثر مما يجب في حانة الأبديَّة:

سيد هيمنغواي؛ الحق يُقال في مواضعه؛ هذا موضوع لا علاقة لكلٌ من الاف. بي. آي والسّي. آي. إيه به، وستعذرني إن اضطررت للقول، آسفًا، إنك لم تقنع بالمجد الذي نلته في حياتك، ويبدو أنك تستلذ بإعادة إنتاج أسطورتك الأرضية، ولا تستحي من ترويجها حتى هنا حيث جميع الأوراق مكشوفة ومُعرَّاة. لن أجادلك حول رشيد الضعيف وتحفته «**عزيزي السيد كواباتا**» إن كانت تحفة بالفعل، ولا ياسوناري كواباتا؛ لأنه أشد ضعفًا من الضعيف. لكنني سأسترعي انتباهك -إن كنت قادرًا على التركيز- إلى غابرييل غارسيا ماركيز، أشهر روائيِّي عصره ليس في أميركا الجنوبية وحدها، بل في كل مكان على اليابسة التي عشنا على سنامها ذات مرّة، لأنه مثلكما أنت وكواباتا، حائزٌ جائزة نوبل، كما أنه مثلك تمامًا، صديق شخصي لفيدل كاسترو الذي يبدو أنه لا يُريد الرَّحيل ليُمتعنا بخطبه وصناديق سيجاره الفاخر. أما لماذا أسترعي انتباهك إليه، دون سواه من الكتاب الأرضيِّين، فلأنه كان شجاعًا بما فيه الكفاية، حين لم يستنكف من فكرة كتابة رواية تماهى فيها مع كواباتا ليستعيد روحه وينغمس كقطعة سكَّر في الأسلوب الذي ميَّز كواباتا، برغم أنه من كولومبيا وكواباتا من اليابان، فضلاً عن كونهما معًا ينتميان إلى زمنين وحقلين روائيين مختلفين تمامًا كاختلاف زمنهما الواقعي الذي كتبا تحت وطأة

ظروفه ما اشتهرا به من قصص قصيرة وروايات حظيت -كما حظيت أنت سيد هيمنغواي- بنيل جائزة نوبل.

وليتك أصغيت في حياتك وبعد مماتك لواحد ممن حازوا تلك الجائزة في السنوات الأخيرة؛ هارولد بنتر الذي سينضم إلينا قريبًا؛ لا لأنه سينتحر مثلك -لا سمح الله- بل لأنه مُسِنٌّ ومصاب بالسرطان، وبرغم ذلك لم يُعر أمر الجائزة أهمية تُذكر، فقد صرّح قائلاً للصحافة إثر نيله جائزة العجوز ألفريد نوبل: «عندما كنتُ فاشلاً لم أكن فاشلاً في نظر نفسي، وعندما أصبحت ناجحًا، لم أصبح مجنون نجاح».

ارتاح رُوّاد حانة الأبديَّة لصفعة منيف الباردة لثرثرة هيمنغواي السّكران، وكانت مناسبة لا تفوَّت لاستثمار مداخلته الرّصينة بدعابة من يوسف إدريس الذي هَبَّ واقفًا ليهمز من قناة هيمنغواي على طريقته: «لو ندمَتْ الأكاديمية السّويدية على تفويت منحي الجائزة عندما كنت حيًّا أرزق، وقرَّرتْ الاعتراف بندمها متأخرة، وأرسلتها مع مندوب خاص لتسليمي إياها بتواضع في هذه الحانة أو في احتفال رسمي يحضره الله شخصيًّا في قاعة العرش الرَّباني، فإنني أبصم بالعشرة أن هيمنغواي سيكون أول المُعترضين على قرارها المُتخذ بأثر رجعي لصالح يوسف إدريس».

كانت دعابة إدريسيَّة لاذعة، باطنها استياؤه من نيل مواطنه نجيب محفوظ لها، أكثر من تعريضها الظاهري بإرنست هيمنغواي. لكنها دعابة، على علات مقاصدها، لم تلفت انتباه رابندرانات طاغور الذي كان يتحدَّث في طاولة قصيَّة عن وحدة الوجود لثلاثة شعراء كتب عنهم في مؤلَّفِهِ «ديانة الشاعر»: ووردزوورث، شيلِّي وكيتس، مُقتبسًا من كتابه فقرةً لا تصفُ طبيعة بلاد البنغال، بل

وحدة الوجود وبهجتها المُتجلية: «أذكر أنَّ صفًّا من أشجار جوز الهند يمتدُّ على طول حائط حديقتنا مع الأغصان التي تبدو وكأنها تومئ للشمس المرتفعة عند الأفق، كان يعطيني عندما كنتُ صغيرًا، الشعورَ برفقةٍ حيَّة تُساوي نفسي ذاتَها حياة. وإني لأعرف أن مخيلتي هي التي كانت تنقل العالمَ المُجاور إلى عالمي الخاص - هذه المُخيلة التي تبحثُ عن الوَحدة والتي تتصلُ معها»، ليستكمل بطرافةٍ: وها نحن القادمين من عوالم، ديانات وأزمنة مُختلفة، ها نحن أولاء نجلسُ الآن في وحدة حانة الأبدية هذه!

بيد أنَّ دعابة يوسف إدريس استدرجت برنارد شو الجالس مع إدريس ليزيح الغليون عن لحيته الكثة، مُستعيدًا بعد صمت رواد الحانة وارتشافهم لجرعات من كؤوسهم، واحدةً من أفضل مقولاته التي قالها جالسًا، دون أن يكلف نفسه عناء الوقوف كما فعل إدريس: «لو غفرنا لألفرد نوبل اختراعه للديناميت، فإننا قطعًا لن نغفر له اختراع الجائزة». وكلتاهما دُعابة أضحكت جميع من كانوا في الحانة، برغم نهوض هيمنغواي من مقعده كي يذهب إلى المرحاض بحجة تخليص مثانته من أقداح البيرة الطافحة. لكن الدُّعابتين لم تمنعا إيتالو كالڤينو من التربُّص بهيمنغواي -عودة بالحديث إلى حيث انتهى مع منيف- مُستعينًا بقصاصة من الملحق الثقافي الأسبوعي لصحيفة الحقيقة الأبديَّة *Eternal Truth* تعمَّد قراءة فقرة طويلة مما ورد فيها بصوت مسموع، إثر عودة هيمنغواي من المرحاض:

«أطرف ما نُشر مؤخرًا من تصريحات الرِّوائي الكولومبي غارسيا ماركيز بعد صدور مذكراته، هو اعترافه بمدى رغبته في أن يكون كاتبًا يابانيًا على شاكلة كواباتا، حين أفصح عن تمنيه لو أنه

كتب رواية كواباتا: «**بيت الجميلات النائمات**» التي تحكي عن منزل في ضواحي طوكيو، يتردد عليه مجموعة من الأغنياء الشيوخ للتمتع بالشكل الأكثر نقاء للحُب: قضاء الليل بكامله مع عذراوات نائمات بفعل مخدر دون السماح لهم بلمسهنّ، لأن الاكتفاء الأكثر تقشفًا وصفاء أمام المتعة المتولدة عن بصيرة الشيخوخة وبلوغها هرم العجز الجنسي، هو إمكانية الحلم إلى جانبهن بحريّة لم تمنحها لهم أيام شبابهم. وهو ما فعله ماركيز في مقالة طوّرها لاحقًا لتكون قصة قصيرة بعنوان «**طائرة الحسناء النائمة**» تأكيدًا لتقديره الجَمّ لكواباتا. وهي قصة -كما وردت بصيغتيها، في القصّة والمقال- مقتبسة من حادثة حقيقية حدثت لماركيز المسافر على متن طائرة في الدرجة الأولى من باريس إلى مكسيكوسيتي عبر نيويورك، حين وجد نفسه في المقعد الوثير على بعد سنتيمترات من فتاة يابانية فاتنة في الثانية والعشرين تقريبًا من عمرها، لم تلبث أن نامت طوال الساعات التي تستغرقها الرحلة فوق الأطلنطي، وهو ما جعله يُمضي رحلته تلك في توقفه عن التدخين وتناول أطايب مشروبات ومأكولات الدرجة الأولى، مدققًا في تفاصيل جسدها، كما لو كان شيخًا من شيوخ كواباتا في «بيت الجميلات النائمات»، عدا أنه بيت لم تنم فيه بالطبع تلك المسافرة اليابانية المرفَّهَة، ليتذكَّر قبيل الهبوط في نيويورك، أنه كان مُخدَّرا طوال الساعات الثماني التي قضاها صحبة الجميلة اليابانية النائمة في الطائرة، لأنه عندما استلم بطاقة النزول عبّأها سارحًا دون نية مسبقة في خداع سلطات المطار.

- المهنة: كاتب ياباني.
- العمر: 92

ولم يَدْرِ يومها أنه سيكتب، بعد تلك الحادثة، رواية «**ذكريات**

عاهراتي الحزينات» عن عجوز يريد إحياء ليلة عيد ميلاده التسعين مع مراهقة يضاجعها، خلافًا لشيوخ كواباتا الذين يكتفون بالنظر إلى جميلاتهم النائمات والمخدَّرات».

هيمنغواي امتعض من سخرية إيتالو كالڤينو الذي تعمّد قراءة تلك الفقرة، ولم يجد ما يعلق به سوى اختلاق دعابة كانت فاشلة قبل إطلاقها: إن كنت تحب هذا الوغد ماركيز كما أَحَبَّ هو كواباتا فلماذا لا تتفرغ لنشر طبعة أبديَّة منقحة من «مدن لامرئية» ليكون ماركيز وكواباتا بطلين عوضًا عن ماركو بولو وقبلاي خان، كما في الطبعات الأرضية، لينهي دعابته الفاشلة بقهقهته الصاخبة: ها ها ها...

لكنه استدرك تسرُّعه في الرَّد، ليبرِّر دعابته التي لم يستحملها الحاضرون:

- يا لهذا العالَم الوغد! حتى في الأبدية يسرقون المقالات. هذه مقالة مسروقة بالكامل من مقالة أرضيَّة سبق نشرها في صحيفة «البايِّيس» الاسبانية، التي لم تجد بعد رحيلي من تمجُّده سوى هذا الماركيز اللاتيني الموتور. يالسخافتك يا كالڤينو، ويالسخافة جيرانك الإسبان الذين شاركتُ في حربهم، ودافعتُ عن حُريَّتهم في روايتي «وغدًا تشرق الشمس». طُز فيكم جميعًا. أعرفكم واحدًا واحدًا، وأعرف حقدكم الأرضي الذي جلبتموه معكم، ولم يفلح حتى حُرَّاسُ البرزخ في تطهيركم منه. يبدو أن الله ما زال يشخر كعادته في قيلولاته الأبدية، ولا يعرف أن السِّي. آي. إيه تعملقت ودسَّت عُملاءها بين حُرَّاس البرزخ.

بيرة أخرى أيها النادل، بيرة باردة وعلبة مارلبورو.

آخر ما ورد في جملته أضحك بعض جُلاس الحانة، لكنهم لم يكملوا ضحكاتهم خوفًا من استمرار هيمنغواي في ثرثرة السِّكير. وبدوره لم يكلف إيتالو كالڤينو نفسه عناء الرد عليه لذات الأسباب، ولانشغال عينيه الإيطاليَّتين بملاحظة تبدل ملامح جيمس جويس خلف عُويناته المُستديرة وهو يرتشف بهدوء بيرته الإيرلندية السَّوداء؛ تلكَ التي حيَّرتني مقدرة أهالي دبلن على توفيرها له في ذلك الصقع المُتعالي، لأن ملامح قسوة جويس تحولت إلى ابتسامة إعجاب لتعاطي كالڤينو مع هيمنغواي -لا كإيطاليّ، بل كإنكليزي مُتخابث- عندما قرأ مقتطفًا من ذلك المقال، ليعود صاحب «عوليس» بعد إعجابه الخاطف ذاك إلى عُبوسه امتعاضًا، هذه المرة، من كُمود تعابير صموئيل بيكيت الصَّموت، برغم الغمزة الخفيَّة التي أرسلها جويس حثًّا لتقريظ «الدَّبلنيُّون»، لكن بيكيت تجاهل تلك الغمزة التي لا يعرفها سوى الإيرلنديين، ليقطِّب حاجبيه كي يبدو بؤبؤاه وحِدَّة تقاطيع وجهه تلك اللحظة شبيهة ومطابقة لصُوره الملتقطة له في حياته، كأنما ليضاعف حقولَ بُخله تحسبًا من التفريط بجُملة في تقريظ مُعلِّمه جويس أو التمادي في الرد بابتسامة تعاطف -لو رسمها- لن تخفى على تعامي خ. ل. بورخيس المقصود عن غمزة جويس لتلميذه بيكيت، تمامًا كما لم يكترث لعماه بعد اكتمال الدائرة في الأبديَّة، معتبرًا أن العمى والدوائر المُتناسلة في هيولاه الرمادية أقرب إلى سلسلة لا متناهية من نسخة أرجنتينية لكتاب «ألف ليلة وليلة» لم تمنحه الفرصة التي توجَّب عليه اقتناصها لترديد ادعائه الأبدي:

«لستُ كاتبًا، بل مجرد قارئ وأمين للمكتبة الوطنية في بوينس آيريس يحاول أن يعيد كتابة ما كتبه الأوَّلون، دونما نجاح يُذكر».

بيد أنها فكاهة بورخيسية خالصة لن يُصدقها أولئك الذين يحفظون عن ظهر قلب ردَّه السَّاخر حين سئل عن عدم نيله الجائزة الشهيرة، برغم استحقاقه لها: «لا يجب أن يحدث ذلك، فلو منحوني إياها فإنني سأتحول إلى رقم إضافي فقط، وفي حالة لم يمنحوني إيَّاها فإنني سأتحول إلى خرافة إسكندنافية».

وهو ردٌّ لاذع وغير مباشر على هيمنغواي، لم ينطق به بورخيس لكن صداه تردد في ذاكرة هواء حانة الأبديَّة المعتق، ليصل دون عناء إلى الرُّكن الذي كان يجلس عليه بمعيَّتي في ركنه القصيّ صاحبُ القدرة الفذة على تصوير النفس الإنسانية في أوضاعها المختلفة عبر كل زمان ومكان، شيخي دوستويفسكي الذي رحَّب بنيكوس كازنتزاكيس (فهما أرثوذكسيَّان عتيدان) بعد إيماءة للشيخ بأنه سينضم إلينا، ريثما يُحيِّي بورخيس ويُقبِّل جبهته مانعًا إياه من محاولة البحث عن عصاه ليقف احترامًا وتقديراً له.

لم يطل حديث كازنتزاكيس مع بورخيس أكثر من خمس دقائق، ويبدو أنه استأذنه لينضم إلى طاولتنا مع نسخة من تقريره الشهير أهداها لشيخي، معتذرًا عن عدم توافر نسخة أخرى ليهديها إليّ، لكنني شكرته على مبادرته وأخبرته أنني، في الحقيقة، قرأت «تقرير إلى غريكو» منذ زمن بعيد بترجمة ممدوح عدوان الذي أتى، هو الآخر، مُتأخرًا للحانة وانضمَّ لطاولة عبدالرحمن منيف، ليستمتعا بعَرَقِ الضيعَة الذي جاء به عدوان من خابيته.

وبرغم انشغال دوستويفسكي بتقليب نسخته الخاصة من التقرير والحديث إلى مؤلفه كازنتزاكيس، إلاّ أنه لم يتوقف -كما خمنتُ من ملامحه- عن محاولة تفسير الأسباب الكامنة وراء حماقة اختياري للون البرتقالي دون أن أعطي الفرصة لابنتي شمس كي

تختار لون خنفسائها الجديدة، ناهيك عن إشفاقه عليّ ببركة بدت أقرب إلى شيخ دين، منها إلى مُباركة كاتب، متعللاً -وهو يمنحني شعاعه الأورثوذكسي الخافت- بجهله المطبق بالقيم التي سادت في المجتمعات الأرضية بعد رحيله في نهايات القرن التاسع عشر. وهي فترة زمنية حَسِبها الشيخ كافية لإيهامي بتصديق جهله المطبق الذي يدعيه أمام كاتب مجهول مثلي؛ أتاحت له ديموقراطية الأبديَّة أن يقتحم خلوته الجليلة لمجالسته، قبل أن ينضم إلينا في اللحظات الأخيرة مواطنه أندريه تاركوڤسكي ليتعانقا هو والشيخ، مُتحدثين بحرارة لغة روسيَّة لم أفهم منها شيئًا.

حيَّانا تاركوڤسكي بعد ذلك كالذاهل، وجلس على مقعد تناولته من الطاولة المجاورة، وقال بالإنكليزية لنيكوس كازنتزاكيس، بعد أن شكرني على مبادرة تقديم كرسيّ إضافي له:

- عفوًا لحديثي باللغة الروسية، لكنني كنت أؤكد لشيخنا أسفي لعدم تمكُّني طوال حياتي الفانية من تجسيد إحدى رواياته وفق رؤيتي السينمائية، وأعدت على مسامعه رأيًا سبق لي أن قلته حول اكتشاف دوستويڤسكي السبّاق للهاويات السحيقة في أعماقه، تلك التي رأى فيها القديسين والأشرار على حد سواء، أولئك الذين لم يكن أي واحد منهم يمثله هو نفسه. لقد كان كل واحد من أبطال رواياته خلاصة لانطباعاته وتأملاته، وليس أبداً تجسيداً لشخصيته. ولكن، للأسف، لم يمهلني الزمن لتجسيد ذلك في تحفة سينمائية خالدة. عفوًا، لا أتحدث عما نحن فيه وعليه في هذه الأبديَّة، بل عن المصطلح الأرضي الشائع لمفهوم الخلود.

كان تاركوڤسكي في مزاج جيد على غير عاداته الموسكوڤية. وبرغم أن معمعة هيمنغواي والردود التي أثارتها قد فاتته بسبب

حضوره متأخرًا مثل ممدوح عدوان، إلاّ أنه واصل حديثه عن السينما وعما تعنيه بالنسبة إليه:

لا يهمني أسلوب التصوير، وإنما طريقة بناء الحياة وخلقها، وسأفصح لكم عن حادثة حقيقية؛ فذات مرة قمت بتسجيل حديث عابر على مسجل صغير. كان الناس يتحدثون دون أن يعرف أحد منهم أن حديثهم يُسجل. فيما بعد، استمعت إلى ذلك الحديث وقلت في نفسي إنه «مؤدى» بشكل عبقري، ثمة منطق ملموس تخضع له الشخصيات والعواطف وكيف كانت تعلو أصواتهم فجأة، ناهيك عن لحظات الصمت التي لم يكن ستانسلافسكي قادرًا على تبريرها، في حين يبدو أسلوب هيمنغواي متكلفًا عند مقارنته بأسلوب بناء الحوار في ذلك الحديث العابر الذي سجلته.

قلت له بعد أن انتهى من حديثه وهو يرتشف جرعة من كأس الفودكا التي كانت أمامه: ولكنك فعلت ما هو أهم يا تاركوفسكي في كتابك «النحت في الزمن»، فضلاً عما قدمته في تُحَفك السينمائية الخالدة.

همهم كازانتزاكيس موافقًا، وكاد أن يُدلي بتعليق خِلْتُ أنه سيعود بنا مرة أخرى إلى هيمنغواي، لولا انشغاله وانشغالنا جميعًا باستراق النظر إلى الباب الخلفي للحانة بسبب الدخول المفاجئ لجان جينيه من ذلك الباب ببنطلون جينز مُتسخ، طالبًا لنفسه خبزًا محمصًا وكافيارًا طازجًا وزجاجة ماء معدني -فهو لا يشرب الكحول- وكأسًا مزدوجة من البوربون لرفيقه الحزين لوتريامون. وهو حدث نادر، كما بدا لي في تلك الحانة حدا بالجميع لإصاخة السمع اتفاقًا -على تقديسٍ لا يمكن تجاهله في حضور سارتر

المُتثائب أمام زجاجة نبيذ بالكاد تفصله عن سيمون دي بوفوار- اتفاقًا بالتأكيد، واختلافًا على مشارب قهقهات السُّخرية التي كانت على وشك الانطلاق من أفواه بعض الجُلاس، لولا أن جان جينيه كان حاضر البديهة وعارفًا أصول اللعبة، كما كان في الحياة، حين فاجأ توقعاتهم بأنه لم يعد مُعدمًا كما حدسوا في «**يوميات لصّ**»، وكان دليله دامغًا حتى في حانة الأبديَّة؛ لأنه كان يدفع بسخاء مفرط، دون تفويت وضع بخشيش مُحترم للنادل من عائدات كتبه التي واظبت دار «غاليمار» على إرسالها إلى حسابه في بنك الأبديَّة النَّاعم *Eternity Soft Bank* مثلما كانت ترسلها قبل وفاته من باريس إلى البنك الشعبي في طنجة.

* * *

في ذلك الغروب الاستثنائي في محفل الحياة والموت، البرزخ والدائرة، اكتمالها أو عدم اكتمالها لسبب أو لآخر؛ فإن مسماري الخجول هو من انتبه، في ذلك الغروب الاستثنائي، لابتعاد صادوفسكي عن الساحل. وهو من شاهد آخر تلويحة أظهرتها يد صاد الغريق، ليخلع بزة النادل ويقفز إلى البحر سباحةً لمُحاولة إنقاذ صاد، ليعود به غريقًا لا يتنفس بعد توقف قلبه عن النبض، لكنه فعل المُستحيل لإعادة الحياة إليه بإسعافه عن طريق تناوب الضغط أسفل الرئتين ونفخ الهواء في رئتيه، فقد كان مسماري الخجول يُتقن عملية الاسعاف لحُسن الحظ، وقد أفلح، بمساعدة النُّدل الآخرين في إيقاف جسد صاد بالمقلوب لتلفظ رئتاه المياه، ثم تمديده وتناوب الضغط أسفل الرئتين ونفخ هواء الحياة بقبل متكرِّرة في فمه، حتى بدأ صاد يتنفس بصعوبة في البداية،

لتعود إليه الرُّوح، من جديد، بعد ثلاث عشرة دقيقة ونصف الدقيقة.

الرُّوح التي لم يتمنَّ صادوفسكي عودتها بعد مشقة غرقه المُتعمَّد، ولذاذة لقائه بشيخه في الأبدية.

هكذا عاد إلى برزخٍ أرضيٍّ بين حياتين.

حين أفاق، وانتظم تنفُّسه كان يُحدث نفسه -مُعتقدًا أنه يتحدث إلى ابنته شمس- بعد عودته السَّريعة من العالم الآخر قائلًا: للرُّواة نزواتهم، وعلينا تقبلها بفكاهة حريرية كما علينا انتقادها بغلظة، لو دعت الصرامة ذلك. وإن كان لا بد من استحضار مثال فاقع؛ مثال يدين استرسال تفاحة؛ فهو روايتها -وعلى لساني- ثرثرة كاتب مثل إرنست هيمنغواي أقدره وأحترمه كثيرًا، شاء حظه العاثر أن يكون حاضرًا لحظة لقائي بالشيخ، وثملًا أكثر مما ينبغي، ويتفوَّه بما لا يُرضيني ولا يرضيه، لكن الأمر خارج عن إرادتي بالطبع، فتفاحة هي من يروي أحداث هذا الفصل!

لن أطيل على القارئ، ولا يهمني في أي مستوى -افتراضي أو واقعي- يضع نفسه فيه؛ إن كان مُجازفًا وآثر استكمال قراءة الفصل الأخير هذا، كما نصحه الخامس في فصل سابق. فصادوفسكي بعد استسلامه لفكرة الغرق في اليوم الذي اشترى فيه الخنفساء لابنته شمس مُقترحًا احتفالهما معًا في مطعم السلاحف لم يغرق -لحسن الحظ، أو لِعدَمِه- بفضل شجاعة مسماري الذي أنقذه في اللحظة الأخيرة، برغم رحيله وجلوسه -كما رويتُ على لسانه- في حانة الأبدية مع شيخه دوستويفسكي. لكنه حين أفاق واستعاد حياته وشاهد دموع شمس التي اعتقدت أنها كادت أن تفقد أباها في حادثة

غرق عَرَضيّ؛ عضَّ أصابع ندمه العشر على قسوته التي عرضت شمس، في ذلك اليوم، لأقسى التجارب وأغرب المتناقضات التي يُمكن أن يتعرض لها كائن رهيف مثلها.

بطبيعة الحال، لم أتمكن من مُساعدته برغم قواي الخارقة، فمسألة الحياة والموت، كما هي مسألة العودة إلى الحياة، من جديد، شؤون وحدها المشيئةُ الإلهيةُ من يَفصلُ فيها، فذاك غرقٌ واقعيٌّ لا افتراضي في نهاية المطاف. بيد أن مسماري ومسيحي الرائع، مُحيي الغرقى ساعد صادوڤسكي على النهوض بعد استراحته وشربه لكأس ماء عذب، وقاداه معًا هو وشمس إلى المطعم ليستحم كما يستحم المستحمون بعد السباحة، التي لم تكن سباحة بل مشروع غرق في اللُّجَّة التي كانت على وشك ابتلاعه جسدًا تأهب لعبور برزخ عبره بالفعل، ليفاجئ شمس بعد استحمامه، بقوقعة بحريَّة أهداها إيَّاها في محاولة لإخفاء هول ما كان مقدمًا عليه، وكاد أن يحدث، بالفعل، لولا شجاعة مسماري الخجول.

بالنسبة لشمس، كانت تصرفاته في ذلك اليوم الذي لن تنساه لغزًا، وستبقى في ذاكرتها لغزًا لن تستطيع أن تجد له حلاًّ.

دارت الأيام دوراتها المُعتادة بعد عودته من الأبدية الهائلة، الأبدية التي عاشها بُرهة قصيرة في لحظات غرقه التي أنقذه منها مسمارُ هذه المخطوطة التي لم يكف صاد في الأيام التالية لحادثة غرقه عن تنقيحها وإعادة تنقيحها لولا غصَّتين في سُويداء قلبه: عدم رحيله عن هذه الفانية غرقًا كما تمنى وأراد، وعدم قُدرته على

استعادة فصل حانة الأبدية ولقائه بالمُثقفين الفانين هناك، بيد أن تفاحة لم تخلق لتخذله في آخر أعماله. فقد صُغتُ ما التقطته حواسي الخارقة كُلَّ ما كتبتهُ ذاكرة صاد اللاواعية عن لحظة أبديته القصيرة تلك، وأعطيت ما تمكنتُ من الحفاظ عليه للخامس الذي التقيتُه بعد حادثة الغرق لأخبره بتفاصيلها، ويبدو أنه نقح ما خربشته عن لحظة الأبدية وذهب لزيارة صاد ليعطيه الفصل الضائع ويُعاتبه على حماقة محاولته الغرق في يوم كان يحتفل فيه مع ابنته شمس بشراء الخنفساء البرتقالية.

لم أنشغل بتدوين حديثهما بسبب طقوسي الخيميائية ترتيبًا لظهوري الجسدي أمام المسمار الذي زادتني شجاعته في إنقاذ صاد إعجابًا به، وهو ما لن أشغل القارئ به لشرح كيفية ذلك اللقاء الذي اكتملت شروطه الموضوعية؛ لأحظى بحياة هانئة مع المسمار قد يكتب الخامس عنها في مذكراته التي يعكف على كتابتها. لكنني وطدت العزم على الوفاء بالتزامي أمامه بكتابة الفصل الأخير كيفما كانت النتائج، ومهما كانت. لذلك لم أتوقف عن مراقبة ما كان يحدث في منزل صاد بحكم قدرتي على التخفي وعدم الظهور. ولحسن الحظ استقرت نسبيًا حالة صاد الذي أضحى لا يُفارق شمس شموسه التي لم تكن تفارقه إلاّ لزيارة صديقاتها ولشراء مستلزمات البيت الضرورية طوال ثلاثة أشهر بعد حادثة الغرق.

ذات صباح، لم تجده شمس نائمًا كعادته في سريره، ولا متكئًا في أريكة المكتبة ولا حيث توقعته جالسًا على شرفة الإفطار، بيد أنها سمعت غناءه المرح فتتبعت الصوت لتجده منهمكًا في غسل الخنفساء الواقفة في مرآبها الظليل قرب سيارته الكورولا القديمة،

تلك التي طالما قال لشمس: سأرسلها ذات يوم إلى اليابان، لأنني لا أعتقد أنهم يحتفظون بموديل قديم على شاكلتها. لا متحف في بلادنا للسيارات، فربما اهتموا بها هناك ووضعوها في أحد المتاحف.

حين رأته مُنهمكًا في غسل سيارتها حيَّته ودعته إلى الشرفة لتناول الإفطار الذي حضرته بنفسها كالعادة.

أفطرا معًا وتحدثا عن الخنفساء والبهجة التي أضفتها مُؤخرًا على البيت.

كان قد روى الحديقة ورش الأشجار العالية برذاذ ماء الخرطوم، دون أن ينسى نخلة حديقته اليتيمة.

فجأة قال لها:

- أفكر جديًا أن أعرض على وكيل تويوتا المحلي أن يشحن هذه الكورولا الهرمة هدية مني لمصنعيها في اليابان. ما حاجتي إليها؟.. انظري، انظري كم تبدو الخنفساء رائعة بلونها البرتقالي بين أشجار حديقتنا النضرة. هل تعرفين؟ سأمكث اليوم في البيت، فلدي مشاريع كتابة، وأقترح عليكِ أن تختالي بخنفستك في المدينة مع صديقاتك. ما رأيك لو عزمت صديقاتك على الآيس كريم وتجولتن معًا في السوق؟

هيا. هيا. تباهي بخنفستك البرتقالية في شوارع المدينة، وانسي حادثة مطعم السَّلاحف السخيفة.

ابتهجت شمس لانشراحه كما راقها اقتراحه ذاك. أما صاد فقد قضى نهاره في إعادة قراءة المخطوطة مدققًا ما فاته تنقيحه ابتداء من الفصل الأول حتى فصول التنقيح الأخيرة، مُتمتمًا بمقولة لا أنساها

في مديحي، ردَّدها بينه وبين نفسه: كانت بارعة، بارعة حين روت تفاحة الأحداث على لساني، في لعبة سردية مقلوبة بين ضميري الرَّاويَيْن، كما أنه امتدح، بينه وبين نفسه أيضًا، قفلة الخامس إثر لقائنا في المقهى حين وجد الخامس فيَّ ضالته لأروي الفصل الأخير قبل إرساله للمُتبقي من تنقيح المخطوطة بالبريد المُسجل ليعيد صاد تنقيح التنقيح على هواه ليحذف منها أو يثبت ما يراه مُناسبًا: «قد أسمحُ لنفسي بكتابة فصل آخر عن صاد وحياته العادية خلال كتابته لهذا العمل، لكنني أتمنى أن تساعديني وتتحملي عبء كتابة الفصل الأخير بكل مصداقية تُمليها عليك روحكِ الحاضرة، وشفافية روحك المُغيَّبة».

ارتاح صادوفسكي لتلك النهاية، لكنهُ كان مترددًا بخصوص العنوان بعد مراجعته لأدق التفاصيل، ليستقر رأيه أخيرًا ويكتبه بخط ديواني متوسط الحجم على صفحة الغلاف: «**تنقيح المخطوطة**»، لأنه العنوان الأقرب إلى ما آلت إليه الفصول بأحداثها الغريبة وتشابك رواياتها المتعددة على لسان شخوصه الذين أمتعه تكذيب بعضهم لرواية الآخر، برغم أن العنوان الأصلي كان مختلفًا قبل أن تصب أنهرُ الأحداث صادقة وكاذبة في بحر روايته التي كاد ألاّ يُنهيها. والحقيقة أنه سوَّغ لنفسه فكرة تغيير العنوان، حين تذكر واحدة من مقولات غابرييل ماركيز التي لا تُنسى: «ليس من المناسب على الإطلاق أن يُوضع العنوان مُسبقًا، لأن العنوان الجيد تقدمه القصة نفسها، فمع تصاعد القصة، تتنامى إمكانية العثور على عناوين أفضل».

تنقيح مخطوطة رُواته هو أفضل عنوان لروايته التي لم يكتبها صادوفسكي وحده، بل كتبها أبطاله الحقيقيّون، الواقعيون

والمُختَرَعون، فدوره ككاتب هو تنقيح المخطوطة، بالأحرى تقمُّص دور صديقه الخامس مُحرِّر كتبه ومُنقحها، قبل أن يُصبح إحدى شخصياته الأساسية في هذا العمل الذي ما كان صادوفسكي ليُنهيه لولا إخلاص صديقه الخامس وإصراره وإلحاحه.

ابتسم للمُفارقة بتعامٍ بورخيسيٍّ سبق له اختباره في حانة الأبدية، واستكمل قراءة تنقيح مخطوطته.

كان واعيًا لبعض الفجوات التي لن يتقبلها القارئ بسهولة، لكنه آثر تركها على علاتها، كما أنه لم يشأ تغيير هذه الخاتمة التي رويتها، لا لأنهُ مُقتنع بأنني شخصيَّة روائيَّة وواقعية تدَّعي أنها مُغيَّبة؛ بل لأنهُ آثر السلامة بتطبيق نصيحة جونيشيرو تانيزاكي بحذافيرها: «على الكاتب ألاّ يكون واضحًا جدًّا؛ وعليه ترك بعض الفجوات في المعنى حفاظًا على طبقة رقيقة بين الحقيقة وبين الكلمات التي تُعبِّر عنها»، ولحسن الحظ، يبدو أن تلك المقولة التي استدعاها ذهنه المُتوقد كانت كافية لعدم تغيير ما أرويه الآن.

فيما بعد انتبه صاد لتكرارات في السَّرد، واستعادة أحداث سبق لأبطاله روايتها في فصول سابقة، بيد أنهُ تركها دون تعديل، مُعتبرًا أنها جسر عبور أو وسيلة لتذكير القارئ بأحداث الفصول الأولى في نهايةِ العمل، وكان شاهده الذي ركن إليه لتبرير ذلك مقولة ميلان كونديرا: «عندما تصل نهاية كتاب؛ عليك أن تجد سهولةً في تذكُّر بدايته وإلاّ تفقد الرِّواية شكلها، ويتضبَّبُ وضوحها المعماري».

أعاد المخطوطة بعد تنقيحها إلى المغلف، بعد أن عنونه باسم صديقه الخامس ليقوم بدوره التاريخي قبل نشر الكتاب: تنقيح التنقيح.

خلال انتظاره لعودة ابنته شمس؛ اقتطف لنفسه كوبًا من علبة الشاي بعد أن حلّاه بملعقة من العسل، تمامًا كما كان يفعل بطله الدكتور الجيولوجي في الفصل الأول، الفصل الذي كاد أن يُحوِّلهُ لقصة قصيرة بعد اختصار تفاصيله، حين قرَّر عدم استكمال مشروع الرِّواية. لكنه عدَّل عن تلك الفكرة حين استثمر صديقه الناقد (الخامس، بالأحرى) مقالة خافيير مارياس المُثبطة، ليُدخلها ضمن نسيج السَّرد الذي اقتنع به صاد، مثلما اقتنع بفصول تنقيح مخطوطته ومضى بكوب الشاي نحو الحديقة ليكون في استقبال وحيدته حين تعود وتترجَّل من سيارتها الخنفساء البرتقالية، ليستكملا مسرَّات ابتهاجهما اللامُتناهي.

الخاتمة

كانت رحلة مسرَّات مُبهجة مع صديقاتي اللواتي التقيتهن -كما اتفقنا هاتفيًا- في مقهى مركز تجاري اعتدنا التسوق في مَحالِّه الراقية، حين تكون محافظ نقودنا أحيانًا، وليس دائمًا، ممتلئة.

لم يتوقفن عن تهنئتي على خنفستي الجديدة، وطفقن يُمازحنني قائلات إن لونها البرتقالي حتمًا سيجلب بمغناطيسه الجذاب عريس المُستقبل. أضحكتني شقاوتهن، فقلتُ لهنَّ إنني كنتُ أفضلُ خنفساء فستقية اللون، لولا أن أبي هو من أصرَّ على هذا اللون لسبب غريب لا أعرفه. أسرفن في امتداح الخنفساء ولونها البرتقالي وقرَّرن دفع الحساب جماعيًا مع استثنائي من الدفع، ضاحكات مازحات في بنطلونات جينزِ الحاسرات مِنهُنَّ، كما في سواد عباءات المتحجِّبات، وهُنَّ يُبرِّرن استثنائي من دفع الفاتورة بحجة توفير النقود لشراء وقود للخنفساء التي اصطحبتهن على متنها في جولة، بعد أن تركن سياراتهن في مواقف المركز التجاري، لتقتادنا الخنفساء إلى أحد الغاليريهات الفنية التي عرَّفتهن فيها أعمالَ فنان باكستاني مقيم في بلادنا، بسبب إتقانه رسم البورتريهات، الصحراء، القلاع والوديان بقلم رصاص. لننطلق بعد ذلك نحو شاطئ البحر، حيث تمشينا ساعة قبيل غروب الشمس.

بعد ذلك تمشينا نحو السينما القريبة لمشاهدة ملصقات الأفلام، وجلسنا نثرثر في أحد المقاهي القريبة من صالة العرض، بينما كنا نتناول الآيسكريم. كانت تلك فكرتي، بالأحرى فكرة بابا لذلك أصررتُ على دفع فاتورة حساب الآيسكريم باهظ الثمن، وعدتُ بهن إلى مواقف المركز التجاري ليعُدن في سياراتهن، بعد قُبل الوداع.

حين عدت إلى البيت وجدت بابا جالسًا في الحديقة يشرب في استرخاء شايه المُحلّى بالعسل.

مسَّيتُ عليه وقبَّلتُ جبهته، وأخبرته بتفاصيل نهاري المُمتع وثرثرتي مع صديقاتي، وإعجابهن بالخنفساء ولونها البرتقالي إثر اصطحابي لهن في جولة أوصلتنا للشاطئ والسِّينما المُتاخمة.

سألته كيف قضى نهاره، فأخبرني أنه استكمل تنقيح عمله الجديد، وأنه راض عنه تمامًا.

كان فرحًا مُغتبطًا كما لم أره في الفترة الأخيرة.

أخبرته بعرض فيلم جيد في تلك الصالة، وأن بإمكاننا حضوره معًا إن شاء اليوم أو غدًا. ليعقب: أشعر بالانهاك بسبب التنقيح والحذف والإضافة، لذلك سنتعشى سندويتشات خفيفة الليلة، لننام في هدوء كي نصحو مبكرين، والفيلم سنشاهده غدًا. عليَّ إعادة قراءة المخطوطة مرَّة أخيرة صباح الغد لتدقيق التنقيح قبل تسليمها لمُدقق أعمالي ومُحرِّرها ليُراجع تنقيحي قبل إرسال المخطوطة للمراجعين اللغويين، وفيما بعد لدار النشر، وبرغم أنني أفصحتُ لكِ بالخطوط العريضة عن عملي الجديد، بما في ذلك فصل تفاحة، لكنني لن أسمح لك بالاطلاع عليه كاملًا إلاّ بعد طبعه ونشره، كالعادة.

قلت له:

- أوكّيه بابا.

لم أفصح له عن معرفتي سلفًا بما كان يدور في الكواليس، لكنني اطمأننتُ، في الأقل، لعودته للنشاط والعمل الأدبي، كما حاولتُ قدر المُستطاع تناسي حادثة مطعم السَّلاحف، وإنقاذ أحد نُدله لهُ من غرق مُحقق يوم فرحنا معًا بشراء الخنفساء البرتقالية.

في الصباح التالي أفطرنا كالعادة في الحديقة، وتركته يعمل طوال نهاره بعد اصطحابي لمجموعة من لوحاتي الجديدة لبرْوزَتها في أحد المَحالّ المتخصصة، على أن أعود في المساء كي نذهب معًا للعشاء ونحضر العرض السينمائي بعد ذلك. كنتُ فرحة ومغتبطة بعودته إلى وتيرة العمل، لذلك اتصلت بصديق أبي ومُنقح أعماله الناقد الشهير؛ ذاك الذي صرت أعرف أن اسمه البديل هو الخامس في مخطوطة والدي.

طمأنتُ الخامس على ما يحدث في البيت منذ وصول المغلف، واعتكاف أبي على تنقيحه، وارتياحه لفصول العمل. فرح الخامس بمكالمتي الهاتفية، وأخبرني أن أبي اتصل به أمس وأخبره أن العمل سيكون جاهزًا ليعيد تدقيقه قريبًا. تركتُ اللوحات لدى المُبروِز الذي قضيتُ سحابة نهاري في محله لاختيار الإطارات المُناسبة للوحاتي، وبعد ذلك ذهبت لزيارة أمي وتناول غداء تقليدي معها.

حين عدتُ في المساء، وجدتُ أبي في الحديقة يحتسي الشاي، مرتديًا أفضل ملابسه استعدادًا للعشاء وعرض التاسعة والنصف في السينما. بادرني قائلاً:

- كيف كان نهارك؟

- عظيمًا بابا، ستشاهد لوحاتي بعد أسبوع في براويزها الجديدة، فكما لا تسمح لي بقراءة أعمالك قبل طبعها، بدوري لن أسمح لك بمشاهدة لوحاتي إلا بعد اكتمالها لتراها في إطاراتها المُناسبة للعرض.

- هذا اتفاق قديم بيننا يا شمس، ما الداعي لتذكيري به؟.. حسنًا، وأين ذهبت بعد ذلك؟ مع صديقاتك؟

- لا، بابا، اليوم زرت الماما وتغديتُ معها.

- وهل كان أخوك الصَّلت هناك؟

- لا، بابا. الصَّلت مُسافر لأداء فريضة الحج عن أحد أصدقائه الذي توفي مؤخرًا.

- طيب. لا بأس، أنا جاهز. هيا البسي واستعدِّي. سنذهب في الكورولا القديمة.

- وهل ترضيك إهانة خنفساء شمس الوهاجة بلونها البرتقالي الفريد؟

- أقصد أنها المرة الأخيرة التي سأقود فيها الكورولاّ، لأنني جاد في إهدائها للشركة المصنعة، فهي قديمة جدًّا وأضحت كلاسيكية.

- سيعيدونها إليك. لا يكترثون لشيء سوى جمع المال من موديلاتهم الجديدة.

- لا بأس، إذًا. سأكون ضيفكِ وضيف خنفسائك، لكن أخبريهم في الوكالة أنني أريد إهداءهم هذه الكورولا، فربما صنعوا منها، بعد إعادة تدويرها، إنسانًا آليًّا يساعدني على تذكُّر مواعيد تناول الدواء، إن لم يكترثوا بوضعها في أحد المتاحف.

- لن نهديها، وإن كنتَ غير قادر على قيادتها سيأتيك سائق جيراننا لاصطحابك إلى مواعيدك في المُستشفى.

ضحكنا معًا، وانطلقنا في الخنفساء لنتعشى في مطعم قريب من صالة العرض، ولحسن الحظ كنا في الموعد قبل ربع ساعة من بدايته. لم يسألني عن الفيلم المعروض، كعادته أيام زمان. وبدوري لم أخبره عن الفيلم، فقد أحببت مُفاجأته. ولذلك لم أفكِّر مطلقًا في دعوة صديقاتي أمس لمشاهدته معهن، فقد أردتها مفاجأة لأبي.

حين شاهد ملصق فيلم «السَّاعات» *The Hours* أبهجته المُفاجأة غير المُتوقعة؛ فالفيلم مُقتبس من رواية مايكل كنِّينغام الحائزة جائزة پوليتزر ومن إخراج ستيفِن دالدراي، وتمثيل ميرِيل ستريب، نيكول كيدمان، جوليان مور وإد هارِّيس.

فرح أبي بالمفاجأة، وأخبرني أنه قرأ في إحدى الصحف عن تلك الرِّواية التي تعيد الاشتغال على رواية «السيدة دالاواي» لمعبودته ڤرجينيا وولف التي ذكرها بطل روايته في الفصل الأول. لحظتها لم يتمالك أبي نفسه وعانقني أمام قاطع التذاكر، قبل أن يشتري تذكرتين لي وله، ضاربًا عرض الحائط باتفاقنا المُسبق بأن أدفع أنا ثمن التذكرتين.

شاهدنا الفيلم الآسر منذ اللقطة الافتتاحية لانتحار ڤرجينيا وولف في الثامن والعشرين من مارس 1941، لتُسرد حياة السيدة دالاواي بتعقيد ماكر، وبانتحار مُعاصر لبطلها ريتشارد الشاعر الذي أحبتهُ ميريل ستريب، أو السيدة دالاواي في رواية الساعات.

خرجنا من فيلم الساعات بعد مُنتصف الليل، دون أن ندري كيف مرت تلك الساعات خلال مشاهدته، بتأثير الموسيقا الفاتنة، تلك التي لا تترك للمشاهد فرصةً حتى ليتنفس؛ بسبب تكثيف إيقاع

المشاهد ونقلاتها المفاجئة بين ثلاثة أزمنة: زمن انتحار ڤرجينيا وولف، زمن أم الشاعر ريتشارد مطلع الخمسينيات المُعجبة برواية السيدة دالاواي، والتي حاولت الانتحار، لكنها لم تُفلح برغم أن مخرج الفيلم قدَّم مشاهد بصرية أخاذة حين استأجرت غرفةً في فندق لتقرأ رواية السَّيدة دالاواي كي تنتحر، مُعوِّضًا مشهد الانتحار الفعلي بامتلاء غرفة ذلك الفندق بمياه غرق شبيهة بغرق مؤلفة الرِّواية، وأخيرًا زمن ريتشارد في التسعينيات الذي ألقى بنفسه مُنتحرًا من النافذة، في الليلة التي أقامت فيها عشيقته السابقة (ميريل ستريب)، أو السيدة دالاواي المُعاصرة حفلة بمناسبة فوزه بإحدى الجوائز. كان أبي فرحًا لاصطحابي إيَّاه لمشاهدة تلك التحفة السينمائية، كما سماها ونحن في طريقنا إلى البيت.

أثناء إفطارنا الصباحي الذي تأخر بسبب سهرنا لمشاهدة تلك السَّاعات المُمتعة، تحدث أبي عن الفيلم، عن السيدة دالاواي وطبعًا عن ڤرجينيا وولف التي يُقدِّسها لولا استباق شيخه دوستويفسكي لاحتلال المرتبة الأولى، وشيخه بورخيس للمرتبة الثانية في سُلّم تقديس أدبيٍّ كان عليَّ عدم تجاهله.

هكذا قضينا ثلاثة أسابيع مُبهجة معًا، خصَّصناها لاستعادة ذكرياتنا الحميمة أثناء جولاتنا بين المطاعم والمكتبات والمعارض الفنية ودور السينما.

كنتُ مطمئنة لحالة والدي الصحية والنفسية واستعادته لصفائه وإشراقته المُلهمة، إذ كان عليَّ متابعة دراستي في الكلية بعد إجازة مُنتصف الفصل التي أقمت فيها معه. أخبرته أن بإمكاني إلغاء

الدراسة في الفصل الثاني، إن كان يحتاج إليَّ لأكون قربه في هذه الفترة، لكن الفكرة أغضبته وطلب مني استكمال دراستي، فقد كانت الإقامة في سكن الطالبات في الكُلية فكرته هو، حتى أتفرغ للدراسة بعيدًا عنه وعن أمي بطلباتهما وإزعاجهما الدائم لي، كما ادَّعى أبي بنزق، لحظتذاك.

غادرته مساء الجمعة فرحة بسيارتي الجديدة، سيارتي التي سيتعين عليَّ إيجاد موقف مُناسب لها بين سيارات الأساتذة والطلاب. لم أتوقف عن الاتصال به بين فينة وأخرى، لكنني انقطعت عن الاتصال به نحو شهر. هو أيضًا لم يتصل بي، وخمنت أنهُ مشغول بتنقيح مجموعته القصصية، حتى هاتفني الخامس ظهيرة أربعاء طالبًا ملاقاته على عجل في مقهى قريب من الكُليَّة. استوضحته عن سبب اللقاء العاجل، هل حدث مكروه -لا سمح الله- لأبي؟.. لكنه طمأنني بصوت لا يُطمئن. لاحظتُ ارتباك الخامس الذي لم أعهده فيه من قبل، برغم محاولته لكي يبدو طبيعيًا قدر مُستطاعه خلال ذلك اللقاء الذي تمَّ في ظهيرة الأربعاء الذي لا يُنسى؛ ليُخبرني بالحقيقة ويصطحبني إلى البيت.

كان هذا قبل ستة أشهر من بداية كتابتي لهذه الخاتمة، هذه التي ما كنتُ لأكتبها، لولا إقناع الخامس لي بضرورة كتابتها، ليخبرني في لقاءات لاحقة للحادثة بتفاصيل لن أسمح حتى لدموعي بأن تقاطعه، دموعي التي سكبتها حين كنت وحيدةً في إناء مزهرية الخنفساء، دموعي المالحة، تلك التي كنت أخفيها حين أهرب من غرفتي لخنفستي، لتفضحها يناعةُ الزهور في إناء الخنفساء بعد أيام؛ حين اكتشفت، لاحقًا، أن ملح الدُّموع يهبها حياةً مُضافةً، حياةً

جديدةً لتستمرَّ تلك الزهور في الحياة فترات أطول مما كنتُ أتوقع.
تفصيل سيرغمني على سرد ما حدث بالضبط، قبل ستة أشهر من لحظة ابتداء كتابتي لهذه الخاتمة؛ حين أخبرني الخامس، في لقاءات لاحقة بتفصيل التفاصيل. لأن فكرة إنهاء والدي لحياته بنفسه ظلت تراوده وتلح عليه قبل أن يُصاب بسرطان الرِّئة الذي لا شفاء منه، برغم توقفه عن التدخين قبل عام أو أكثر.

لم يكن الخامس يعلم -كما أخبرني، فيما بعد- شيئًا عن الموضوع، فقد اضطر للتكتم عليه، وطلب والدُكِ من طبيب القلب ألاّ يذكر لكِ شيئاً عن الموضوع، بعد وعده الطبيبَ بالتوقف عن التدخين، كوعده بالخضوع لجلسات العلاج الكيماوي في الوقت المُناسب، حين يُنهي مشاريعه الأدبية؛ لأن العلاج الكيماوي مُهلك وقاتل لطاقات الجسد وفعاليته. لذلك استحلفه ألاّ يُخبركِ أنتِ يا شمس بالحقيقة.

أنا عرفتُ بالموضوع، عرَضًا، من مُعالجه النفسي، الذي كان صديقًا لطبيب أبيك الذي شخص إصابته بالسَّرطان، وبدوره طلب مني كتمان الأمر عنكِ. وللأسف، للأسف فعلتُ ذلك تصديقًا لوعده بالخضوع لجلسات العلاج الكيماوي بعد انتهائه من مشاريع الكتابة، أي مجموعته القصصية الجديدة وروايته التي بذلت أقصى جهدي ليُتمَّها على أكمل وجه ارتأيته ناقدًا، مُنقحًا لأعماله وصديقًا يُؤثِرني دون سائر النقاد، كما كنتُ وما زلت أرفع جلجلة مسيرته القصصية في بلادنا، لإيماني باختلاف تجربته عن الكُتاب الآخرين.

فعلتُ ذلك مدفوعًا برغبته في العلاج، وببُرهانه الذي قدمه لنا جميعًا حين توقف عن التدخين، آملاً مُتأمِّلًا أن يُفصح لكِ بنفسه، يا شمس، وفي الوقت المُناسب عن مرضه الآخر، سرطان الرِّئة،

الذي عرف أبوكِ كيف يخفيه زمنًا خلف غلالة مرضه الذي أصبحنا نعرفه جميعًا؛ ضعف عضلة القلب.

كان أبوكِ مفتونًا بتتبُّع سِيَر الكُتاب والشعراء والفنانين المنتحرين وإغواء طرائق انتحارهم، أمثال: آرثر كيسلر، يوكيو ميشيما، ڤرجينيا وولف، سيرجي يسينين، تيسير سبول، پاول تسيلان، كارين بويه، ڤلاديمير ماياكوڤسكي، خليل حاوي، ياسوناري كاوباتا، وطبعاً إرنست هيمنغواي الذي أحبَّهُ كثيرًا.

أعرف أنك لم تطلعي، بعد، على المخطوطة كاملة بعد تنقيحه النهائي لها، بيد أنك مطلعة على خطوطها العريضة، وفصل تفاحة. لكن أباك لم يرتح لما أورَدَتْهُ تفاحة -على لسانه- في فصلها الأخير عن هيمنغواي، برغم إثباته له في تنقيحه النهائي للمخطوطة. بيد أن فكرة الانتحار غرقًا، كباول سيلان وڤرجينيا وولف، وحدها التي سيطرت عليه وألحت على تفكيره لتحقيق حلم قديم بالموت انتحارًا، لا سيما بعد إدراكه ألاّ وجود لمعجزة طبيَّة لما كان يُعانيه من مرض السَّرطان الذي تفاقم فجأة، برغم توقفه المُتأخر عن التدخين.

وما حدث أمام مطعم السَّلاحف البحرية، في اليوم الذي أهداك فيه الخنفساء البرتقالية؛ لم يكن سوى تعديل مؤقت لفكرة انتحار مُبيَّت سببته شجاعة أحد الندل، لتأجيل الفكرة التي طالما سيطرت عليه، لتتقبلي أنتِ رحيله بأسلوب لا يصدمك ويؤثر في حياتك المستقبلية، لأنه هو نفسه لم يستطع أن يجد إجابات شافية لتصرفاته العجيبة في ذلك اليوم العجيب بإصراره على شراء السيارة وإفصاحه لك عن اقتراب ساعته التي تأجلت، لحسن الحظ، في

آخر لحظة بفضل تفاحة وحضورها الغيبي، حضورها الذي أوحى لذلك النادل أن ينقذ صادوفسكي من الغرق يومذاك.

بعد رحيلك عنه لمتابعة دراستك في الكُليَّة؛ اتصل بي طبيبه المُعالج ليخبرني مُتأخرًا بما لم يكن بالإمكان تفاديه يومذاك قائلاً إن أباك طلب منه تحديد موعد لزيارته، وحين القتاه اعتذر له عن عدم استكماله لجلسات العلاج، لكنها أفادته -كما قال له- كثيرًا في عمله الذي انشغل بتنقيحه. وقد تقبَّل الطبيب اعتذاره برحابة صدر، فسأله عن سبب الزيارة فقال له أبوكِ إنه يُعاني أرقًا في الفترة الأخيرة، وإنه بالكاد ينام نومًا مُتقطعًا، طالبًا منه أن يصف له مُنومًا قويًا يُساعده على النوم. وأبوك -يا ابنتي- طلب منه وصفة من ثلاثين حبة، لأنه ادَّعى -مُراوغًا طبيبه، للأسف- أنه على وشك السفر، ويخاف من تأثير تغيُّر ساعته البيولوجية السَّلبي عليه، فأخبره الطبيب المُعالج أن المُنومات القوية تسبب الإدمان، وعادة لا تصرف إلا بمقدار فترة لا تتجاوز الاسبوع، فألحَّ عليه أبوك صادوفسكي أن يعتبره مريضًا استثنائيًا ويصرف له، في الأقل، جرعة تكفيه لعشرين يوماً.

يومها احتار الطبيب في الأمر، فقدر ما لا يريد ردَّهُ خائباً قدر ما كان يشعر بأنه سيرتكب خطأً مهنيًا فادحًا. لكن أبوكِ طمأنه بمعرفته بضرر استخدام الأدوية المُنومة على المدى الطويل، وأنه لن يستخدمها إلا وفق الحاجة، وفي الضرورات القصوى، خلال سفره. وقد وثق فيه الطبيب وأعطاه وصفة الحبوب المُنوِّمة، وأبوك شكره على جهده في تدوين ما كانت شخصياته تتفوه به خلال تنويمه مغناطيسيًا في الأيام الخوالي، واعدًا إياه بنسخة مُهداة من كتابه فور صدوره.

ولن تصدِّقي، لن تصدِّقي يا شمس ما حدث بعد ذلك يوم الثلاثاء السابق لأربعاء الرَّماد ذاك. لن تصدِّقي ما باحت لي به تفاحة، مُتأخرة، للأسف بسبب صعوبات فسيولوجية واجهتها في الخروج من شرنقة عالمها الغيبي، لتتجلى كائنًا يلبسُ لبوس اللحم والدَّم في نفس المقهى الذي التقيتها فيه خلال العمل على تنقيح المخطوطة؛ لتخبرني بتفاصيل ذلك اليوم العجيب بثنائيات تقلُّباته؛ فبمجرد خروج أبيك من عيادة الطبيب توجَّه إلى أقرب مسقطٍ لصيدليات المدينة، ليُصرف له المُنوِّم الذي لا يُصرف إلا بوصفة طبيب. وبحكم أمراض أبيك المُزمنة، وبحثه الدائم في شبكة الإنترنت، توصَّل إلى معرفة صيدلانية لا بأس بها حول تأثيرات العقاقير والأدوية، لذلك طلب من الصيدلاني -إضافة لدواء الوصفة- علبة أسبيرين ودواءً للكُحَّة والتهاب الشعب الهوائيَّة، وهي أدوية تُصرف دونما حاجة لوصفة طبية، وقد استعملها أبوك بطريقة خاطئة أو بجرعات زائدة تؤدي إلى ارتفاع مُفاجئ في ضغط الدم الشرياني؛ خاصة لدى الأفراد كبار السِّن مثله، والذين يعانون من ارتفاع ضغط الدم.

هكذا اشترى -كما روت تفاحة- كوكتيله الانتحاري وخرج من الصيدلية. طبعًا لم يذهب إلى البيت مُباشرة، بل قاد سيارته الكورولا القديمة قاصدًا مطعم السلاحف البحرية ليلتقي تفاحة التي تجسَّدت أمامه.

كان يوم عطلة المسمار الذي كان يجلس معها على حافة الشرفة البحرية، وهيَ في كامل أناقتها؛ فتاةً خارقة الجمال في عشرينيات عمرها، ناضجة كثمرة مشمش تحتسي بمعية مسمارها

كأسي بيرة، بينما تُداعبُ قطةً مُتوحشة، قطة ضخمة الحجم استأنستها تفاحة وتبدو للناظر ككلب أليف تحت الطاولة. كانا قد اتفقا عبر التخاطر، خلال استغراق أبيك في تنقيح المخطوطة على ذلك اللقاء، لكنها لم تحدس نوايا أبيك حينها.

حين وصل المطعم تعانقا لأول مرة هو وتفاحة، وقدم لها باقة ورد. سحب المسمار مقعدًا من الطاولة المجاورة ليجلس أبوكِ بينهما هي والمسمار الذي أنقذه يوم أهداكِ الخنفساء البرتقالية من حادثة الغرق. فتح حقيبته الشهيرة، وأخرج إضبارة المخطوطة المُنقحة من فصلها الأول حتى فصلها الأخير، فصلها الذي تمعنت فيه تفاحة وقرأته بعناية، لتعطي المخطوطة بعد ذلك للمسمار كي يقرأ فصلها السِّري، فصلها الذي لم يقرأه مطبوعًا على ورق، وإنما عبر جسر التخاطر السحري الذي سبق لتفاحة ابتداعه. طلبت لأبيك زجاجة شمپانيا احتفالاً بانتهاء تنقيح المخطوطة، قدَّمها مع مُقبلات بحرية نادلٌ آخر بطبيعة الحال.

فجأةً أخرجَ أبوكِ من جيبه مفتاحين دائريَّين انتزعهما من مفاتيح آلته الكاتبة القديمة، تلك التي اشتراها من تاجر أنتيكات في أصفهان، بمبلغ مُحترم، في تلك السَّنة التي دُعي فيها لقراءة قصصية هناك بمناسبة صدور ترجمة إلى الفارسية لإحدى مجاميعه القصصية التي أعجب بها مُترجم في جامعة طهران وقدَّم لها الشاعر الإيراني المعروف محمد علي سِپانلو.

طبعًا تعرفين خوف أبيك من ركوب الطائرات، لذلك سافر برًّا إلى دبي، ومن هناك عبر الخليج إلى بندر عبَّاس في باخرة، ثم برًّا تصاعُدًا حتى أصفهان.

حدث ذلك، إن كنتِ تذكرين، في الفترة التي حاول شراء خنفساء قديمة بمُحرِّك خلفي ولم يُفلح في المُزايدة عليها لتكون من نصيبه. وبطبيعة الحال تعرفين فرحه بتلك الآلة الكاتبة الكلاسيكية، تلك التي تشبه تقريبًا الآلة التي رقنت عليها ڤرجينيا وولف رواية السيدة دالاواي، لولا أنها أحدث منها عمرًا وتعود لمنتصف الستينيات من القرن الماضي.

كان محظوظًا بعثوره على تلك الآلة التي باعتها عائلة فقيه إيراني كان يرقن مؤلفاته الدينية باللغة العربية؛ لتطبع في النجف في الفترة الفاصلة بين رحيل الشاه وقيامة الثورة الإيرانية. لكن جهاز السافاك زجَّ بذلك الشيخ في السجن، وهو شيخ معروف من عُلماء الشيعة الذين قاموا بأدوار سياسية وقيادية بعد ثورة الخميني.

باختصار دفع أبوك ثمنها لبائع الأنتيكات واصطحبها معه في رحلة العودة، ولم يستبدلها بالحواسيب التي بدأنا استخدامها منتصف الثمانينيات، برغم أنه استخدم حاسوبك القديم في البداية، إلاّ أنه تعلّل بأن ترتيب حروف الأبجدية مختلف عما اعتاده في الآلة الكاتبة، الآلة التي كان يدعوها تحبُّبًا «السَّيدة دالاواي»، إن كنتِ تذكرين يا شمس، الآلة التي رقن عليها مجامعيه القصصيَّة ومقالاته الصحفية، وكان يستعين بي وبأصدقاء آخرين لإعادة رقنها على حواسيب أيام زمان.

أخرجَ مفتاحي آلته الكاتبة النحاسيَّين، وقدمهما لتفاحة.

قرأتُ في قعر الحلقتين النحاسيَّتين حرفي [ت، م]. سألته عن مقصده. لم يُجبها، بل ضغط على الحرفين بقوَّة، ولم يتمكن من تحريرهما من الحلقتين النحاسيتين. ارتشف جرعةً من كأس

الشمپانيا وحاول مرَّةً أخرى، لكنهُ فشل في مهمته. عندها طلب من المسمار أن يقوم بتلك المهمة وتمكّن من تحرير حرفي التاء والميم من حلقتيهما النُّحاسيتين بعد استعانته بسكين مطويَّة أخرجها المسمار من جيبه.

حين تحرَّرت الحلقتان النحاسيَّتان، بعد لأي، من الحرفين، قال صادوڤسكي لهما:

- ارفعا كأسيكما، في هذه الظهيرة أزوجكما!

صافحهما، ثم ألبس حلقة الميم النحاسيَّة أُصْبُعَ تفاحة، وألبس حلقة التاء أُصْبُعَ مسمارها الخجول، وصافحهما من جديد. قبَّلهما، وقال لهما:

- أنتما الآن زوجان طليقان، خارج النصّ، خارج المُؤرَّخ والمُنقح في هذه المخطوطة. النحاس معدن ساحر، وسيؤالف بين قلبيكما مهما اتسعت شقة المكان والزمان. استمتعا بحياتيكما في هوائكما الطلق، فقد تمَّ المُراد وانتهت الحكاية.

رفعوا كؤوسهم من جديد، وفتح صاد إضبارة المخطوطة على فصل كتبه الأصلع خلال تداعيه الفردوسي، حين عثر على جملته اللذيذة، جملته التي لن يسرقها الزمن كتيجان الملوك.

ضحكت تفاحة من تفاحةِ قلبها، ثم قالت لصادوڤسكي:

- أعرف أنك زعلت من همزي ولمزي من سُكر هيمنغواي وعربدته في حانة الأبدية، لكنك أثبتَّ ذلك في تنقيحك النهائي للمخطوطة، لماذا؟

- لأنكِ نقلتِ، على لساني، ما لم يكن بإمكاني قوله عن رحلتي الخاطفة إلى الأبديَّة، تلك الرحلة التي أنقذني منها بشجاعة غير مُتوقعة مسمارك الخجول هذا، وليته لم يفعل.

- ولماذا أفسدتَ مفاتيح السَّيدة دالاواي، أقصد آلتك الكاتبة؛ لتزوجنا رمزيًا بحلقتين نُحاسيَّتين تحملان حرفي اسمينا أنا ومسماري؟

- لسبب بسيط. لقد تمَّ ما صُنعت من أجله تلك الآلة، ولن أستخدمها مرَّة أخرى. فبفضلكِ، وبفضل المسمار عشت برهة قصيرة في الأبدية، والتقيت شيخي دوستويفسكي، واعترافًا مني بتسجيلك النادر لتلك الحوارات، اعترافًا بفضلكِ زوجتكما رمزيًا بهذين المفتاحين اللذين انتزعتهما من آلتي الكاتبة القديمة.

- ولكن لماذا يا صاد؟

- آه، لماذا؟.. لأن غابرييل غارسيا ماركيز قال ذات مرة يا تفاحة: «ليس هناك من عمل للتحرُّر الفردي أروع من جلوسي وراء آلة كاتبة لابتداع العالم»، وها أنا ذا قد ابتدعتكما في المخطوطة، كما ابتدعتُ الأصلع وحلمه الأثير والدكتور الجيولوجي. يكفيني ما ابتدعتُه يا تفاحة، ويكفيني ما ابتدعَهُ حضوركِ المُغيَّب، حضورك الذي لن ينساهُ «قُراؤك الأعزاء» في هذه المخطوطة. أليس هذا عملاً حرَّركما وحرَّرني؟

- دون شك، دون شك سيدي صاد. في صحتك، وفي صحة من زوَّجتنيه بسحر الكلمات ونُحاسها.

- في صحَّتكما.

ودَّعهما، ودَّع تفاحة ومسمارها ليعود بمخطوطته إلى البيت، ويُجري اتصالين هاتفيين ليلة الثلاثاء التاريخية تلك؛ أولهما بك أنتِ يا شمس حدَّثك خلاله مُطولاً بروح المُتفائل، والثاني بي أنا؛ صديقه الخامس، طالبًا مني زيارته غدًا الأربعاء في العاشرة والنصف صباحًا لأمر هام لم يُفصح عنه.

وصلتُ بيت أبيك لأجد باب بيته الخارجي مفتوحًا على مصراعيه. دخلت من الباب الخارجي مهَمهِمًا بصوت تحاشيت أن يكون خافتًا أو لافتًا قدر المُستطاع، لكن لم يرد عليّ أحد.

لاحظت غياب خنفسائك البرتقالية، كما لاحظت الغبار المُتراكم على الكورولا التي يبدو أنها لم تُستخدم كثيرًا في الأيام الأخيرة. تجرَّأت أكثر، وأدرتُ مقبض باب البيت الرئيس، فانفتح. كانت الصالة فارغة، وكان التلفاز يَفحُّ بموجز للنشرة. لاحت في ذهني صورة مُتخيلة للدكتور الجيولوجي وللأصلع وحلميهما الأثيرين، ولتفاحة ومسمارها، لكن رائحة قلويَّة قابضة لن أتمكن من نسيانها طوال حياتي قادت خطاي إلى المكتبة.

كانت السِّتارة مسدلة، وكان أبوك صادڤسكي يبدو كالنائم على الأريكة قريبًا من الطاولة المُزاحة عن وضعيتها بحركة قدم بدا واضحًا أنها كانت الأخيرة قبل تيبُّسها.

لم أكُن، لحظتها، في حاجة لِلَمْسِ يده لأتأكد من نبض عروقه، فعُلبة المُنوِّم الفارغة من أقراصها العشرين، فضلًا عن علبة الأسبيرين ودواء الكُحَّة، جميعها كانت قرائن ودلائل كافية لاستنتاج ما حدث ليلة الثلاثاء السَّابق لأربعاء الرَّماد ذاك. لذلك اكتفيتُ بتأمل وجهه المُبتسم برضا أخير نحو خمس دقائق، قبل اتصالي بكِ لنلتقي سريعًا في أقرب مقهى مُجاور لكُلية الفنون، فقد بدا بوضوح كوب شاي بارد، كوب شاي -لستُ مُتيقنًا إن كان مُحلّى بالعسل- في مكانه التقليدي، تمامًا كما كان في الفصل الأول، قريبًا من كتاب لن يتسنى لي أو لأحد سواي التأكد إن كان أبوك صادوڤسكي قد انتهى من قراءته أم لا؛ لأنني لم أجد علامة قصٍّ بين صفحاته، لولا شِعار رسمة ديك منفوش الذيل، عرفتُ فورًا أنه شعار تلك

السِّلسلة الكلاسيكية التي نشرت كتاب «الحياة على المِسيسبّي» لمارك توين.

لم يظهر من كوب الشاي البارد، شبحُ فنانٍ من القرن التاسع عشر، ليرشدني إلى ما ينبغي لي فعله تلك اللحظة، بيد أن سفينة غلاف كتاب مارك توين أبحرت بي تلقائيًّا إلى أزمنة لن تعود، كما لن يجري نهرُ حياتها من جديد، لا هنا ولا هناك، فقد كانت تلك النسخة النادرة مُوقعةً بإهداء من فتاة تُدعى خوانيتا سانشيز إلى صديقها الذي عاد إلى وطنه بشهادة دكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة برينستون. تقصَّيتُ الأمر فيما بعد، فعرفتُ من أصدقاء أبيك أنه كان صديقًا لدكتور كان يعمل في إحدى شركات النفط، واستقال بعدما ضاقت به الحياة، ليرحل عنها بعد ثلاث سنوات من تقاعده بسكتة قلبية مفاجئة.

ذاك الدكتور كان صديق أبيك يا شمس، صديقه الذي أوحى له بكتابة الفصل الأول من المخطوطة، وقدَّم لهُ معلوماتها العلميَّة الدقيقة عن حياة كائنات ما قبل الحياة، وما تضمَّنه جدول الزمن الجيولوجي من عصور وحقب تعاقبت لتتعاقب دوراتها، وقد كانت سيارة الدكتور في لحظات يأسه تترك مربضها الذي لا تفارقه إلاّ في مُناسبات نادرة تقودها، تقود نفسها بالأحرى في نزهات ليلية لم يجد لها بطلُ أبيكِ تفسيرًا في أكثر أحلامه تعقيدًا وأقلها قابلية للتأويل، لأن الدكتور هو من كان يقودها، آنذاك، في لحظات اضطرابه النفسي الذي كان يبوح به لأبيك وحده؛ حين كان يصطحبه إلى نادي شركة النفط ليشربا معًا كأسي نبيذ أبيض ويتناولا فواكه بحر وشريحتي سمك هامور مشويتين وطماطم اعتاد النادل الهنديُّ شيَّها للدكتور المُصاب بالكوليسترول، وفق تعليمات طبيب

الشركة الهولندي. قد لا تتذكرينه الآن، ذاك الدكتور الجيولوجي، بيد أنه ترك بعض كتبه العلمية والأدبية مع أبيك، طالبًا منه أن يكتب حكايته في إحدى قصصه القصيرة.

كان مُغلف المخطوطة المُنقحة موضوعًا تحت كتاب مارك توين، الذي كشف لي أسرار الفصل الأول، وتحت المخطوطة كان مغلف مجموعة أبيك القصصية الأخيرة. أزحتُ كتاب توين، وقرأتُ ما كان مكتوبًا على غلاف المخطوطة المُنقحة بخط رُقعةٍ مُرتجَل:

«صديقي الخامس:

بالتأكيد سترعى وحيدتي شمس بعد رحيلي، بالتأكيد ستفعل ذلك. ووصيَّتي الأخيرة بذل قُصارى جهدك لنشر مجموعتي القصصية الأخيرة. أما هذه المخطوطة فإنني لا أريد نشرها باسمي على الإطلاق. يكفيني مجد مجاميعي القصصيَّة؛ لذلك سَرِّب المخطوطة المُنقَّحة لأحد الكُتَّاب حتى ينتحِلَها وينشرها باسمه. وبعد ذلك، عاقبه دوستويفسكيًّا على جريمته بمقالةٍ لاذِعَة سنستمتعُ بقراءتها أنا وشيخي، وربَّما قهقهنا مثل إرنست هيمنغواي الذي لن أتردَّد في دعوتِهِ إلى كأسِ مُصالَحَة في حانةِ الأبديَّة».

هذا الكتاب

ليلته تلك، لم تكن لتختلف عن كثير من ليالي أرقه الأخيرة، رغم أن حياته كانت طبيعية وعادية قبل تقاعده من منصبه الرفيع في شركة النفط التي لم تبخل عليه براتب سخيّ بعد أن ثمَّنت مهاراته التي امتاز بها على زملائه، وكافأته منذ أزمنة التحاقه المُبكر بدورات مكثفة للتعمق في دراسة الطبقات الرسوبية بعد إظهاره لفراسة ثاقبة في قراءة الخرائط الجيولوجية جعلته يُميِّز، بعين الخبير، طبقات المكامن النفطية ذات الجدوى الاقتصادية من تلك التي يصعب استخراج النفط منها، فضلاً عن تقديراته الصائبة لمراحل سنواتها الإنتاجية حين يكون مستوى الضغط الطبيعي في جوف المَكمن كافيًا لدفع النفط عبر ثقوب الآبار، أو بعد انخفاضه حين يزداد معدل استخراج النفط ويكون الاعتماد على مضخة الذراع المُتأرجحة ضروريًّا للمساعدة في ضخه إلى السطح، وصولاً إلى المراحل التي تستوجب ضخ المياه في البئر للمساعدة على دفع النفط، قبل اللجوء -في مراحل نضوبها الأخير- إلى حقنها بالغاز لاستخراج خثارة الخام العالقة في مسام الصخور.